نزيف الفقراء

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

د. طالب عمران

نزيف الفقراء

قصص

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر

(بالضرورةِ**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

ملامح من الذاكرة الوراثية

-١-

كان في قبوه العتيق، يقضي جلّ لياليه وأيامه. ورغم أنه موظف إداري في إحدى الشركات الصناعية، فقد كان شخصاً مختلفاً.

أتى من قرية بعيدة ليدرس في الجامعة، فشدّته العاصمة ليبحث فيها بعد أن تخرّج في كلية التجارة عن عمل مستقر يدرّ عليه دخلاً يقيم به أوده في زمن عزّت فيه الوظيفة. وحين قابل لجنة المقابلة في تلك الشركة الصناعية التابعة للقطاع العام، تعرّض لأسئلة كثيرة، لم يتعرّض لها بقيّة المتسابقين:

- أنت تملك ثقافة واسعة يا أستاذ (زاهر). أهلك ما زالوا يعيشون في القرية؟

- أنا وحيد بين أربع بنات، كلّهن تزوّجن. أصغرهن تعيش معها أمي في بيت العائلة الكبير. وحين أذهب إلى هناك أشعر أني أضايق أختي وأولادها. لذلك أذهب إلى هناك في فترات متباعدة.

- أنت تعيش في دمشق إذن؟ تملك بيتاً؟

- استأجرت قبواً صغيراً منذ أن قدمت إلى هنا للدراسة، وهو مناسب لي.

- حسناً، يمكنني إخبارك أن مقابلتك كانت ناجحة، ومعدّلك الجيد في الجامعة يؤهلك لأن تبدأ وظيفتك عندنا. مبارك.

- شكراً لكم، وأتمنّى أن أكون على مستوى حسن ظنّكم بي.

- خلال أيام ستصلك رسالة القبول لتبدأ بجمع الأوراق المطلوبة للالتحاق بالعمل.

* * *

أعطته الوظيفة الأمن والاستقرار، كانت أمّه تمدّه بالمال في سنواته الأولى في الجامعة ولكنها توقّفت عن ذلك فيما بعد، بحجة أن أخته تحتاج المال وأولادها أكثر منه.

بدأ يكتب بعض المقالات في الجريدة، ونجح في الحصول على عمل في مكتب سفر، المهم أنه نجح في جمع المال اللازم لإكمال دراسته، ثمّ البحث عن وظيفة، تيسّرت له أخيراً. طرق على الباب كان صديقه أمام الباب:

- أهلاً بك يا غسان. خير؟ ما بك؟

- أحتاج بعض المال منك، لفترة أسبوع أو أسبوعين.

- خير؟ يبدو عليك الحزن والتجهّم.

- والدي دخل في غيبوبة، وسأدخله المستشفى.

- على عيني، سأحضر لك خمسة آلاف ليرة، هل تكفي؟

- تكفي الآن. أرسلت لأختي رسالة على الهاتف الجوال لترسل لي بالبريد السريع بعض المال، هي تقيم وزوجها في الخليج كما تعلم.

- لا بأس. سأزورك في المستشفى وأطمئن على والدك.

- بارك الله بك يا زاهر.

- ولكن زاهراً، رأى حلماً غريباً تلك الليلة. رأى رجلاً بدائياً يقفز من فوق الأشجار كالقرد، ثم يلقي نفسه في بحيرة مليئة بالتماسيح. والمدهش أن وجهه كان شبيهاً بوالد غسان. حكى الحلم للدكتورة نجوى في الجامعة، وقد تعرّف عليها في محاضرة ألقتها في المكتبة العامّة، كانت تحكي عن المورّثات والجينات الوراثية.

- يا زاهر. رؤيتك لوجه جارك (أبي غسان) مطابقاً لوجه ذلك البدائي ربّما كان أمراً عارضاً، إذا تكرّر الحلم، هناك تفسير آخر.

- معك حق. أحضرت لك كتاباً حول (خفايا الحياة) لـ«كولون ويلسن».

- جيد. ربّما أفادني ببعض الأفكار. أنا أعدّ كتاباً عن القوى الخفيّة، وقد أفادني كتابه الأول (القوى الخفية).

- لا بأس، أستأذنك، أنا ذاهب لرؤية أبي غسان في المستشفى.

- في مستشفى الجامعة بالتأكيد!

- نعم. غسان موظف في ديوان رئاسة الجامعة. وكان أبو غسان أستاذاً في الجامعة أيضاً.

- حسناً يا زاهر، أبلغني بالجديد، حول وضع أبي غسان. مع السلامة. تأخرت على محاضرتي.

- إنه غائب عن الوعي. غيبوبته لم يعرف الأطباء لها سبباً حتى الآن.

- كان والدك كثير العزلة في الأشهر الأخيرة، لا يستقبل الناس حتى الأقرباء إلا بصعوبة، قلت لي إنّه يكتب كتاباً.

- نعم. حتى أمي كانت تحضّر له الطعام والشراب إلى غرفته التي يسهر فيها أحياناً لوقت متأخر. أليس كذلك يا أمي؟

- نعم يا بني. والدك يا غسان كان غريب الأطوار في الفترة الأخيرة قبل أن يسقط في غيبوبة. ولا أعرف السبب. كان يستخدم الميكروسكوب كثيراً في أبحاثه.

- غريب الأطوار؟ ماذا تقصدين يا خالة؟

- يعني يا بني يا زاهر، كان يقوم بحركات غريبة، حين أدخل عليه بالطعام فجأة. وكان يتمدّد على الأرض ويلوّح بيديه ورجليه ثم يحبو على أربع. ومرّة رأيته يتسلّق النافذة العالية، كأي شاب صغير.

- وكيف سقط في الغيبوبة يا خالتي؟

- رأيته كمن يقاتل أشباحاً وهو يتخبّط يميناً ويساراً ولم أجرؤ على الاقتراب منه، وفجأة سقط على الأرض مغمى عليه.

- كان يكتب في كتابه دائماً. كما قال غسان. كان مهتمّاً كثيراً بالكتابة.

- نعم لديه الكثير من الصفحات التي كتبها بخط يده، يحتفظ بها على مكتبه بحرص بالغ. ربما لو استيقظ من غيبوبته سيتصرّف بها كما قال.

- ما الذي تحويه هذه الصفحات؟

- جزء من تجارب يقوم بها وقد قال لي في الفترة الأخيرة:

«انتبهي لهذه الورقات يا أم غسان فيها خلاصة تجارب استثنائية. عندما سأنشرها في المستقبل ستكون عملاً يشغل بال الكثيرين. هي جزء من أحلام البشرية».

حدّث نفسه: يبدو أنني قصّرتُ في متابعة نشاطاته. مع أنه دعاني أكثر من مرّة لزيارته. واعتذرت. ما أزال أتذكّر كلماته:

«أشعر أنك على جانب كبير من الثقافة، وأرجو أن تزورني دائماً، ربما أحتاجك في فهم بعض الأمور. لا تتأخّر عنّي يا زاهر، أنا الآن في مرحلة مهمّة من أبحاثي».

استرجع كلماته التي قالها آخر مرّة التقاه بها، وشرد يفكّر في هذا الرجل الغامض كان (أبو غسان) أستاذاً في الجامعة. درّس فيها على مدّة (٣٥) عاماً. وكان يتمتّع بقدرة كبيرة على جذب طلابه لموضوع الدرس رغم تعقيداته العلمية والفلسفية أحياناً.

نظر إليه يتأمّله في غيبوبته، فشعر أن أجفانه ترف.

«يبدو أنني سآتي إلى هنا لزيارة (أبي غسان) والحديث معه مباشرة». قال للزوجة:

- يقال إن من كان في غيبوبة يسمع كل الكلام الذي يدور حوله.
- هذا صحيح. وأتمنّى أن تجلس إليه وتخاطبه بأسلوبك. قد تنجح في إيقاظه من سباته.

وفي تلك الليلة حلم زاهر أيضاً، كان الحلم يدور حول غابة من الشجر الكثيف التي تتداخل فيها الأغصان، وتجري فيها القرود والحيوانات. ورأى مجموعة من البدائيين يقفزون من بين الأشجار مستخدمين أصابع يديهم وأصابع أقدامهم الشبيهة بأقدام القرود.

* * *

«إنهم يتوقّفون أحياناً لالتقاط الثمار، أو أكل بعض الغصون اليانعة. منظر بدائي للأرض، ربّما يزيد عمره على مئات ألوف السنين. هذه مجموعة أخرى من البشر في لباس بدائي، ولكنهم يختلفون عن هؤلاء الذين يتنقلون بين الأشجار. ماذا أرى؟ إنهم يحملون الأقواس والأسهم مدبّبة الرؤوس. رأى رجلاً وجهه شبيه بوجه (أبي غسان) حاول الاقتراب منه».

ولكن الرجل لوى رأسه وابتعد مع رجاله، الذين أوتروا أقواسهم وأطلقوا السهام نحو أهداف تتحرّك بين الأشجار. ورأى غسان أفعى ضخمة تسقط وفيها أكثر من سهم اخترقها، كما رأى رجلاً بدائياً من أولئك الذين يتنقلون بين الشجر يسقط أمامه مضرّجاً بدمه وقد اخترق سهم قلبه.

ذلك الكهل الشبيه بأبي غسان، كان كأنه يهرب منه، حاول أن يتبعه. كان ورجاله يركضون بسرعة لم يستطع اللحاق بهم. كان ثمّة أصوات وحوش تنتشر حوله.

استيقظ زاهر مدهوشاً. شرب الماء، وقفز إلى مكتبته يقرأ في كتاب عن الأحلام.

«الأحلام الغريبة ترتبط أحياناً بواقع عاشه الإنسان، ظلّ مخزوناً في ذاكرته الوراثية».

سأل نفسه: ولكن لماذا أرى أبا غسان؟ لماذا؟

تابع القراءة: - ربّما تكون الأحلام أحياناً انعكاساً لنشاطات إبداعية يقوم بها الإنسان، من شعر وقصة وإبداع علمي.

رنّ جرس الباب الخارجي فأيقظه من ذهوله:

نظر إلى الساعة، كانت الخامسة والنصف صباحاً، مَنْ الذي يأتي إليه في مثل هذه الساعة؟ فتح الباب ليطالعه وجه أمّه المرتبك:

- آسفة يا بني، لم أستطع أن أخابرك. جئت مبكّرة بالتأكيد، عد إلى نومك. ولا تنشغل بي.

ضمّته إلى صدرها:

- أهلاً بك يا أمي، أنا سعيد بزيارتك.

نظرت حولها مستغربة:

- كنت مستيقظاً، يبدو عليك النشاط. هه لم تنم بعد.

- بل نمت مبكراً أمس، واستيقظت وقد شغلتني بعض القضايا، التي لها علاقة بعملي. قضايا بسيطة لا تقلقي. أنت جئت مبكّرة أكثر من اللازم. هه؟ أهناك شيء؟ يبدو عليك التعب والحزن.

انفجرت تبكي:

- ذلك النذل زوج أختك، سرق مالي الذي أدّخر لضعفي ومرضي وأنا امرأة وحيدة يتقدّم بي السن، قد أمرض أو أضعف.

- معقول يا أمي؟ كنتِ تدافعين عنه دائماً، وتقفين إلى جانب أختي في صف الدفاع عنه.

- كان يبتزّني ويهدّدني بالطرد، إن حكيت لك شيئاً عن الأعمال التي يقوم بها.

- وما الأعمال التي يقوم بها؟

- كان يجبرني على القيام بأعمال متعبة من غسيل وطبخ وجلي وتنظيف البيت، لتتفرّغ أختك لتدريس الأولاد. ولم أسمع منه كلمة طيبة. كان يعاملني باحتقار وعصبية.

- وكيف أدخلتِ هذا الوحش إلى بيتك. زوّجتِ أختي وأسكنتِها البيت معك، نصحتُك كثيراً أن لا تفعلي ذلك، ولكنّك كنت عنيدة.

- بكت أختك كثيراً لتقنعني بوجودها وزوجها معي، من أجل تسليتي فالبيت كبير وواسع، ولا يجب أن أبقى وحيدة، قد أمرض وأموت دون أن يشعر بي أحد. مع أنني عندما استرجعتُ كلامها فيما بعد، علمت أنه غير صحيح، فرفيقاتي لم يتركنني يوماً. ثم إن (نعيماً) زوج أختك، هو ابن أختي المرحومة أيضاً.

- في القرية لا يموت الإنسان منعزلاً، دون أن ينتبه إليه أحد. هه. وكيف خطر لك أن تأتي إلى هنا؟ هل طردك ذلك النذل بعدما اكتشفت سرقته لمالك. أم ماذا؟

- اكتشفت السرقة ولم أنبس بحرف، بكيت كثيراً لوحدي ورأتني زهرة أبكي فلم تسألني شيئاً، بل ابتعدت عني كأنني لا أعنيها، فصمّمت على المجيء إلى هنا. بحجة أنني اشتقتُ لرؤيتك وأنت ولدي الوحيد.

- لا بأس. ستبقين معي ولن تعودي إلى هناك.

- ويأخذ مالي ويتسلّط على بيت العائلة؟ لن أرضى بذلك أبداً.

- أمي أرجوك اهدئي. البيت أصبح له بحكم الواقع. وزهرة تعلمين كم هي ضعيفة أمامه، ستتنازل له عن كل شيء لإرضائه. أما المال

الذي سرقه منك، فلا تذكري أن مالاً مدّخراً كان في حوزتك. هيّا رتّبي الغرفة التي ستعيشين فيها، وانسي القرية. ستقيمين معي ولن أسمح لأحد بإذلالك.

انفجرت تبكي من جديد:

- ألن تقوم بعمل ضد ذلك الوغد؟ ضد نعيم؟

- سنفكّر في ذلك فيما بعد. اهدئي الآن.

لم يتقبّل زاهر فكرة زواج زهرة من نعيم ابن خالته. فلقد كان نعيم شاباً مستهتراً. سمْعته سيئة، ألقى شباكه نحو زهرة البريئة فأحبّته حبّاً أشبه بالمرض على حدّ رأي زاهر، ورغم معارضته لزواجها من نعيم أصرّت أم زاهر على مباركة هذا الزواج.

جلس يفكّر بوضع أمه الجديد، ثمّ هزّ رأسه وأخذ يكتب تفاصيل حلمه عن أولئك البدائيين، وقد شعر أن الوقت ما زال مبكّراً على مناقشته مع الدكتورة نجوى.

وفي تلك الليلة أيضاً رأى حلماً آخر.

«ها أنا ذا في الغابة من جديد. أراقب البدائيين الذين يعيشون على الشجر. أميّز شيئاً من سحناتهم الشبيهة بالقرود. فأصابع أرجلهم أشبه بأصابع اليدين، يستخدمونها في التعلّق بالأغصان والانتقال بسرعة بين الأشجار. هه. أرى أناساً آخرين، إنهم بدائيون أيضاً ولكنهم ينتصبون بقاماتهم ويمشون باعتدال على الأرض. إنهم يتكلمون بلغة غريبة متقطّعة. آه بدأت أفهم لغتهم».

- سنصطاد بعض الحيوانات ونعود إلى كهوفنا.

- ولن تجرؤ القرود القوية على مهاجمتنا.

- هم يخافون أسلحتنا، ويخافون نارنا المتوهّجة.

كانت هناك حركة بين الأشجار، عدد من البدائيين التي تتشابه أصابع أرجلهم وأيديهم، ينتقلون بين الأشجار مبتعدين.

- هم أشبه بالقرود، ولكنهم بشر تخلّفوا بأشكالهم عنّا. لا تحاولوا أذيّتهم إن لم يهاجمونا. هه. هناك غزال يقفز بين العشب.

«الزعيم يشبه إلى حدّ كبير (أبا غسان) ولكن صوته مختلف»!

- اصطدنا الغزال يا سيدي. القرود تراقبنا.

- لا بأس. لن تلقي إليها بالاً. هيّا نعود إلى الكهف.

«سأتبعهم لأرى كيف يعيشون»! وفجأة ظهر نمر ضخم، سمعهم يهمهمون بلغتهم:

- إنه عدوّنا المرقّط يا سيدي.

- سيكتفي بصيد حيوان آخر، ولن يهاجمنا. هيّا إلى الكهف بسرعة.

راقبهم زاهر في حلمه يتحرّكون بسرعة، وهم يخرجون من الغابة في اتجاه طريق بين الأعشاب البرّية. قبل أن يطلّوا على تلال ومرتفعات. ثمّ رأى نفسه يدخل خلفهم في كهف، انتشر أمامه الحرّاس يحملون الأقواس والأسهم. والنار مشتعلة يغذّيها البعض بالحطب، ترتفع ألسنتها أمام الكهف.

كانت هناك أعداد كبيرة من النساء والأطفال. بدت النساء أشبه بنساء قبائل من الهنود الحمر يسترن أجسامهن بجلود الحيوانات. ويرضع بعضهن صغارهن. وبعضهن يجمعن الثمار ويغسلن بالمياه المتدفّقة قرب الكهف صغارهن.

ولكن زاهراً استيقظ فجأة من حلمه على يدّ تشدّه:

- ما بك؟ كأنك ترى كابوساً، صوتك الصارخ وصلني، فنهضت خائفة لأوقظك. ما هذا الكابوس الذي كنت تراه؟ خذ اشرب الماء؟

شرب قليلاً من الكأس الذي قدّمته له:

- ربّما كان حلماً غريباً، ولكنه لم يكن كابوساً، أرجوك يا أمي لا توقظيني عندما تسمعين مني أصواتاً غريبة في الليل.

- ولكني أخاف عليك يا بني، لا بدّ وأن ترى طبيباً، ربما أراحتك بعض الأدوية من هذه الكوابيس.

- طيب يا أمي طيب.

فكّر متوتّراً، فما يشاهده ليس عاديّاً:

«كان من الممكن أن أرى الكثير عن هؤلاء البدائيين. الآن وقد أصبحت أفهم لغتهم الغريبة، ستكون أحلامي أشد إثارة».

سألته أمّه:

- لن تعود للنوم؟ ماذا ستفعل؟

- سأكتب شيئاً في دفتري، وأعود إلى النوم. لا تقلقي.

-٢-

خرج باكراً بعد أن تناول الإفطار مع والدته، واتصل ببيت أبي غسّان. ردّت عليه أم غسّان بحزن:

- ألم تتحسّن حاله يا خالة؟

- ما زال في غيبوبته يا بنيّ.

- هو في المستشفى الآن.

- أصرّ غسان على إبقائه هناك. رغم أن تنفّسه منتظم وحالته الصحية العامّة طبيعية. فقط هذا السبات الغريب. كأنني رأيت والدتك هنا؟

- نعم أتت من القرية لتقيم معي بعض الوقت.

- لا بأس. سأذهب لأقضي معها بعض الوقت.

- ستفرح برؤيتك يا خالة.

يجب أن ينبّه أمّه ألّا تُحدّث أحداً عن مشكلتها مع ابنتها وزوجها. اتّصل بها دون تردّد ليؤكّد عليها ضرورة كتم أسرارها مع ابنتها عن الناس. فلكلّ إنسان مشكلاته الخاصّة. ثمّ اتّجه إلى المستشفى لزيارة أبي غسّان.

كان وحيداً في الغرفة. أحبَّ أن يتكلّم إليه وهو يعرف، أن من في الغيبوبة قد تصلهم الأصوات ويفهمونها، وربما يتأثّرون بها. لذلك استغلّ زاهر عزلة أبي غسان وبدأ يتكلّم إليه:

- أرجو أن تستمع لكلامي جيداً وتفهمه. أنا أراك في أحلامي، كزعيم لقبيلة بدائية. وأحلامي تتكرّر متواترة، كأنها تروي قصّة بفصول. كنت ترغب بمحادثتي حول أبحاثك. هل لأبحاثك علاقة بتلك الفترة الغامضة من تاريخ البشرية؟

شعر به كأنه يرمش بعينيه، معقول. دخلت الممرضة، سألته:

- أنت معه؟

- خير؟

- ستساعدني في إعطائه بعض الأدوية والحقن. قرّر الأطباء بموافقة ابنه، البدء بمحاولات إيقاظه من سباته، ما دام وضعه البدني طبيعياً.

- أنا جاهز.

- سيعود ابنه بعد نحو الساعتين، ذهب إلى أحد مكاتب تحويل الأموال لاستلام حوالة. ساعدني في تحريكه، سأعطيه حقنة في فخذه. نعم. نعم. هذا أفضل.

- لماذا ليست عن طريق الوريد؟

- هي ليست حقنة وريدية. الآن سأضخ في دمه بعض المقوّيات. ساعدني في كشف يده.

قال لها فجأة:

- إنه يتحرّك كأنه سيستيقظ.

- عظيم. سأوقف إعطاءه الأدوية الأخرى. إنه يتحرّك فعلاً. سأحضر الطبيب.

قال بهدوء: - يا أبا غسان. حاول أن تستيقظ جيداً لأتحدّث معك.

تابع يقول وهو متيقّن أنّه يسمعه:

- أنا معك. حاول أن تخرج من هذا الذي يحاصرك. نحن نحاول إعادتك إلينا. هل أنت منفصل عن عالمنا، وتعيش في ذلك العالم البدائي؟

فتح الباب ودخل الطبيب، وقد سمع بعض كلمات زاهر:

- يبدو أنا سنشهد عملاً مميزاً. ملامح الرجل تدلّ على أنه بدأ يستعيد وعيه.

قالت الممرّضة:

- كأنه يحاول الاستيقاظ ولا ينجح.

- جهّزي لي حقنة من المادة التي ذكرتها لك. حاولي إحضارها من صيدلية المشفى.

- حاضر دكتور. عفواً وإن لم تكن متوفّرة هنا؟

- اطلبيها من الإدارة، أحتاجها فوراً.

- لماذا اعتبرت استيقاظه عملاً مميزاً يا دكتور؟

- لأن هذا الرجل منفصلاً عن عالمنا، كل شيء في جسده طبيعي، إلا وعيه.

- وكيف هو منفصل عن عالمنا؟ وضّحْ لي رأيك؟

- اسمع يا أستاذ. عفواً أنت قريبه؟

- أنا جاره، أسكن في البيت المقابل، وابنه صديقي. ثمّ إنني أكنُّ احتراماً لهذا الرجل، هو باحث ممتاز سيكون لأبحاثه شأن كبير عندما تُنشر في المستقبل. يحمل اختصاصاً علمياً في المورّثات، وله مكتبه وغرفته الخاصة وفيها مخبر صغير. كان يدرس في الجامعة. ولكنه استقال منها وتفرّغ لأبحاثه. رغم حاجته للمال.

- أنت تعرف الكثير عنه. لم أتعرّف بعد على اسمك؟

- اسمي زاهر، خرّيج تجارة، ولكن اهتماماتي الخاصة ليست لها علاقة بالتجارة؟

- أنت زاهر العرفي؟ قرأت لك بعض المقالات في الصحف. أنا الدكتور بلال. اختصاصي في أمراض الدماغ والجملة العصبية.

كان المريض يهمهم بكلمات غير مفهومة، قال زاهر:

- يا عم (أبو غسان) أرجوك عُدْ إلى عالمنا، وحدّثنا عن رحلتك الغريبة.

- قد لا يتذكّر شيئاً. وقد يتذكّر كل شيء. حسب الحالة.

قال زاهر:

- سأتحادث معه لوحدنا. هناك شيء مشترك، أنا أركّز عليه سيساعده في استجماع قوّته والعودة إلى وعيه.

- تريدني أن أخرج من هنا؟ أتمنّى أن أسمع ما تقوله.

قال له زاهر:

- حسناً يمكنك الوقوف أمام الباب والإنصات إليّ.

وفجأة سمع صوت المريض يسعل ثم يقول:

- لا يا بنيّ. لا داعي لخروجه. هو رجل يعرف ما سنتحدّث عنه.

- حمداً لله على سلامتك.

قال بصعوبة:

- أريد بعض الماء. أرجوك. أشعر بضعف عام.

قال الطبيب:

- أنت تعيش على بعض المقوّيات السائلة منذ ثلاثة أيام.

دخلت الممرّضة:

- أحضرت لك الدواء المطلوب. آه. استيقظ أخيراً. حمداً لله على سلامتك يا عم.

- شكراً لك يا بنتي. أريد بعض الماء.

قال زاهر:

- كنتُ في عالم بعيد عنا.

- أرسلت لك رسائل لتتابع أحلامي، وأعتقد أنها وصلتك.

- كانت رسائل منك؟ لماذا لم أنتبه لذلك؟ كنت أراك مع البدائيين بشكلك نفسه ولكن بلباس بدائي.

- وجودي بينهم كان مفتاح رسائلي لك. منذ متى بدأت تحلم بأنني مع البدائيين؟

- منذ ثلاثة أيام بالضبط، كل يوم أرى حلماً.

- منذ دخولي في السبات. كان دخولاً برمجته. وكنت أنوي العودة إلى وعيي بعد أيام من الآن. ولكنكم أرغمتموني على هذه العودة السريعة.

- خفنا عليك. لم تكن حالتك تسمح بالاستمرار في هذا السبات. أعتقدناك في وضع خطر. ولا أعرف حتى الآن أن السبات يمكن برمجته.

- يمكن بشكل استثنائي، وتدريبات طويلة شديدة الخصوصية برمجة السبات أو الغيبوبة المبرمجة.

- تأخّرت عليك، آسفة. تفضّل اشرب الماء.

- شكراً لك يا بنتي.

تابع زاهر:

- نعم. حدّثنا أين كنت. ولماذا دخلت في تلك البرمجة الغريبة لسباتك؟

- الحديث طويل، قد لا أقدر على الخوض فيه الآن. أحتاج لبعض الوقت. أشعر بتعب فظيع.

- معك حق. تحتاج لأن تقوّي جسمك. ثلاثة أيام من دون طعام، ليس شيئاً سهلاً.

- لم تبدأ رحلتي منذ ثلاثة أيام، أنا أتناول من الطعام القليل منذ أكثر من ستة أشهر. وتوقّفت عن تناوله منذ أن دخلت في السبات.

قال زاهر:

- أنت رجل خارق يا عم.

دخل غسّان وشعر بالسعادة حين رأى والده جالساً في السرير الطبّي:

- حمداً لله على سلامتك يا أبي.

- آه يا بنيّ. كنت خائفاً عليّ إلى هذه الدرجة؟

قال غسّان متأثّراً:

- اطّلعت على أوراقك أمس، وعشت مذهولاً بأبحاثك. أنت رجل غير عادي يا أبي.

- قرأت كل الأوراق؟

- نعم. وكنتُ أنوي إعارتها لزاهر.

- لا بأس أن يطّلع عليها زاهر. جهّز نفسك سنعود إلى البيت.

قال الطبيب:

- ليس الآن. على الأقل يجب أن تنتظر لساعتين حتى نجري فحصاً عاماً لك.

قال الأب:

- لا بأس. ولكن يجب أن أتحادث مع والدتك. أعطني هاتفك النقال.

* * *

جلس أبو غسان في مساء ذلك اليوم وحوله زاهر وغسان. فيما ذهبت أم غسان وأم زاهر لإعداد طعام العشاء:

- لم يأت الدكتور بلال بعد؟

- إنها الثامنة إلا الربع. سيأتي في الثامنة كما قال.

- لا بأس. يمكنك تقليب هذه الأوراق يا زاهر، ربّما كان الحديث الذين سنخوض فيه ممتعاً لك بعد قراءتك لها.

- ليست رزمة صغيرة، نحو المائة صفحة؟

- يمكنك الاحتفاظ بها حتى الغد.

ثمّ همس:

- لديّ نسخة كاملة في الحاسب المحمول.

- عظيم.

بدأ يقلّب الأوراق وقد بهره أسلوبه الأدبي الرفيع:

«بدأتُ تجاربي وأنا متيقّن من وجود الذاكرة الوراثية في خلايا الدماغ. وأعلم أن البعض يحلم أحلاماً مختلفة عن عوالم مختلفة. ولتلك الأحلام علاقة

أحياناً بذاكرته الوراثية. حاولت في الجامعة، أن أركّز على الجينات الوراثية، ولكن الذي كان يزعجني أن المخابر تغلق في السادسة أحياناً وأنا في ذروة نشاطي، وكنت أبكّر في النهوض أحياناً وأنتظر حتى الثامنة حتى يأتي من بيده مفتاح المخبر. وطلبت المفتاح الإضافي أكثر من مرّة من رئيس قسم الخليّة. ولكنه لم يستجب لطلبي. كأنّه كان يغار من حماسي في البحث عن خفايا الخلية الحيّة. ولقيت منه أحياناً بعض المتاعب، فصمّمت على الاستقالة وشراء أجهزة لمخبر صغير، لأتابع فيه ما بدأته في الجامعة».

رنّ جرس الباب الخارجي، ترك زاهر الأوراق، وهو يهمهم:

- إنه الدكتور بلال.

قال له هامساً:

- ضعْ أوراقك في هذا المظروف، واحرصْ عليه.

دخل بلال وقال معتذراً:

- ألغيت بعض المواعيد لألتحق بكم. أنا متشوّق لمعرفة المزيد عن أبحاثك يا أبا غسان، أو اسمح لي أن أخاطبك بلقب دكتور.

- لا داعي لذلك، أنا سعيد بلقبي (أبي غسان)

- كما تشاء. عن ماذا كنتم تتحدّثون؟

قال زاهر:

- عن الخلية الحيّة. والجينات الوراثية موضوع اختصاص (أبي غسان).

- حسناً، تابع يا دكتور حديثك.

- أريد أن أقول إنّ أبحاثي كلّفتني الكثير من المال ومخبري الصغير بأجهزته الحديثة زاد من العبء المالي. حكت لي أم غسان اليوم، كيف عانت وغسان فترة مرضي - المصطنع - دون أن انتبه لذلك. وسأبدأ بنشر ما كتبته من مذكّرات بشكل روائي، أدخل فيه بعض التشويق، وأتقاضى عن ذلك بعض المال.

أكّد زاهر:

- وأنا مستعد لمساعدتك في إعداده للإذاعة وللتلفزيون فيما بعد، على الأقل. فمن المعيب أن يحتاج للمال عالم مثلك.

- لا بأس يا بنيّ.

كانت جلسة مثيرة، حكى فيها ذلك العالم الكبير عن رحلته في الذاكرة الوراثية وعن تجاربه وبحثه الدؤوب وسط دوائر ما زالت معتمة بالنسبة لأبحاث الخليّة الحيّة.

-٣-

«بدأتُ تجاربي وأنا متيقّنٌ من وجود الذاكرة الوراثية في خلايا الدماغ الجينات الوراثية. وكيف يمكن تحريضها، وأعلم أن البعض يحلم أحلاماً مختلفة عن عوالم مختلفة، ولتلك الأحلام علاقة بذاكرته الوراثية».

قال بلال:

- أنا أعلم الكثير عن تشريح الدماغ والجملة العصبية وهو اختصاصي. ما تقوله يبدو منطقياً ما دام الإنسان يرث عن والديه وأجداده الشكل وطريقة السير ومسبّبات الأمراض المزمنة، لماذا لا يرث الذاكرة أيضاً؟

- صحيح، ولأن (زاهر) شاب متفتح، له ثقافة متنوّعة، أرسلت له رسالة عن طريق الحلم.

- نعم يا دكتور عاصي، كانت عدّة أحلام متتابعة وقد تحادثت عن ذلك في المستشفى مع الدكتور بلال. قرأت شيئاً من الأوراق التي تركتها وسأنهيها في البيت اليوم. حال عودتي.

- كيف بدأت الفكرة تشغل بالك يا دكتور عاصي؟

- بدأت مع حلم غريب. رأيتُ نفسي في فجر الزمن، كان ذلك العالم بدائياً قاسياً مخلوقات تترقّب لتهاجم ضحاياها، وضحايا تحاول الهرب من مصير محتوم والأرض غير مستقرّة، فيها الزلازل والبراكين، وتعيش عليها مخلوقات ضخمة قبيحة ومخلوقات مرعبة صغيرة الحجم.

- ذلك الحلم قد حفّز فيك الاتجاه في أبحاثك نحو أهداف ربما مختلفة عما كنت تقوم به.

- كنت أبحث في الخليّة والحمض النووي والمورّثات حين أتى ذلك الحلم، ولأنه كان مذهلاً في تفاصيله، وضعتُ احتمال أن تكون له علاقة بذاكرتي الوراثية.

- من حلم واحد فقط؟

- لم يكن حلماً عادياً، كنتُ أطلّ على عالم فجر الزمن بدقّة تفوق الوصف، ورأيتُ أشياء مذهلة، وقد ابتكرت محلولاً حفّز خلايا الدماغ على تذكّر الماضي البعيد. خاصة وأنني اكتشفتُ أن سلالتي البعيدة لم تنقرض مع الزمن، وربما هذا هو سبب قدرتي في تحفيز ذاكرتي البعيدة. لم يكن الوصول للمحلول سهلاً، خاصة وأن المنشّطات العامّة لها مضاعفات

مزعجة فيها بعد. كان لزاماً عليّ أن أفكّر بطريقة تحرّض بعض خلايا الدماغ على النشاط لفترة معينة. فبدأتُ صياماً عن الطعام، اقتصر فيه غذائي على الكميّات الكافية لبقائي حيّاً، مع كمّيات كبيرة من الماء النقي.

- ألن يؤثّر نقص الغذاء على فعالية خلايا الذاكرة؟

- هناك الكثير من السموم في الجسم، كان يجب أن أغسلها وأنقّيها أولاً، قبل تناول المحلول المركّز الذي استنبطته لتنشيط خلايا الدماغ، وهو مكوّن من عسل الملكات وبيوض السمك وأنواع من الفيتامينات ومنقوع بعض الأعشاب، وصفة مختلطة ركّزتها وأنا أجري تجاربي الأولى على الفئران.

- الفئران؟ فئران التجارب المخبرية؟

- بالطبع، ووصلت إلى نتائج، استعرضتُ فيها عن طريق جهاز خاص، ما يتذكّره الفأر في ماضيه القريب ثم البعيد، فأحد الفئران ولدته أمه وماتت، وعانى من مضايقة الفئران الصغيرة دون أن يحميه أحد، وفي إحدى المرّات أوقعته هذه الفئران الصغيرة من مكان عال، كما أنه تعرّض مراراً لمطاردة القطط والأفاعي.

- وكيف تمكّنتَ من تسجيل ذلك عند فأر؟ يبدو الأمر غريباً؟

- آه يا زاهر. تسأل عن تسجيل نبضات الفأر؟ هناك جهاز دقيق لتخطيط الدماغ، طوّرته بنفسي، عدا عن توصّلي لاكتشاف تسجيل ومضات الذاكرة بطريقة ثلاثية الأبعاد. على كل حال لا بأس أن ندخل المخبر وأشرح لكما قليلاً عن الجهاز الذي ذكرته، وتسجيلاته.

* * *

دخلا في ممر يتبعان د. عاصي الذي توقّف أمام باب مزدوج فتحه قبل أن يفتح باباً تالياً له. لاحظ زاهر أن الممر يحوي صوراً لحيوانات وقبائل بدائية في فجر الزمن، مكبّرة عن طريق الحاسوب لتبدو أشبه بأفيشات لأفلام سينمائية.

وقف أمام باب آخر، فتحه بالضغط على أحد الأزرار، ليرى كل من زاهر وبلال غرفة واسعة سقفها واطئ. في داخلها عيّنات من الحيوانات المخبرية ونباتات وأوان زجاجية مغلقة فيها محاليل وأشكال محنّطة.

- هذا هو مخبري، وهو ينقسم إلى قسمين علوي وسفلي، ترون السقف الواطئ. فوقه غرفة أخرى بحجم هذه الغرفة. فالبناء قديم، وكان البناؤون يشيدون البيوت بسقوف مرتفعة وليس كالبيوت الواطئة الضيّقة، ساعدني علو السقف على بناء الغرفة العلويّة.

- هل حاسوبك مكان إجراء التجارب الدقيقة؟

- هو في القسم العلوي.

صعدا الدرجات الخلفية. رغم صغر المخبر العلوي كان منظّماً بشكل فريد، كأنّه مخبر في دولة حديثة متطوّرة. قال بلال مدهوشاً:

- معقول؟ إنه مخبر مصغّر منفّذ بإتقان شديد.

- فيه كل أبحاثي وأحلامي، وإنجازاتي الجديدة. هذه الشاشة تكبّر الشرائح الموضوعة تحت المجهر، وهذه الشاشة لها علاقة بالحاسوب المتطوّر الذي يقرب مئات ألوف المرّات، بشكل عادي، وإذا وضعت معه هذا الجهاز الملحق، أصبح يقترب من دقائق الخلية.

- معقول يا دكتور؟ إنه عمل خارق، يبدو البناء بسيطاً قديماً، في داخله أرقى الأبحاث البيولوجية، يجريها إنسان على قدر كبير من الفهم والوعي.

قال زاهر بأدب:

- كنت تتكلّم عن توصّلك لاكتشاف تسجيل ومضات الذاكرة بطريقة ثلاثية الأبعاد، كيف تمّ لك ذلك؟

- هذا هي صورة الفأر الذي أجريت عليه أبحاثي، انظرا هناك. سأفتح ملفّه تابعاه جيّداً.

ظهرت الصور على الشاشة «فأرة تلد. تبدو أشبه بومضة أو مشهد، وظهر الفأر الصغير» - هذا هو الفأر الذي حدّثتنا عنه.

- ولدته الفأرة أمّه فقط كما تتابعان، مع أنها تحمل غيره، وماتت. ربما بسبب خارجي غير واضح. ها هو مشهد مضايقته من الفئران، إنه مشهد متقطّع يروي عدّة مضايقات. ها هو يسقط من مكان عال. يهرب من أفعى. من القطط.

- هذا إنجاز علمي يا دكتور كيف تمكّنت من تصوير مشاهد في ذاكرة حيوان أعجم؟

- حرضت خلايا دماغه، التي لها علاقة بالذاكرة. بدأت ألتقط موجات، درست تحويلها إلى مشاهد، وبعد نحو ثلاثة أشهر بدأت أرى صوراً غير مفهومة أدخلت عليها برامج توضيح الصور، حتى نجحت أخيراً.

- وماذا عنك؟ هل سجلت شيئاً من ذاكرتك؟

تنهّد حزيناً:

- نعم. سجلت القليل، دون عون أحد، وهذا عمل شديد التعقيد. أحتاج لمساعد لمّاح، يعرف الكثير عن أبحاثي، حتى يساعدني في إنجاز تلك الصور الفريدة عن فجر الزمن.

- تحتاج لشخص متخصّص، ومتمرّس ولمّاح.

- نعم. جرّبت العديد من طلاب الدراسات العليا، ولكن صعوبة الأبحاث ودقّتها، جعلتهم يتهرّبون من العمل معي، خاصة وأن أبحاثي لا تعطيهم المال أو حتى المشاركة في ورقة لبحث علمي.

قال بلال:

- ربما كنتُ مهيأً للتعاون معك يا دكتور.

- لا يا بني. أنت طبيب جرّاح لك زبائنك ومرضاك، وتداوم في عدّة مشافِ. لا يمكن أن تتفرّغ للعمل معي هذا يحتاج لجهد كبير.

قال زاهر:

- وماذا عنّي يا دكتور؟ أرسلت لي رسالة في الحلم، ثم أتبعتها برسائل أخرى لحلم متتابع. أنا مهيّأ للعمل معك. وأستطيع أخذ إجازة شهر كامل، دون أن أفقد راتبي.

- سنتحادث في ذلك فيما بعد.

كان هناك إناء زجاجي مغلق بإحكام:

- هذا هو الخليط المحرّض للذاكرة.

سأل بلال:

- خلال فترة تجاربك، ألم تتناول الطعام أبداً؟

- تناولت ما يكفيني للبقاء حيّاً. دون أن تضعف ردود أفعالي. عرفت ما يغذّي الجسم ويحافظ عليه، دون حشو، تماماً كما يفعل روّاد الفضاء في رحلاتهم البعيدة. على كل حال، بعد عدّة تجارب على الفئران، وتأكّدي من نجاحها قرّرتُ أن أجرّب الخليط، لذلك لجأتُ كما قلتُ لكما إلى تنقية جسمي من السموم لضمان نجاح المحلول المركّز. ثم طلبت من زوجتي وابني غسان أن لا يقاطعا خلوتي التي قد تمتد ساعات. وهكذا تمدّدتُ على هذا السرير هنا، وغرست أول حقنة من المحلول في ذراعي وتمدّدتُ لتختلط في دماغي الصور.

تابعوا ما سجّله الجهاز الصغير من نشاط دماغي مع كلمات بصوتي.

- ٤ -

شغّل الجهاز الصغير لينبعث صوته الهادئ البطيء:

«أشعر بنشاط غريب ما الذي يجري لي؟ أشعر أنني أتذكّر حياتي بالتفصيل، حتى طفولتي الأولى. الصور تتراكم، تتزاحم. ما الذي يجري في دماغي. أنا أعود إلى ما قبل ولادتي. الصور تتداخل»!!

ظهرت سلسلة من المشاهد لأناس في أزمنة مختلفة، بدأت هذه المشاهد تعود في زمنها حتى توقّفت عند الإنسان البدائي الأولى.

قبائل بدائية تتحرّك بين الأشجار وتقفز كالقرود، بعضها يسير في مناطق وعرة ويستوطن الكهوف ويستخدم القوس والسهام، ثم النار التي يحملها البدائيون، وقد أخذوها من صاعقة أحرقت بعض الأشجار اليابسة.

استمرّت المشاهد الغريبة، دون صوت من الدكتور عاصي، وبلال وزاهر يتابعان مذهولين، وكان الصوت يسمع أحياناً ثم ّيختفي، والمشاهد تزداد وضوحاً أحياناً، سأله بلال:

- معقول يا دكتور. لماذا رغبت في الرجوع إلى فجر الزمن بالنسبة للبشرية. لماذا لم تنتقل ذكرياتك عن طريق خلاياك الوراثية إلى عصور أخرى؟

- لا أدري، كأن فجر الزمن بالنسبة لي شكّل لغزاً، أردتُ أن أفكَّ طلاسمَه.

- يبدو الوضع غريباً فعلاً. الذاكرة الوراثية؟ إنها تفسّر الكثير من الألغاز فعلاً. كما يرث الإنسان عن أجداده لون العيون والبشرة والطول والقصر. والأمراض الوراثية، وربما الذكاء، فإنه يرثُ الذاكرة، إنه موضوع شيّق.

- ولكنه موضوع حقيقي، قد يفسّر الكثير من الأحلام الغريبة التي يراها المرء أحياناً، وتبدو له خارج إطار المنطق.

- هل نستطيع أن نرى بعضاً مما سجلته من حركة خلايا الدماغ على الحاسوب؟

- لا بأس. وإن كنت أتمنى أن لا تتأثّرا كثيراً بما تريانه. فالذاكرة الوراثية. سجلت الكثير من المشاهد المرعبة أحياناً، استطعتُ ترجمة بعض لغات البدائيين القديمة، إلى اللغة العربية، أي يمكنكما متابعتها.

وبدأ الدكتور عاصي يشغّل حاسوبه على صور ومشاهد مذهلة:

- انظرا إلى هذا المشهد، ربما هو من أطول المشاهد المسجّلة، هذا رجل بدائي معه زوجته وولده. يحاول الدفاع عنهما ضد هجوم البدائيين المتخلّفين عنه وهم يقفزون فوق الأشجار. الترجمة متقطّعة، ستصلكم الكلمات متقطّعة للرجل البدائي وزوجته وولده.

ظهرت مشاهد لرجل بدائي وامرأته وولده بلباس يغطّي القسم الأسفل من أجسامهم، وصل صوت الرجل المتقطّع:

- انتبهي. سالا. الحجارة. من فوق.

قالت المرأة:

- ديريس. امسكْ يدي.

ثم شدّت على كتفه:

- ديريس. ولد. شجاع.

قال ديريس:

- بابا. جوزة كبيرة.

كأنّه يشبّه الحجارة بالجوز، يقول الرجل:

- سهم النار.

أطلق سهمه باتجاه المهاجمين، سقط رجل عن الأشجار، قال الدكتور عاصي:

- استمعا إلى ما يقول.

كان الصوت واضحاً:

- أنا لا أحب الموت. هم يحبّون موتي.

إنّه يتألّم. أصابت الحجارة رجله، يشجّع ابنه على الهرب:

- ديريس. أنت شجاع. اركض. أنا وماما.

يقول الصبيّ:

- هناك دم.

- أنا بخير، كدنا ننجح. هيّا.

قال د. عاصي موضّحاً:

- أترياني هذه المشاهد. مع الأصوات المسجلة. بذلت جهداً كبيراً حتى أحوّلها إلى لغة مفهومة. إنهم يخرجون من الغابة. البدائيون لا يجرؤون على مطاردتهم بعد الغابة، ولكنهم يصادفون خطراً آخر.

قال زاهر:

- إنه نمر ضخم بنابين يخرجان من فمه بشكل متطاول.

قال عاصي:

- انظرا إلى الرجل كيف يقارع النمر. إنه يطلق سهامه صوب رأس النمر. فيزداد النمر غضباً. ويهجم عليه، يشير لزوجته وولده بالابتعاد. النمر يهاجم الرجل إنهما وجهاً لوجه. يبدو ضئيلاً أمام حجم النمر.

قال بلال مندهشاً:

- ولكن الرجل يشبهك يا دكتور عاصي.

- ربما كان أحد أجدادي البعيدين في عمق التاريخ.

ينجح الرجل في إصابة عيني النمر، السهم يخترق إحدى العينين. النمر يتألّم. ويزداد غضباً يقفز على الرجل الذي يضع سهماً آخر في عينه الأخرى. ولكن النمر يصبح فوقه. هنا تختفي الصورة. علّق عاصي:

- إنه مشهد مذهل، لا أزال أذكره بكل تفاصيله.

- عمل خارق يا دكتور، ربّما غيّر شيئاً من تاريخ البشرية.

- أنا أحاول أن أجيب عن أسئلة أخرى ما زالت ترهقني، لذلك دخلت في تجربة المحلول عدّة مرّات، ورأيتُ الكثير من الأحداث.

همسَ زاهر:

- كتبتَ عن ذلك في أوراقك البحثية، التي سأتابع قراءتها اليوم.

- نعم. ولكن الكثير مما لم أقم به بعد، سأتابع اختباره.

- ولماذا دخلت في الغيبوبة كل تلك المدّة؟

- طلبت من ابني غسان ومن زوجتي أن لا يقتربا من المخبر، ولكن غساناً أقلقه غيابي وعدم وجود حركة في المختبر. فصمّم على اقتحام المختبر بعد أن أعلم والدته.

- اقتحام؟ لماذا؟

- لأنني نسيت المفتاح في الداخل، فلم يتمكّن غسان من فتح باب المختبر الرئيس بالمفتاح الآخر الذي في حوزة أمه. فقام بخلع الباب. بعد عدّة محاولات. رآني ممدّداً بلا حركة، خاف عليّ. أخذني إلى المشفى وحدث ما حدث.

- تلك الغيبوبة كانت مبرمجة، كنت تحلم.

- رأيت بعض ما سجله الحاسوب قبل أن ينقلني غسان إلى المشفى. وتمنّيتُ لو أنه لم يفعل. صحيح أن حلمي استمرَّ بعد نقلي من المختبر، ولكنني كنتُ أتمنّى لو سجّلته بتلك الطريقة المتطوّرة لتسجيل نبضات الدماغ وصوره.

- المعروف يا دكتور عاصي أن الحلم مهما طال، زمنه الحقيقي عشر الثانية.

- هذا هو الحلم العادي. أما ما كنتُ أراه بعد تحريض خلايا الذاكرة فكان حلماً طويلاً مكثّفاً، يعني، دقائق تختصر عشرات السنين. هو يختلف عن الحلم الذي يراه الإنسان نتيجة نشاط دماغه في الليل.

- وماذا كنت ترى حين أيقظوك في المشفى؟

كنت أرى رجلاً يقود جيشاً، لمقاتلة أعدائه الذين يحاولون احتلال أرضه. سأريكم بعضاً من تلك المشاهد.

ضغط على الحاسوب ليفتح ملفّاً آخر، ثم قال:

- إنه زمن في الحضارة الكنعانية، أعداء يهاجمون بسفنهم ميناءً يشبه ميناء صور. انظروا.

الفرسان يتجمّعون بأسلحة من سيوف ورماح وأقواس وجعب معبّأة بالسهام:

- أيها الرجال، لن نتركهم يطؤون أرضنا.

- لن نتركهم يا سيدي.

- ألقوا على سفنهم الحجارة والسهام، ولفائف القطران المشتعلة. إنها أرضنا وسندافع عنها حتى الموت.

- أحسنت يا (فدك) كن وراءهم بكلماتك الحماسية.

- هيا يا أبطال. لا تتوقّفوا عن العمل.

علّق عاصي:

- انظرا إلى أولئك النسوة. إلى جانب المدعو فدك.

- إنهن يلقين سائلاً أسود.

- إنه قطران مغلي. تراجع الأعداء. كما تريان.

- وهذه الأميرة التي ترتدي الدروع، كأنّها تقودهم لمجابهة الأعداء في سفنهم. اسمعوا صيحاتها:

- مرهم يا (فدك) بإلقاء السهام بسرعة. ستصيب كثيرٌ من الأعداء.

- نعم يا مولاتي. أطلقوا السهام.

- عظيم. سقط العديد منهم.

- نعم يا سيدتي. وها هو مولاي الملك يطلق السهام النارية نحو السفن.

- وهناك الأبطال الذين يغوصون تحت السفن لإغراقها.

- ها هي سفن جديدة تقبل نحونا أيضاً.

- لم نستخدم بعد سوى القليل من مقاتلينا. هناك أفواج أخرى داعمة ستدخل الميدان.

- انظري يا مولاتي، إحدى السفن الضخمة تحترق. وسفينة أخرى تغرق. الغوّاصون الشجعان أغرقوها.

- أحسنتم أيها الأبطال. تابع يا فدك مهمتك. لا تتوقّف.

انقطع المشهد فجأة. علّق عاصي:

- هنا اقتحم غسان المختبر وأزال الأشرطة عن رأسي واقتادني صوب المستشفى.

قال زاهر مستطلعاً:

- وماذا حدث، هل نجح الأعداء في سفنهم من السيطرة على المدينة. أقصد في حلمك الأخير؟

ابتسم عاصي:

- جرت معركة هائلة، وقد نجح قسم من الغزاة في الصعود إلى البرّ. وقاتلهم ذلك الرجل الشجاع قائد المواجهة. وعندما أيقظني بلال وحديثك يا زاهر، كانت المعركة محتدمة والقتلى كثيرين، ولكن الغزاة كانوا يتكبّدون خسائر مرعبة.

- ألم تعرف في أي عصر جرت تلك المعركة؟ حتى البدائيين الذين نقلتك ذاكرتك الوراثية إليهم، ألم تعرف في أي عام كانت تلك الأحداث؟

- هذه هي المشكلة. أنا أحاول الدخول إلى الزمن الحقيقي، لم أتمكّن حتى الآن، أنا أرى خيالات ومشاهد غريبة، ولكن لا أعرف الأسماء والشخصيات الحقيقية التي تجسّدها هذه المشاهد.

قطع أحاديثهم دخول غسّان:

- العشاء جاهز يا أبي.

- عظيم. ونحن انتهينا من استعراض الأبحاث هنا. يمكننا متابعة الحوار على العشاء. تفضلا.

كانت بقية الحوار، عبارة عن استفسارات وأسئلة. وقد أبدى بلال إعجابه بأنواع الطعام الخفيف الذي برعت في صنعه أم غسان وأم زاهر. وبعد العشاء جلسوا يتناولون الشاي:

- هل كنتَ تتابع كل ما يقوم به والدك يا غسان؟

- في البداية؟ لا. إنما تابعته بعد أن أصبح نومه طويلاً، يا دكتور بلال. قرأتُ ما كتبه واستعنتُ ببعض الكتب العلمية لأتعرف على أبحاثه، التي اعتبرها إنجازاً علمياً هائلاً.

قالت أم غسّان:

- لماذا لا تصب كأساً ثانية يا زاهر؟ الشاي بالقرفة مفيد.

- شكراً لك يا خالتي. ألم تقلقك تجارب (أبي غسان)؟

- لا. أنا أثق بكل ما يقوم به. إنه يعرف ما يفعله. طوال عمري وأنا أثق به. بالتأكيد أعرف أنه يقوم بأبحاث كبيرة وجديدة. ولكن؟

- ولكن ماذا يا خالتي؟

- ولكن ما نتيجة هذه الأبحاث، هل سيقدّمون له المال؟ هل سيساعدونه؟ ضحّى بكل ما نملك من أجل أن يتابع أبحاثه، التي أثق أنها غير عادية.

قال أبو غسّان بهدوء:

- أنا أقوم بأبحاثي يا أم غسان من أجل الناس. ومن أجل العلم نفسه.

- لو كنتُ في بلاد متطوّرة، لقدّموا لك الكثير، ولكن حتى زملاءك كانوا يحاربون هذا الإصرار فيك على إجراء تجارب واختبارات للوصول إلى نتائج مهمّة.

- لا بأس. المهم أنني قريب من الوصول إلى النتائج التي أسعى إليها.

همس زاهر:

- سأبدأ حملة إعلامية لدعمك يا دكتور.

- ليس الآن. المهم اقرأ ما كتبته. وسنجتمع دائماً لمناقشة بعض الأمور.

شدّته أم غسّان من يده لتنفرد به مع أمّه:

- اسمع يا زاهر، لا يجب أن تترك زوج أختك يتسلّط على بيتكم الكبير في القرية؟

قالت أم زاهر:

- قلت له ذلك، ولكن زاهراً يرفض أن يفتح جبهة خلاف مع أخته وزوجها.

قال زاهر:

- كنت بالأصل ضد هذه الزيجة، ولكنك شجعتِها كثيراً أنت وأختي. والآن سبق السيف العذل، طلبتك مراراً بأن لا تفتحي لهما المجال بالإقامة معك، ولكن انظري إلى النتيجة، سرق مالك الذي ادّخرتِ وطردكِ تقريباً من البيت.

- لم يطردْني، ولكنّه يسيء معاملتي.

- الآن تعترفين بذلك. سامحك الله.

قالت أم غسّان:

- أعتقد أنني عرفت المشكلة، وابنتك يا أم زاهر تدفع نتيجة لهاثها وراء قريبها وهي ليست سعيدة بالتأكيد معه، ولكنها تتحمّل وستتحمّل الكثير في المستقبل من أجل أولادها.

تنهّدت أم زاهر:

- أنا أتحمّل الكثير من خطأ هذا الزواج ولكن. ما باليد حيلة، كما قال زاهر سبق السيف العذل.

* * *

استعدّوا للمغادرة وقد تأخّر الوقت، قال بلال وهو يشدّ على يد الدكتور عاصي:

- أنا سعيد بأنك أوليتني هذه الثقة وأطلعتني على أبحاثك الاستثنائية. شكراً لك يا خالة على كرم الضيافة.

قال عاصي:

- أتمنّى أن أراك دائماً يا دكتور بلال.

- سنبقى على اتصال لمعرفة المزيد من المعلومات عن أبحاثك الشيّقة.

اصطحب زاهر والدته إلى البيت وهو يحمل أوراق الدكتور عاصي، يفكّر بما رآه والذي يفوق التخيّل. لكزته والدته من مرفقه وهو يتجه نحو مكتبه:

- لماذا أنت متعجّل؟ تريد أن تقرأ؟

- نعم يا أمي، أخذت أوراقاً من الدكتور عاصي وعدته أن أقرأها هذه الليلة.

- يبدو رجلاً متفوّقاً. أم غسان تحبّه كثيراً وكذلك أولاده.

- هو عالم كبير يا أمي. ويجب أن يعرفه الناس.

قالت بحزن:

- يا حسرتي، مَنْ الذي يهتم بالمبدعين والمتفوّقين عندنا؟ الكل يرسم دائرة حول نفسه وتضيق عليه حتى تكاد تخنقه.

قال مستغرباً:

- ومن أين لك هذه الآراء يا أمي؟

- كلّ تلك الفترة التي قضيتها بعيداً عنّا، انشغلت بالقراءة، أصبحت الكتب هي ملاذي وأنا أرى أختك تهملني وتعاملني - ربما مرغمة - كخادمة تطبخ وتغسل وتعتني بالأولاد. الآن هي متضايقة كثيراً، لأنني بعيدة عنها، لا أقوم عنها بأعباء البيت.

- انسي موضوعها، لن تعودي إلى القرية أبداً.

- والبيت؟ والبستان؟

- أليس لديك صكوك الملكية؟

- نعم. وهي معي أحضرتها بحرص بين لفائفي.

- اذهبي للنوم يا أمي، سأحاول أن أقرأ هذه الأوراق ونتحادث صباحاً، تصبحين على خير.

- وأنت بخير يا عيون أمك.

شعر أنّ أمّه المسكينة تتعذّب في داخلها. شرد لبعض الوقت قبل أن يجلس في مكتبه يقرأ بشغف أوراق الدكتور عاصي. كانت أوراقاً متخمة بالمعلومات والمعادلات، التي لم يستطع فهمها. ولكن قصصه عن الأحلام والتجارب كانت مذهلة لدرجة غير عادية.

-٦-

«كل ما عشته من تجارب لم أستطع معرفة تاريخها، أدهشتني وخاصة وأنها وصفت طبيعة وأناس وأمكنة مختلفة. أشعر أنني حرّ في انتقالي بين العوالم عن طريق تحريض خلايا الذاكرة. ولكن هل هذه العوالم موجودة فعلاً؟ أم هي أوهام أراها في دماغي وخيالاتي المجنّحة؟ كيف لي أن أجيب عن هذه الأسئلة المرهقة؟ آه يا إلهي، أشعرُ أنني في سبيل دخول دائرة شديدة التعقيد».

كم تبدو هذه العوالم مخيفة لي وأنا أتملاّها وأطلّ عليها وهي شديدة الإثارة.

استمر زاهر يقرأ ليكتشف عوالم أخرى من ذاكرة الدكتور عاصي الوراثية. كانت عوالم مختلفة عن كل العوالم التي يعرفها أو يتخيلها.

* * *

قلوب ميّتة

-١-

لم تكن قصّة عادية تلك التي حصلت لـ **(إلهام)** رغم أنها بدت طبيعية، واستمرّت تبدو كذلك فترة ليست بالقصيرة، حتى جاء ذلك اليوم الذي انقلب فيه كلّ شيء.

تعرّفت إلهام على قاسم في الجامعة، عن طريق أخته **(سارة)**، كان يدرس التجارة في سنته الأخيرة، وكانت إلهام في سنتها الأولى من كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية. وتطوّرت المعرفة بالتدريج حتى تزوّجا في الشهر الأول من عام ١٩٨٩، أي بعد أقل من سنة من تعارفهما.

كان قاسم ينتمي لأسرة ثرية كثيرة العدد، تملك نصف الحي الذي تعيش فيه، وكانت إلهام الابنة الكبيرة لأسرة متوسّطة، تعيش في قرية قريبة من مدينة حمص انتقل والدها إلى العاصمة بسبب عمله واستقرّ فيها. ثم توفي وسافر أخواها الأكبر منها، للعمل في دولة خليجيّة، وظلّت تعيش وحيدة مع أمها.

وبعد زواجها بشهرين بدأت إلهام تعتاد على الجو الجديد الذي تأقلمت معه، وقد كان قاسم طيباً معطاءً يحاول إدخال السعادة إلى قلبها.

وفي شهر نيسان من ذلك العام ١٩٨٩ أخذ قاسم يكثر من الغياب عن البيت فجأة، وقد أخبرها أنه بدأ بمشروع جديد يتطلّب منه السفر أحياناً، والتفرّغ للعمل فيه لأشهر عدّة، لذلك يجب عليها أن تعتاد على غيابه.

- ما تزالين ساهرة يا عزيزتي؟

- لا أستطيع النوم إذا لم أجدك إلى جانبي.

- ستعتادين على ذلك، ماذا أفعل، إنه العمل يتطلّب منّي التفرّغ الكامل له. حتى أنا لم أعتدْ بعد على الابتعاد عن البيت هكذا.

- تناولت عشاءك؟

- نعم. نعم. إنها الواحدة والنصف صباحاً. أشعر بالتعب يجب أن أنام. هه. أين ذهبت اليوم؟

- جلست في البيت طوال النهار أقلّب في كتب الجامعة. شعرت بالملل الشديد والوحشة، اعتدتُ عليك يا قاسم. أوحشني غيابك.

- لا بأس يا عزيزتي، أشهر قليلة وينتهي المشروع. وأعود لأقضي أيامي معك. هه، لماذا لم تذهبي لزيارة أهلي؟

- فكُرتُ في الأمر، ولكني أجبرتُ نفسي على البقاء هنا، لأحاول أن أراجع بعض الدروس الجديدة.

- لا بأس، سألتني أمي عنك هه تنتظر خبراً يفرحها.

- ماذا تقصد يا قاسم؟

- أن تسمع بنبأ حملكِ الأول؟

- ما زال الوقت مبكّراً يا قاسم. لم أكمل دراستي بعد، أحتاج لعامين آخرين. ألم نتفق على ذلك؟

- ولكن أمّي تلحّ عليّ كثيراً، لا بأس يا حبيبتي، ولد واحد ثم ترتاحين بعدها وتتفرّغين لدروسك.

- ولكن هذا قد ينسف طموحاتي في النجاح والتخرّج.

- الطفل هو أهم طموح عند المرأة، ألّا تريدين أن تفرحيني يا حبيبتي. أرجوك لا تناقشي هذا الأمر. لنحاول. هه؟

- سنناقش ذلك فيما بعد.

- لا يا حبيبتي. قلت لك يجب ألّا نناقش هذا الأمر. أخاف أن تعتقد أمي أن بك عيباً يمنع عنك الحمل.

فكّرت بقلق، «يا إلهي، لم أضع ذلك في اعتباري من قبل».

- ما بك؟ هل آخذ وعداً منك بالمحاولة.

- طيب يا قاسم. كما تشاء.

- كنت واثقاً من حبّك لي. لو تعلمين كم أنت مهمّة بالنسبة لي. آه يا إلهام.

غمغمت: «يا إلهي أعنّي على الأيام القادمة»!

ونتيجة إلحاح قاسم وإلحاح أمّه أيضاً، حملت إلهام فعلاً، وكان قاسم يبدو سعيداً بشكل لا يوصف، وبدأ يبكّر في العودة للبيت وهو يُظهر لإلهام الحبَّ والاهتمام.

أمّا والدته فكانت تبالغ في العناية بها وهي تحمد الله، أن زوجة ابنها ستنجب لها أول الأحفاد. وفي شهر أيلول من ذلك العام، وكانت إلهام في شهرها الخامس. حلمت حلماً غريباً.

* * *

«يا إلهي. كأنني أمشي في طريق وعر يرتفع صاعداً في الجبل، آه إنه يضيق والجبل يكبر انحداره. آه، يبدو الوادي تحتي عميقاً».

سمعت أصواتاً وراءها، كان هناك فرسان على خيول، قال أحدهم:

- انتبهي أيتها المرأة، قد تقعين في الهاوية، لماذا تسيرين متمايلة هكذا؟

- أما زال الطريق إلى القمّة بعيداً؟

- بالطبع، ولماذا تصعدين إلى القمّة؟

- تنتظرني أمي، سأضع طفلي عندها.

- مسكينة، لا تطمئن البنت إلاّ لأمّها في مثل هذه الحالات.

- أمك تقيم في أعلى الجبل؟ آه، إنه مكان متعب، ليس فيه سوى المطر والبرد والريح، أعانك الله،

ثم تابع مشفقاً:

- تحتاجين لوقت طويل للوصول إلى هناك. ولكن انتبهي لنفسك قد يجعلك الإرهاق تضعين طفلك قبل الأوان.

- آه أشعر بالتعب من الآن.

- ما رأيك يا أخي لو نساعدها في الوصول، سنجعلها تمتطي حصاني ليصعد بها إلى أهلها؟

- فكرة جيدة، لماذا لا تضعها خلفك، ستتشبّث بك جيداً.

- ما رأيك؟ هه؟ هل أساعدك في الصعود؟

«يبدوان مهذّبين، لا بأس سأقبل فكرتهما. ساعداني لأمتطي الحصان».

شعرتُ كأنّ الحصان يطير فوق الأرض. أشبه بحصان سحري. كم يبدو منظر الأرض فريداً أخّاذاً من هنا. قال لها مستفسراً:

- يبدو أن الناس يتجمّعون هناك، أترين؟ أليست تلك هي القرية التي تقصدينها؟

- يا إلهي، إن أمّي تقف في الخارج وهي تصرخ وتنتحب.

كانت تبدو مفجوعة وهي تصرخ:

- إلهام حبيبتي؟ لقد خطفوا ابنك؟ أخذوه.

- ابني. ماذا تقولين يا أمي، لم يأت ابني بعد، ما زال في بطني؟

- ماذا تقولين يا صغيرتي؟ انظري إلى بطنك.

انتبهت إلى بطنها وهي تصرخ وقد اختفى الفرسان:

- لا. لا. أين ابني؟ آه. كيف حدث ذلك؟ مستحيل.

استيقظت وهي تبكي: «يا إلهي، آه، ما هذا الكابوس المريع؟».

لم يكن قاسم إلى جانبها، خرجت تفتّش عنه، لم يكن في البيت كيف ذهب قاسم ولم يكلّمها كلمة واحدة، لماذا خرج بهذه السرعة؟ إنها الثانية بعد منتصف الليل؟ بدأت تتمشّى في البيت وهي تشعر بقلق بالغ. وفي نحو الساعة الثالثة سمعت قرعاً على الباب. تساءلت خائفة:

«مَنْ الذي يطرق البابَ في مثل هذه الساعة المتأخّرة؟ ربّما كانت حالة طارئة».

عاد الباب يقرع من جديد، صرخت بخوف:

- مَنْ؟ مَنْ الطارق؟

سمعت صوتاً كأنّه قريب من صوت أمّها، ففتحت الباب، كانت امرأة مسنّة تلوح في وجهها الطيبة والرزانة، سألتها:

- مَنْ أنت يا خالة؟ خير؟

- يسمّونني الجدّة يا ابنتي. اعتبريني جدّتك.

- خير يا. يا جدّتي. كيف حدث وطرقت الباب في هذه الساعة؟

- جئت أزورك يا بنتي وأنا أعلم أنك وحيدة.

- آه. يا جدّتي، أعيش لوحدي معظم الأوقات، في أيام حملي الأولى، كان قاسم لا يفارقني كثيراً ولكنه في الشهرين الأخيرين، بدأ يتغيّب عن البيت.

- آه يا بنتي، أعانك الله على الأيام القادمة. ستمرّين بأوقات صعبة.

- أوقات صعبة، ماذا تقصدين؟

- جهّزي لي الشاي وسأحادثك بالتفصيل.

- سأفعل يا جدّتي. بسرعة.

«تبدو في منتهى الطيبة، أشعر أن عينيها تنفذان إلى أعماقي».

عادت بعد أن أعدّت الشاي، لم ترها، ظنّتها في الحمّام، انتظرت قليلاً ثم عادت تصرخ:

- جدّتي أين أنت؟ لماذا لا أراك؟ أحضرت صينية الشاي أين اختفيت؟ جدّتي أين أنت؟

بحثت عنها دون طائل، كيف ذهبت واختفت هكذا يا إلهي؟ عادت إلى فراشها تفكّر:

«بالتأكيد هيِّئ لها ذلك، ليتها كانت موجودة فعلاً».

* * *

بينما هي تتمشّى بعد يومين مع (سارة) أخت قاسم، وكان قاسم بعيداً لا يأتي إلى البيت إلّا لماماً. وهي منشغلة بحديث خاص مع (سارة) وقد شعرت بالغضب منها، حين انقطعت عن زيارتها بعد الزواج:

- أهكذا يا سارة؟ لماذا لا أراك؟ أنا زوجة أخيك وأحمل ولده في بطني.

- كنت منشغلة يا إلهام. تعلمين أن فرعنا صعب.

- كلّ هذه الأشهر؟ حتى ولا نصف ساعة؟ حرام عليك يا سارة كنت أقرب صديقاتي إليّ.

- لا بأس يا إلهام. لا داعي للغضب.

وفجأة رأتها، ازدادت دقّات قلبها، صرخت:

- يا إلهي، إنها هي، جدّتي، جدّتي أين أنت؟

قالت سارة باستغراب:

- جدّتك؟ الذي أعرفه أن كلتي جدّتيك ميتتان.

- صحيح ولكن؟

يجب أن تلحق بها. إنّها تبدو قوية، تخترق الزحام بسهولة كأنها تطير، ثمّ اختفت سألتها سارة:

- هل تعرفينها جيداً يا إلهام حتى تناديها بـ (جدّتي)؟

قالت شاردة:

- زارتني قبل يومين، كنت وحيدة في الليل استأنست بها، ولكنها لم تطل المقام ذهبت سريعاً دون أن أفهم سرّ زيارتها السريعة. كأنها أشبه بلغز.

- لا بأس. هل يتعبك الحمل يا إلهام؟

- لا. ليس كثيراً.

- أختي (مزنة) حامل أيضاً. لماذا لا تكثرين من زيارة أهلي؟ أمّي تسأل عنكِ دوماً.

- بيتكم مزدحم بالناس، وأشعر بالحاجة للهدوء.

- ما رأيك لو نذهب الآن إلى هناك ستُسرُّ والدتي كثيراً، إنها تنتظر مولودَكِ بفارغ الصبر.

- لا بأس. لنذهب إلى هناك.

-٢-

في تلك الليلة استيقظت على حركة في البيت، صرخت:

- قاسم. عدت أخيراً؟ أين أنت؟ لماذا لا تسمعني صوتك؟

سمعتْ صوت الماء في الحمّام شعرت بالراحة، عادت إلى الفراش نظرت إلى الساعة كانت الرابعة صباحاً، يبدو أنّه عاد متأخّراً أكثر من اللازم، لا أدري إلى أيّ حدّ ينغمس في عمله، هذا العمل الذي يجعله يتأخّر كلّ هذا الوقت؟ سمعت صوت فتح الباب الخارجي وإغلاقه، شعرت بالألم:

- خرج قاسم من جديد دون أن يكلّمني. آه. أكاد أجنّ ماذا يحدث هنا؟

وبصعوبة غفت إلهام لبعض الوقت، وفي صباح اليوم التالي، ذهبت إلى مكتب قاسم وهي تشعر بالغضب منه. لم يكن موجوداً في مكتبه، وقد استغربت ذلك. قال لها مدير مكتبه:

- الأستاذ قاسم مسافر منذ يومين، إنه في بيروت يقوم بعقد بعض الصفقات.

- قاسم مسافر؟ كيف؟

- أوصلته بنفسي حتى الحدود، حيث استقبله مدير الشركة اللبنانية هناك، لن يعود حتى نهار الجمعة القادم. أتريدين شيئاً يا سيدتي؟ بماذا أستطيع أن أخدمك؟

خرجت غير مصدّقة: «إذن، ما سرّ تلك الأبواب التي تُفتح وتُغلق، مَنْ الذي يأتي إلينا ومعه مفتاح البيت؟».

التقت بسارة من جديد:

- أمعقول يا إلهام؟ كيف؟

- أنا متأكّدة يا سارة، لم أكن واهمة. أرجوك تعالي معي اليوم، ستنامين معي، أشعر بالخوف.

- لماذا لا تنامين معنا في البيت حتى يحضر قاسم. سأوفّر لك سبيل الراحة تأكّدي.

- لا أدري ما أقول.

- هيّا يا عزيزتي لا تتردّدي.

استقبلتها أم قاسم، بالابتسام، وربتت على بطنها:

- أنا أنتظرك يا حفيدي بفارغ الصبر.

بدت أم قاسم وكأنها تنتظر المولود فعلاً وهي تتفرّس فيها بعينين ناريتين، فشعرت بالخوف:

- يا عزيزتي إلهام، يجب أن تظلّي عندنا نعتني بك. وتأكّدي أنني لن أسمح لأحد بإزعاجك، أنت في مقام ابنتي، وتحملين أول حفيد في أسرتنا، هذا مهمّ جداً.

- سأحاول يا عمّتي. رغم أنني أشعر بالهدوء أكثر في شقّتنا الصغيرة.

أنا لا أطلب منك الإقامة الدائمة، يجب أن تقيمي هنا عندما يغيب زوجك.

- معك حق يا عمّتي. هه.

فتح الباب ودخل قاسم زوجها، قالت الأم بصوت عالٍ:

- أهلاً بك يا قاسم لِمَ تتأخّر كثيراً.

- أنا جائع، هل الطعام جاهز؟

خرجت إليه إلهام، قالت معاتبة:

- نعم. بالطبع الطعام جاهز.

- أنتِ هنا يا إلهام؟

- جاءت تزورنا، أحضرتها سارة، طلبت منها الإقامة فترة غيابك عن البيت.

- لا بأس. أمي أنا جائع سأتناول الطعام. عن إذنك يا إلهام. هيّا يا سارة رافقيني إلى المطبخ.

قالت الأمّ مفسّرة ارتباك قاسم:

- إنه يأتي عدّة مرات في اليوم، ليس لتناول الطعام فقط، وإنما للاستراحة من عناء التعب، إنه البيت الذي تربّى فيه، يشعر بالراحة هنا أكثر من أي مكان آخر.

ثمّ غيّرت حديثها وهي تربت على بطن إلهام:

- قولي لي، أيعذّبك هذا العفريت الصغير؟

- ليس كثيراً. إنه هادئ أحياناً وكثير الحركة أحياناً أخرى.

- الحمد لله على حملك السريع، لو تعلمين ماذا فعلت لنا يا إلهام. إنه أملنا جميعاً.

«إذن قاسم ليس مسافراً، كيف لا يأتي إلى البيت إذن؟ ولماذا يهملني كلّ هذا الإهمال، ويضع أهله بالمقام الأول؟ ألست أحمل ولده الذي أكدّ لي أنه يحلم به؟ ما الذي يجري من حولي؟ أشعر كأنّ الوضع غير طبيعي»؟

* * *

راجعت طبيبها قبل أسبوع من ولادتها المتوقّعة:

- الحمد لله الجنين بخير، وصحته جيدة، وضعه طبيعي تماماً، يمكنك الاطمئنان.

- أنا آسفة يا دكتور، كان من اللازم أن آتي إليك في الشهر الماضي، ولكن (قاسم) مشغول دائماً.

- لا بأس. يمكنك الحضور في أي وقت. إنه حملكِ الأول ويجب أن تنتبهي لنفسك. موعد ولادتك ليس بعيداً.

وهكذا اقتربت لحظة الولادة، وكانت إلهام تشعر بالقلق. وقد تكرّر حلمها بضياع ابنها أكثر من مرّة، وتكرّر إحساسها الغامض بالقلق.

وفي إحدى ليالي كانون الثاني عام ١٩٩٠، وكانت ليلة شديدة البرودة شعرت إلهام بآلام المخاض. وكانت أمّها إلى جوارها، حضرت خصّيصاً لمعاونتها في العناية بالطفل. لم تضع الأم وقتها فاتصلت بأم قاسم. ونقلت ابنتها بسيارة أجرة إلى المستشفى القريب، لتكون ولادتها تحت إشراف طبيبها المختص. وقضت إلهام ليلة صعبة من المخاض المؤلم العسير. حتى سمعت صوت صراخ الرضيع فشعرت بالسعادة ثم أُغمي عليها. قال الطبيب:

- ستكون بخير، لقد بذلت جهداً كبيراً في دفعه إلى الخروج.

اقتربت أم قاسم من الطبيب الذي كان يختبر صحّة الطفل:

- أعطني الطفل يا دكتور.

- ليس الآن، سيقومون بغسله وتنظيفه يمكنك رؤيته فيما بعد يا خالة.

- يبدو شديد الشبه بوالده، ألا ترى زرقة عينيه؟ الحمد لله.

- المهم أنه سليم معافى. يمكنكِ الذهاب والاستراحة يا خالة، لن تستيقظ إلهام قبل ساعتين على الأقل.

قالت أم قاسم لأم إلهام:

- جئت لأصحبك إلى البيت لترتاحي لبعض الوقت.

- سأذهب إلى منزل إلهام لأنام لبعض الوقت، لا داعي لإزعاجكم يا أم قاسم.

- كما تشائين. تعالي سأرافقك إلى هناك.

- الحمد لله ولدت إلهام ولداً جميلاً بصحة جيدة.

ثم تابعت تقول:

- قاسم في حلب. يستلم شحنة بضاعة، سيفرح كثيراً.

-٣-

استيقظت إلهام، كانت ترى حلماً مرعباً، صرخت:

- أريد أن أرى ابني يجب أن تحضره الممرّضة.

دخلت الممرّضة:

- خير ماذا تريدين؟

- أريد رؤية ابني، سأرضعه أحضريه إلى هنا.

قالت مرتبكة:

- ولكن يا سيدتي. ماذا أقول لك؟

- ماذا هناك؟ لماذا أنت مرتبكة يا آنسة؟ أين ابني؟

- أنا آسفة، أخذه أهل زوجك ليدفنوه.

صرخت مفجوعة:

- ماذا. ماذا تقولين؟ مات ابني؟ أنت تكذبين كان يصرخ هذا الصباح وقد طمأنني الطبيب أنه بصحة جيدة.

- أنا آسفة. هذا ما حدث.

- كيف يا إلهي؟ معقول، مستحيل. آه يا إلهي.

دخلت أمّها:

- ابنتي ما بك؟ خير؟

- مات ابني يا أماه. مات. هكذا أخبرتني الممرّضة.

- مستحيل، كان يترغل في حضني هذا الصباح. كيف حدث ذلك؟ يا ستر الله.

- هكذا أخبرتني الممرّضة، أخذه أهل قاسم ليدفنوه.

كانت تنتحب مفجوعة حين دخل الطبيب:

- كيف حالك يا سيّدة إلهام؟

- دكتور أمعقول؟ أكّدتَ لي أنّ ابني بصحّة جيدة.

- نعم. هو بصحة جيدة، خير، أحدث أمر طارئ له؟

- ابني مات. مات يا دكتور.

- كيف حدث ذلك؟ مستحيل سأتأكّد من الأمر.

خرج الطبيب منزعجاً ليتحقّق الأمر، كانت إلهام تبكي مفجوعة:

- آه يا أمّاه. ليتني متُّ. أين قاسم؟ لماذا لا أراه؟

- اهدئي يا ابنتي لا رادّ لقضاء الله. قالت أمّه إنّ زوجك مسافر في حلب، سيحزن كثيراً لموت طفله.

-إنها مسؤولية من في المستشفى، لم أترك الأمر ينقضي بهذه السهولة!

- سنرى ما يقوله الطبيب، أرجوك أن تهدئي.

دخل الطبيب:

- أنا آسف يا سيدة إلهام. يبدو أن الطفل أصيب بذبحة فور خروجي من المستشفى مات على أثرها، وقد استلم أهل زوجك جثّته، كلّ الأوراق سليمة مع الأسف.

-لا. يا إلهي.

شاركتها أمّها البكاء:

- أهكذا قُتل حلمك يا ابنتي؟ ويلي عليك أيتها المسكينة.

كان الطبيب غير مصدقّ لما يحدث:

«أمر غريب أن يحدث كلّ ذلك خلال أقل من ساعتين. لست مطمئناً للأمر».

قضت إلهام ليلة أخرى في المستشفى وسط شعور كئيب بالحزن والمرارة، ورغم محاولات أمها تهدئتها. كانت منهارة تماماً. مما اضطرّ الطبيب أن يعطيها أكثر من حقنة مسكّن، وقد خاف أن تحدث لها مضاعفات وهي تحت تأثير الصدمة.

ساعدها في الخروج في اليوم التالي وأحضر لها بعض الأدوية مؤكّداً على أمّها أن تلتزم بتعليماته في إعطائها الدواء في الوقت المحدّد.

وفي مساء ذلك اليوم حضر قاسم من سفره، بدا غاضباً حزيناً، لم يستطع كبت انفعالاته، رغم توسّل الأم المسكينة له، أن يراعي شعور ابنتها المفجوعة. وقد غادر المنزل بعد ساعة إلى منزل أهله.

وشيئاً فشيئاً بدأت إلهام تعود إلى رشدها، وقد أقنعها الطبيب أنها يجب أن تنجب طفلاً آخر بسرعة لتنسى مأساة طفلها الأول، كما أقنع **(قاسم)** بأن يعود لملاطفتها، فهي لم ترتكب ذنباً.

ورغم ذلك ظلّ أهل زوجها يرفضون زيارتها، وقرّرت أمّها أن تصحبها إلى حمص مسقط رأسها لتروّح عن نفسها لبعض الوقت.

- سأذهب لوداع أهل زوجك، ألا ترغبين بالمجيء معي؟

- لا يا أمّاه، إنهم يعاملونني كأني قاتلة، قتلت طفلي وحرمتهم منه.

- كما تشائين يا ابنتي، سأذهب لوداعهم لوحدي إذن. كنت أتمنى لو كان قاسم هنا ليرافقني.

- قاسم مشغول بعمله، إنه يهرب من البيت إلى العمل، ألا ترين نظرات الحزن في عينيه؟

- لا بأس يا ابنتي، كلّ شيء سيكون على ما يرام بإذن الله. هه لن أتأخّر سأعود سريعاً.

كانت تنتحب بصمت: «أعانني الله على الأيام الحزينة القادمة».

-٤-

ضغطت والدة إلهام على جرس الباب، وسمعت صوت أم قاسم الصارخ، مع بكاء طفل:

- افتحي الباب يا سارة.

- سأفعل يا أمي.

فتحت الباب، وحين رأت أمّ إلهام قالت مرتبكة:

- أهلاً بك يا خالة تفضّلي.

ثمّ صرخت لتعلم من البيت:

- والدة إلهام يا أمّاه.

سمعت صوت طفل يترغل. وأم قاسم تردّد:

- الله ما أجمله.

رحّبت بوالدة أم إلهام ببرود:

- أهلاً وسهلاً تفضّلي.

- جئت أودّعكم، سأسافر أنا وإلهام بعد قليل. ما شاء الله من هذا الصبي الجميل يا أم قاسم؟

- إنه ابن (مزنة) ابنتي، لم يأت ميتاً كابن إلهام.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أرجوك يا أم قاسم أشفقي على المسكينة إنها في وضع نفسي صعب، ما ذنبها إن مات طفلها؟

- لا بأس. أنا أحاول أن أنسى صدّقيني. على كلّ حال سلّمي عليها، وقولي لها لا تتأخّر كثيراً بالعودة.

دخل قاسم، وهو يتكلّم:

- أماه. كيف حال الصبي؟

فوجئ برؤية والدة إلهام، قال مرتبكاً:

- آه أنت هنا؟

قالت أمّه ردّاً على سؤاله عن الطفل:

- إنه بخير يا قاسم. كنت أتمنّى لو كان ولدك، ألا ترين كم يحب ولد أخته، وهو متعلّق به كثيراً، مسكين كان يحلم بطفل.

همست والدة إلهام قريباً من أذن أم قاسم:

- وهذا ما يستدعي أن يحاول من جديد مع إلهام لتحمل من جديد، إنها الحل الوحيد، أرجوك يا أم قاسم ساعدي إلهام. إنها مسكينة يكاد الحزن يقتلها، إنها في مقام ابنتك. أرجوك، حاولي مع قاسم ليعاود سيرته الأولى مع إلهام، إنها في حاجة إليه.

- طيب طيب. قاسم.

نعم يا أماه.

- زوجتك مسافرة، أوصلها وأمّها إلى المحطّة.

- سأفعل يا أمّاه. أمرك.

استغربت أم إلهام علاقة قاسم بأمّه، «إنها تعامله كطفل. وهو يطيعها تماماً»، سألت:

- أين مزنة الآن، لماذا لا أراها؟

- ذهبت إلى السوق لتشتري بعض اللوازم للطفل. أتريدين شيئاً منها؟

- لا. فقد أردتُ أن أودعها. كيف سمحت لها بالذهاب هكذا يا أم قاسم وهي لم تكمل الأربعين يوماً بعد الولادة، إنه وقت حساس. قد تصاب بأذى.

قالت مرتبكة:

- نعم. تصوّري لم يخطر هذا الأمر ببالي أبداً. معك حق. كان من اللازم ألّا أتركها تذهب.

فتح الباب ودخل عامر زوج مزنة:

- كيف حالك يا امرأة عمّي. هاتي يدك لأقبلها.

- الله يرضى عليك يا عامر.

- إنه طفل جميل فعلاً، لا أصدّق أنه أصبح لديّ طفل بعد هذه السنوات.

- الحمد لله يا عامر يا بنيّ.

فسّرت الأمر:

- عامر يعيش معنا، إنه كأحد أولادي ترك قريته وأتى ليعيش معنا، إنه يعتني بمزنة كثيراً، لو ترينه هنا، إنه يقوم بعمل كلّ شيء. وأبو قاسم متعلّق به كثيراً.

سألها:

- أين مزنة يا امرأة عمّي؟

- في السوق، تشتري بعض اللوازم للطفل. إن كنت جائعاً، الطعام جاهز.

- لا. لا. سأنتظر مزنة، أعطني الطفل من فضلك.

انفجر الرضيع يبكي، شعرت أمّ إلهام بالألم لمنظره، سألت:

- وماذا أطلقتم عليه من تسمية؟

- سمّيناه إبراهيم، على اسم زوجي.

- اسم جميل، ما شاء الله.

نهضت تستأذن:

- هيا يا قاسم يا بنيّ، لنذهب.

قالت أم قاسم مسايرة:

- مع السلامة. وأتمنّى لك التوفيق في سفرك.

كانت والدة إلهام شاردة تفكّر بابنتها وعلاقتها مع عائلة زوجها. وشعرت أن أم قاسم تخفي شيئاً، وأن هناك أسراراً لها علاقة بإلهام.

كان قاسم يتصرّف كآلة تجاه والدته، يطيعها في كلّ شيء، دون أن يناقش وكان أمر إهماله لإلهام يعذّبها كثيراً، كانت تصطحب ابنتها إلهام إلى المدينة البعيدة وهي غير مطمئنة إلى وضعها مع عائلة زوجها.

ورغم أن قاسم حاول أن يعيد الابتسامة إلى إلهام وهو يودّعها في المحطّة، كانت الأم تشعر بالانقباض في صدرها. وهي تدعو في سرّها أن يعيد الله سبحانه وتعالى علاقة ابنتها مع زوجها إلى وضعها السابق. وفي بيت أهل قاسم كانت الأمور تسير بشكل آخر:

- هذا ما حصل يا أبا قاسم.

- إذن، حلّت المشكلة بهدوء وبتكلفة بسيطة.

- نعم. وظلّت مغلقة على عدد صغير هو الذي يعرف السر.

كان الطفل يبكي من جديد دون توقّف، وأبو قاسم يحمله قال:

- لا أعرف ما أفعل به؟

- ربّما يحتاج لتغيير ملابسه، أعطني. انظر إليه يا إبراهيم، إنّه حفيدك إبراهيم. ألا ترى ما أجمله.

- وكيف استقبلته مزنة؟

- استقبلته بخوف في البداية، ثم بدأت تعتاد عليه. مسكينة.

- بعد سنوات من ولادة الأجنّة الميّتة؟ إنها سعيدة بالطبع.

- يمكن لإلهام أن تنجب الكثير من الأولاد.

- هذا ما سأحاول إقناع قاسم به، ليعيد علاقته معها لتحمل من جديد. انظر إليه لقد هدأ.

قال عامر:

- أحتاج لوقت طويل لأتدرّب على العناية به.

حمله عامر من جديد فعاد إلى البكاء، قالت أم قاسم ضاحكة:

- إنه لا يحبّك كثيراً يا عامر. كأنك لست والده.

ردّ مجاملاً وهو يضحك:

- سيعتاد عليّ. لا تقلقي.

* * *

وهكذا قضت إلهام عدّة أيام بين أهلها، حتى حضر قاسم من جديد لاصطحابها.

كانت نفسيته متغيّرة معها أظهر لها الكثير من المحبّة والمودة. وهكذا عادت معه من جديد.

* * *

بدأت أيامٌ أخرى من الرعب والأسرار. قال لها يوماً مغيّراً من طبيعته بعد شهر من إظهاره لها الحب:

- أنا آسف يا حبيبتي، قد أتأخّر اليوم.

- وعدتني يا قاسم أنك لن تتأخّر. ستأتي إليّ دائماً مبكّراً.

- إنه العمل يا إلهام أرجوك.

- ولكن يا قاسم.

- لن أتأخّر كثيراً يا حبيبتي، بإمكانك الذهاب إلى أهلي إن شعرت بالملل. هه؟

فكّرت: سيعود إلى سيرته الأولى، وسأعود لحالة الوحدة والكآبة. آه يا إلهي، سأزور أهله الآن والليل في أوّله قد يستغربون زيارتي؟ ربّما ما زالت أم قاسم متضايقة منّي. جهّزت نفسها وانطلقت صوب بيت أهل زوجها، وصلت خلال فترة قصيرة، وضغطت على جرس الباب، فتح لها عامر، استغرب وجودها:

- أهذا أنت؟ أهلاً وسهلاً. تفضّلي.

- كيف حالك يا أستاذ عامر؟

- ادخلي، إنهم يجلسون في الغرفة الخلفية.

طرقت باب الغرفة ودخلت، فوجئت أم قاسم:

- إلهام؟ بعد زمان. هل نسيت أننا أهل؟

- لا. أبداً. ولكن.

- أعلم أن الوضع كان مزعجاً لك. ولكن هذه هي إرادة الله.

كانت مزنة تحمل الطفل:

- أمي. لا أعرف كيف أجعله يتجشّأ.

- طبطبي على ظهره قليلاً.

نظرت إلى الطفل شعرت بقلبها ينخلع، يا إلهي، إنه يشبه كثيراً طفلها الذي مات. قالت أم قاسم منزعجة:

- ما بك يا إلهام تتفرّسين في الطفل. أعوذ بالله. ومن شرّ حاسد إذا حسد، ومن شرّ حاسد إذا حسد. أليس من المعيب عليك أن تحسدي (مزنة) على هذا الطفل؟

قالت مندهشة:

- أنا أحسدها؟ أعوذ بالله.

- ادخلي الطفل يا مزنة. مدّديه في سريره لينام إنه ناعس.

- سأفعل يا أمي.

شعرت إلهام بالانقباض ولم تستطع البقاء طويلاً في بيت أهل قاسم، فعادت إلى بيتها الذي لا يفصلها عنه سوى مسافة قليلة.

كانت حزينة متألّمة وقد لحظت أن أم قاسم وبناتها لا يكترثن بها ولا يعاملنها باهتمام كما كنّ يفعلن أيام حملها. وهي تتأهّب لفتح باب البيت سمعت صوتاً وراءها:

- انتظري يا إلهام. سأدخل البيت معك.

- يا إلهي إنها الجدّة. آه يا جدّتي منذ زمن طويل لم أرك.

- لا بأس. ها قد جئت إليك خصّيصاً، سأقضي معك وقتاً أطول يا ابنتي.

- أهلاً بك يا جدّتي. أنا في حاجة لمن أقضي الوقت معه.

كانت الجدّة تتمتم: «مسكينة، لا تعرف ماذا يجري في الخفاء حولها».

قالت لها ملاطفة:

- بيتك نظيف ومرتّب كالعادة. ألم يحن وقت عودة زوجك؟

- آه يا جدّتي. إنه يتأخّر في العودة كثيراً. عاد إلى سيرته السابقة. رغم أنه وعدني بفتح صفحة جديدة في حياته، يهتمُّ فيها بحياته بالدرجة الأولى، ولا يتركني وحيدة معزولة، ولكنه مع الأسف.

قاطعتها:

- لم يفِ بوعده. لديك مهمّة كبيرة، بالنسبة لأهله.

يا إلهي من الصعب أن تحكي لها القصّة، وتفسّرها لها، قالت مشجّعة:

- أعانك الله يا ابنتي.

بدأت تنتحب بصمت، ثمّ غمغمت وهي تشرق بالدمع:

- مررتُ بظرف عصيب يا جدّتي. فقدتُ ولدي لحظة ولادته، قيل لي إنه أصيب بذبحة صدرية. يا إلهي كان طفلاً جميلاً صحيح البدن كيف حدث وأصيب بتلك الذبحة؟ لا أستطيع أن أصدق الأمر!.

- معك حق يا ابنتي.

- هل أجهّز لكِ كأساً من الشاي؟

- لا. لا أريد شيئاً، اسمعي يا إلهام، أتحبّين (قاسم)؟

- نعم يا جدّتي، رغم أنني أعتب عليه أحياناً، فهو لا يكترث بي كثيراً، وأشعر أنه أحياناً يعاملني كقطعة من الأثاث. آه. ربّما كانت ظروف عمله معقّدة، لدرجة أنه ينساني أحياناً في زحمة الأفكار والوساوس.

وماذا ستقول لها؟ إنه موضوع لا يصدّق. لحظت إلهام شرودها:

- تبدين شاردة؟ أتفكّرين بوضعي البائس.

- آه. بالطبع أنت كلّ ما يشغل فكري.

- رغم أنني لا أعرف عنك شيئاً، إلا أنني أشعر أنك قريبة مني، تحملين همّي ومتاعبي، لا أدري ما أقول لك. كلّ شيء في حياتي يبدو في غير مكانه الصحيح.

- تتحمّلين القسط الأكبر من ذلك. لم تكوني واعية لما يجري حولك.

- كيف؟ أوضحي لي الأمر أرجوك.

- لا أستطيع أن أحكي شيئاً، فقط أريد منك أن تنتبهي لحياتك، وتميّزي بين الناس، ولا تتصرّفي تجاه أي حدث مهما كان خطيراً بسلبية مطلقة كما تفعلين.

فكّرت إلهام متوتّرة: «إنها تعرف كلّ شيء، ولا تريد أن تتكلّم». ثم بكت متوسّلة:

- أرجوك أيتها الجدّة قولي لي ماذا أفعل؟

- اهدئي يا ابنتي، لا داعي للبكاء. كوني حذرة حتى من أقرب الناس إليك، وثقي بالله سبحانه وتعالى، واطلبي منه الصفح والعون. أنتِ تعيشين وحيدة وحياتك متعبة مخيفة، الإيمان بالله سينقذك.

- ونعم بالله يا جدّتي. سأجهّز الشاي بسرعة.

«مسكينة هي ضائعة تحتاج لمن يقودها لبرّ الأمان».

حين عادت إلهام لم ترَ الجدّة، فبدأت تبكي:

- جدّتي، أين أنت؟ يا إلهي لقد ذهبت ولم تنتظر أن تفسّر لي ما يحدث. ليتها تعيش معي هنا، تسلّيني وتؤنس وحدتي، أنا متأكّدة أن قاسم لن يمانع.

بعد أسابيع بدأت إلهام تشعر بأعراض الحمل، وأسرّت لقاسم، فأظهر سعادته وفرحه في حين أخبر أهله بحملها، زارتها والدته.

كانت زيارة قصيرة، طلبت فيها من إلهام الانتباه لنفسها، حتى لا يموت الجنين فيما بعد:

- أرجو ألّا يكون ذلك مرضاً يؤثّر على الجنين فيميته لحظة الولادة.

- ولكن الطفل كان ذا صحّة جيدة حين ولادته، وأكدّ لي ذلك الطبيب ولم يخبرني أنني مصابة بمرض يقتل أطفالي بعد ولادتهم.

- ربّما لم يرغب في إتعاسك.

- سأذهب إليه، وأتأكّد من الأمر.

- في رأيي راجعي طبيباً آخر، إنه أحد معارفنا، طبيب ممتاز وسيساعدك كثيراً. سأرسل سارة لتصحبك إليه هذا المساء، ما رأيك؟

- لا بأس يا عمّتي سأفعل.

- إن شاء الله تكون حالتك طبيعية، وتنجبين لنا الكثير من الذكور والإناث.

- شكراً لك يا عمّتي.

- أنا ذاهبة، تعالي إلينا كل يوم. لا تجلسي وحدك هكذا.

- الحمل يتعبني، ويفرض عليّ الابتعاد عن الضجة والصخب. وبيتكم يقع على مفرق شارعين، إنه صاخب أحياناً.

- يجب أن تعتادي على هذه الأجواء. لا نستطيع أن نغيّر بيتنا من أجلك.

- آسفة. لم أقصد إغضابك.

- لا بأس.

خرجت أم قاسم، وإلهام تتمتم مع نفسها: «أشعر أنها لا تحبّني. يا إلهي، أعنّي».

سمعت حركة في البيت:

«يبدو أن (قاسم) قد عاد مبكّراً اليوم. الحمد لله. سأجهّز له الطعام»، سارعت ترتّب السفرة وتجهّز الطعام، بحثت عن قاسم، لم تره اعتقدت أنّه في الحمّام، ثم سمعت صوت الباب ينغلق:

«قاسم عاد إلى عمله. ولم يقل كلمة لي كأنّي قطعة أثاث، آه. كنتُ أتمنّى لو يقضي بقية اليوم معي، ولكن يبدو أنه لا فائدة من تمنياتي».

سهت لبعض الوقت وسط كوابيسها المتكرّرة، ثم صحت على رنين الهاتف، رفعت السمّاعة:

- أنا سارة يا إلهام، جهّزي نفسك، سأمر بعد ربع ساعة لاصطحابك إلى الطبيب.

- أليس الوقت مبكّراً على ذلك.

- لا تقلقي إنه قريبنا، نستطيع مراجعته في أي وقت.

- طيّب. سأكون جاهزة خلال ربع ساعة.

-٥-

قال الطبيب بعد معاينتها:

- كلّ شيء يبدو طبيعياً، لا يمكننا الآن أن نعرف إن كانت هناك علّة أم لا.

- ولكن الطفل كان سليماً بعد الولادة، ربما حدث له شيء في الحاضنة، ولم ينتبه إليه أحد.

- لا يمكننا الحكم الآن، تحتاجين لفحوص دورية مستمرّة حتى نكتشف السر. يجب أن تأتي للفحص هنا، كل عشرة أيام.

- سأفعل يا دكتور سامي. هه أتريد منّي أن آخذ بعض الأدوية أو المقوّيات؟

- ليس الآن. في المرّة القادمة قد أكتب لك بعض الوصفات.

- شكراً لك يا دكتور.

وهي ترتّب ثوبها مستعدّة للخروج قال لها:

- سارة ما زالت تنتظر في الخارج، قولي لي إنني أحتاجها لدقائق.

- سأقول لها يا دكتور.

خرجت وهمست لسارة:

- يريد الدكتور سامي أن يراك.

- أنا قادمة حالاً.

دخلت سارة وطالت غيبتها، ثم خرجت وسط قلق إلهام، سألتها:

- أهناك ما أخفاه الدكتور سامي عنّي؟

- لا تقلقي، طلب منّي الاهتمام بمزنة، هي حامل أيضاً.

- مزنة حامل، لا بأس. أرجو لها التوفيق.

وكلما اقترب موعد الوضع كانت إلهام تزداد رعباً وخوفاً وفي شهرها السابع وكان ذلك في شهر آب ١٩٩٠، قرّرت إلهام أن تزور طبيبها الأول.

كانت حالات العزلة والإحساس بالكآبة قد عادت إليها، وكانت لا ترى قاسم سوى لدقائق في اليوم، كان يحضر في آخر الليل، وهو يجرجر قدميه من التعب وينام بعمق ثم يستيقظ في الصباح ويذهب. دون أن تراه أحياناً.

وهكذا جهّزت نفسها صباح ذلك اليوم الحار للذهاب إلى طبيبها، وقد تمنّت لو أن لديها صديقة قريبة منها تتكئ عليها في همومها ومتاعبها.

صديقة تواسيها وتخفّف عنها. خرجت من البيت تمشي بهدوء على رصيف الشارع، وهي شاردة في عذاباتها الخاصة.

«قد أعثر على سيارة أجرة في المنعطف القريب، يجب أن أكون حذرة»!.

سمعت صوتاً خلفها:

- هل أستطيع مرافقتك يا ابنتي؟

التفتت مبهورة:

- أنت أيتها الجدّة الطيبة. لقد أرسلك الله سبحانه وتعالى. أنا ذاهبة لاستشارة الطبيب حول عملي.

- اتكئي عليَّ يا ابنتي. سأساعدك.

- لست متعبة إلى هذا الحد، أنا بخير. سنستقل سيارة أجرة. هناك العديد منها يقف هناك.

- لا بأس. أعطني يدك.

قال لها الطبيب بعد أن عاينها:

- حالتك جيدة يا سيدة إلهام، لا تقلقي، ولكن لماذا لم تراجعيني حتى الآن؟

- آه. إنني أراجع الدكتور سامي قريب زوجي قاسم.

- الدكتور سامي؟ معقول؟ إنه ليس اختصاصياً.

- ماذا تقول يا دكتور؟

- إنه طبيب عام ليس مختصاً بالتوليد وأمراض النساء، على كلّ حال سأتكلّم مع قاسم في هذا الموضوع.

- لا يا دكتور، أرجوك، لا داعي لذلك، ربّما غضبوا منّي، جئت إليك دون معرفتهم.

- لا بأس، هذه العجوز؟ قريبتك؟

- أنا آسفة يا بني، يسمّونني الجدّة. هي في مقام حفيدتي. وأحبّها كثيراً ولن أتركها في بحر الهموم والمتاعب.

- آسف يا خالة، لم أقصد شيئاً، فقط استغربت وجودك مع السيدة إلهام.

- لن أتركها وحيدة بعد الآن. أرجوك ساعدها يا دكتور.

- سأحاول يا خالة.

فكّر مستغرباً:

«ما الذي جعلهم يبعدوها عن أن تكون تحت إشرافي الطبي».

قال وهو يودّعها:

- ابقي على اتصال معي يا سيدة إلهام، لن أتأخّر في مساعدتك. سآخذ بعض العيّنات من دمك لتحليلها في المخبر. اجلسي هنا.

تمتمت الجدّة: «أعانك الله يا ابنتي».

-٦-

مع بداية شهر تشرين الأول عام ١٩٩٠ بدأت إلهام تشعر بأعراض المخاض. وكانت أمّها قد حضرت لمساعدتها، كما كان قاسم غائباً كالعادة.

اتصلت بالطبيب تستشيره في مكان ولادتها، وقد أكّد أهل قاسم أن ولادتها ستكون في المشفى الذي ولدت فيه لأول مرّة. فلم يجد الطبيب مانعاً

من توجّهها نحو المشفى المذكور، وهكذا نقلتها والدتها دون أن تبلغ أهل قاسم بذلك.

وفي المشفى فوجئت الأم بالدكتور سامي يقودها إلى غرفة الولادة مع طبيب شاب يتابع دراسته العليا في التوليد وأمراض النساء، قال للأمّ:

- لا تقلقي يا سيدتي، إلهام ستكون بخير. ابقي هنا في انتظارها.

- سأبقى بالطبع. أرجوك يا دكتور انتبه لها وانتبه للطفل.

- لا تقلقي.

استقبلت إحدى الممرضات مزنة، ومعها عامر، وهي تقول:

- غرفتها جاهزة يا أستاذ عامر. إنها في هذا الاتجاه.

تمتمت وهي تشعر أنّه يشدّ على يدها محذّراً:

- أعرف كيف أتصرّف.

جاءت أم قاسم ورأت أم إلهام تجلس متوتّرة قلقة فقالت بوقاحة:

- أنت هنا؟ هه. أرجو ألّا تلد إلهام ولداً ميتاً كالعادة.

شعرت كأنّ سكيناً ينغرز في قلبها وهي تسمع كلماتها القاسية. وتابعت تقول بالوتيرة نفسها:

- ستلد مزنة أيضاً، وسترين كم سيكون مولودها جميلاً.

- إن شاء الله بالخير والسلامة، هي وإلهام.

قالت مزنة وهي تتجه صوب غرفة الولادة الثانية المجاورة للغرفة التي ستلد فيها إلهام:

- هيئي لي الغرفة يا آنسة.

- إنها جاهزة يا سيدة مزنة.

قالت أم قاسم:

- يقول الدكتور إنّ ولادتها ستكون خلال ساعات.

- بالسلامة إن شاء الله.

قال عامر:

- استندي علي يا مزنة.

قالت أم قاسم باستعلاء:

- سأظل قربك يا مزنة. ألم يحضر قاسم بعد؟

قالت الممرّضة:

- لا يا سيدة أم قاسم.

- هذا أفضل، قد يفاجأ أيضاً بولده الميت، أعانه الله.

قالت أم إلهام بغضب:

- لا داعي لهذه القسوة يا أم قاسم. إلهام ليست مريضة.

- هه. سنرى.

دخلوا الغرفة المخصّصة لمزنة، والأم تمسح دموعها، مذهولة:

«أعانك الله يا إلهام على هؤلاء الناس»!

حضر الطبيب، سأل الأمّ:

- كيف حال إلهام؟

- إنها في الداخل، يشرف الدكتور سامي على ولادتها.

- الدكتور سامي، معقول؟

قال بغضب مخاطباً الممرّضة:

- اسمعي يا آنسة.

- نعم يا دكتور.

- ساعديني في ارتداء الملابس المعقّمة سأدخل بسرعة.

- ولكن الدكتور سامي طلب عدم إزعاجه، إنه في الداخل مع الدكتور ماهر طبيب الدراسات العليا. أخذ إذناً من مدير المستشفى.

- أنا أتحمّل المسؤولية لا تقلقي.

ارتدى الثياب المعقّمة وجهّز نفسه للدخول، والممرّضة ترتجف، وفي غرفة الولادة:

- اتركني أتكفّل بالأمر يا دكتور سامي، هيا يا سيدة إلهام. هيّا.

- آه. يا إلهي.

دقائق قليلة وخرج الوليد:

- الحمد لله على السلامة. إنه صبي أيضاً. اغسله يا دكتور ماهر.

قالت إلهام خائفة:

- طمئني يا دكتور، هل هو حي؟

قال سامي:

- حتى الآن نعم. سنرى ما يمكن أن يحدث، سنراقبه جيداً.

قال ماهر مستغرباً:

- إنه بصحّة جيدة، لماذا هي خائفة عليه؟

- ولدت طفلاً ميتاً من قبل.

ولكنّ طبيبها دخل فجأة:

- حمداً لله على سلامتك. أرني الطفل يا دكتور سامي.

قال سامي مرعوباً:

- كيف دخلت إلى هنا يا دكتور؟

- جئت للاطمئنان على السيدة إلهام، رجتني أمّها.

- د. ماهر قام بعمله جيداً.

- يبدو طفلاً سليماً. ضعه هنا يا دكتور ماهر، سأفحصه.

- دعهم يأخذونه إلى الحاضنة قد يصاب بضرر.

- لا تخف يا دكتور سامي، أنا أعرف عملي جيداً.

عاد سامي يلحّ:

- يجب ألّا يتأخّر عن الحاضنة.

قالت الممرّضة المساعدة:

- هل ألفّه بالقماط الآن؟

قال الطبيب:

- نعم. إنه بخير وصحة جيدة، وزنه ثلاثة كيلو غرامات و ٨٠٠ غرام.

غمغمت إلهام وهي تبكي وتقول بصوت خافت:

- إنه في رعايتك يا دكتور.

- لا تخافي.

عادت الممرّضة تستفسر:

- هل آخذه إلى الحاضنة يا دكتور؟

قال الطبيب متسائلاً بسخريّة:

- ما رأيك يا دكتور سامي؟

- لا بأس. خذيه.

- سأرافقك. تعالي.

خرجت الممرّضة وهي تحمل الولد اندفعت إليه أم إلهام:

- إنه حفيدي. الحمد لله، إنّه بصحّة جيّدة.

همس قائلاً:

- لا تقلقي. سنأخذه إلى الحاضنة سيعتنون به جيداً هناك.

- أنا خائفة يا دكتور.

- اطمئني سيكون بخير بإذن الله.

- وكيف حال إلهام؟

- نائمة الآن، ولادتها كانت طبيعية لا خوف عليها.

- يا رب سترك وعفوك، يا كريم.

-٧-

قال سامي مبتسماً:

- الأمور تسير بشكل عادي يا أم قاسم لا تقلقي.

- والبديل أصبح جاهزاً؟

- نعم. ستقتل المسكينة نفسها إن عرفت الخبر.

- خبر موت رضيعها؟ هه. لو طلّقها ولدي الآن لكان له العذر الكافي.

- لماذا تكرهينها إلى هذا الحد يا خالتي؟

- إنها مترفّعة متكبّرة، أرادت أن تبعد ولدي عنّي، كلّ بناتي وأزواجهن يطيعونني في كلّ شيء، إلا هي، دائماً منعزلة، بعيدة عنّا.

- ربّما ترغب بالاستقلال في بيتها هي وزوجها؟

- من المستحيل أن أرضى أن يبتعد عنّي ابني قاسم، إنه يطيعني في كلّ شيء وما أقوله ينفّذه بالحرف، هكذا ربّيت أولادي. مسكينة **(مزنة)** ابتلاها الله بهذا المرض الصعب، إنجاب الأطفال الذين يموتون فور ولادتهم. كيف لي أن أنقذها إلا بهذه الطريقة.

- ولكنك تقتلين إلهام بهذا العمل؟

- لا يهمّني، لو كانت مطيعة لي، لم تسبّب الأذى لنفسها. هي المسؤولة عن ذلك. هه؟

- والله يا خالتي أنا خائف. قد يكتشف هذا الطبيب الفضولي الأمر؟ إنه عمل إجرامي كما تعلمين.

- عمل إجرامي؟ إنه حفيدي، وسأربّيه بنفسي، أنا لا أقتله.

وفجأة ظهرت الجدّة، كانت تقول متسائلة:

- أين تلك المرأة المجنونة؟

اعترضها عامر:

- إلى أين، ماذا تفعلين أيتها العجوز؟

- ابتعد عنّي أيها المأفون. أين خبّأتم ولدي؟

قالت أم قاسم:

- من هذه العجوز التي اندفعت كالريح من الباب؟

- انظري إليّ يا أم قاسم؟ دقّقي فيّ جيداً.

- يا إلهي، الشرر ينطلق من عينيها، لم أرك من قبل، من أنت؟

- أنا الجدّة، هكذا يسمّيني الناس.

- الجدّة؟ أنت؟ يا إلهي.

وشوشها عامر بخوف:

- الجدّة، ماذا يعني ذلك؟

- يعني الكثير، إنها قدّيسة متصوّفة تدافع عن الحق، يُقال إن عمرها يزيد عن (مائة عام).

- أين خبأتم الصبي؟

قالت مزنة بخوف:

- أمي، تريد أخذه؟

- انظري إليَّ جيداً أيتها المرأة، ليس منظرك منظر امرأة ولدت حديثاً، هه. لم تكوني حامل إذن؟ هه، كلّ شيء يبدو مدبّراً إذن. أعطني الصبي.

قالت مزنة مرعوبة:

- لا. لا. أمي انظري إليها.

قالت الممرّضة:

- لا. لا. أرجوك لا تلمسيني، لم أفعل شيئاً.

دخل أبو قاسم الذي سمع نتفاً من الحديث، وقال بعد لحظات بهدوء:

- اسمعي أيتها العجوز. كيف علمت بالأمر؟

- أشفقت على المسكينة، كانت تعاني من إهمال هذه لها، ومن إهمال أسرة زوجها، بكلّ أفرادها لها. لماذا؟ لأنّها تريد أن تؤسّس أسرة لها أركانها، وقد نست المسكينة أن زوجها بلا شخصية، بلا حول ولا قوة أمام هذه الأم المدمّرة. تماماً، كما أنت يا أبا قاسم بلا شخصية وبلا رأي أمامها.

بكت أم قاسم مرعوبة:

- كنت أريد أن ألّهم حولي أن أعتني بهم أحلُّ مشكلاتهم.

قالت العجوز:

- فسرقتِ أطفال ابنك وأهديتهم لابنتك التي لا تنجب سوى الأطفال الموتى. هه. عملية مريعة مرعبة.

- ولكني لن أدعك تهدمين كلّ شيء بنيته، هه. سأقتلك.

- أنت أيتها الضعيفة الأنانية؟

شعروا أنّ شيئاً خارقاً يحدث من تلك العجوز الغاضبة:

«يا إلهي ماذا أرى، إنها عجوز خارقة، لقد جمدت أم قاسم تماماً. يا إلهي».

صرخت أم قاسم وهي تلهث:

- الحقوا بها قبل أن تدمّرنا.

- أيّتها الأم التي لا تملك قلباً يليق بأمومتها. أقسم بالله سأدمّرك وكلّ أسرتك إن اقتربت من تلك المسكينة زوجة ابنك.

كانت إلهام تبكي، وقد دخلت إليها أمّها، وهي حزينة وقد أخبرتها الممرّضة المساعدة أنّ الرضيع مات بذبحة أيضاً:

- أترين يا أمّي ولدت طفلاً ميتاً أيضاً؟

- إنه قدرك يا عزيزتي، أعانك الله.

دخل الطبيب منشرحاً:

- هل رأيت الصبي؟ إنه جميل ممتلئ ما شاء الله.

- ولكنه مات، أصيب بذبحة أيضاً، آه يا دكتور.

- مستحيل. ماذا تقولين؟

خرج غاضباً:

- سأتأكّد من الأمر.

بدا له الأمر غامضاً غير مقبول، صرخ بالممرّضة المساعدة:

- أنت تعالي إلى هنا؟

- نعم. ماذا تريد يا دكتور؟

- ماذا حدث للصبي، ابن السيدة إلهام.

- مسكينة، لقد مات أيضاً، أخرجه أهل زوجها لدفنه.

- ومتى حدث ذلك؟

- قبل وقت قصير.

- مستحيل. أمتأكّدة؟

- كلّ شيء وفق الأصول والقوانين.

- وماذا حدث له؟

- نوع من الذبحة كالطفل الأول تماماً.

- تتذكّرين ما حدث للطفل الأول إذن؟

- نعم. حالة غير عادية لا تنسى.

«لستُ مطمئنّاً لما يحدث، ماذا أفعل الآن»؟ سأل ممرّضة تعمل في الحاضنة:

- يا آنسة هل كنت موجودة حين مات الرضيع، ابن السيدة إلهام؟

- لا يا دكتور، ولكنه مات بسرعة وأخرج من المستشفى بسرعة غريبة. يعني خلال نصف ساعة.

- ألم يفكّر أحد بإسعافه؟

- كان هناك الدكتور سامي وحده. هو الذي أكّد الوفاة.

خرج مرعوباً، سمع صوتاً خلفه:

- دكتور أنا آسف.

- ماذا يا حسن؟ خير؟

- أنا أعمل هنا منذ (٢٠) عاماً، لم أرّ مثل هذه الحادثة من قبل.

- ماذا حدث يا حسن. أخبرني.

- أبدلوا الطفل بطفل ميت من (البراد)، لم يرني أحد وأنا أراقبهم إنهم نفسهم عائلة زوجها. آه. مسكينة تلك السيدة كم كانت تبكي حين عرفت أنها ولدت طفلاً مات.

- ألم تخبر أحداً بذلك؟ ولم تخبرني بالذات؟

- تلك الممرّضة الكهلة قامت بالعملية بهدوء، ويبدو أنها قبضت مبلغاً محترماً. لو تحدّثت بما رأيت لقام زبانيتها بقتلي، تعلم كم هي قاسية؟

- نعم. لا أحد يستطيع التأثير على مركزها حتى مدير المشفى.

- ولكن هذا يبدو عملاً إجرامياً لا يمكن السكوت عنه. أنا خائف.

- لا تقلق. السكوت عن الحق جريمة.

سأل عن سامي، بعض المناوبين:

- لا يا سيدي لم أرَ الدكتور سامي. لماذا تسأل عنه؟

- أريد رؤيته لأمر مهم.

- ربّما يقضي الوقت بين أقربائه. بيتهم ليس بعيداً عن هنا، سأدلّك عليه.

- شكراً لك.

لم يضع وقته فذهب سريعاً إلى العنوان الذي ذكره المناوب، ضغط على جرس الباب ففتحه عامر:

- أسأل عن الدكتور سامي.

- ومن قال لك أنه هنا؟

- أرجوك أعرف أنه هنا، أريد رؤيته لأمر مهم. أرجوك.

- حسناً، سأخبره.

خلال لحظات ظهر الدكتور سامي، الذي بدا مدهوشاً مرتبكاً:

- أنت يا دكتور خير؟ ماذا تريد؟

- هل لك علاقة بما يحدث يا دكتور سامي، أرجوك قل لي؟

- ماذا. ماذا تعني؟

- أنت تفهم ما أعنيه. مع الأسف عرفت كلّ شيء. أين الطفل الآن؟ قل لي.

- أرجوك يا دكتور انتظر هنا، سأعود واشرح لك كلّ شيء.

* * *

كانت الجدّة العجوز قد أعادت، الرضيع لأمّه. دون أن تخبرها بما حدث بالتفصيل، أخبرتها فقط أن خطأ حدث في أسرّة الأطفال. كما أخبر الدكتور سامي، الطبيب المختص بكلّ شيء، وشرح له ظروف وملابسات الحادث.

ورغم أن إلهام لم تعرف أن أهل زوجها كانوا متّفقين على إعطاء الرضيع (لمزنة) إلّا أنها بدأت تشعر بكراهيتهم نحوها، وتغيّر قاسم تجاهها، حتى طلّقها عام ١٩٩٣ بعد حياة صعبة عانتها في بيته.

ولم يعرف سوى العدد القليل ممن لهم علاقة بتلك العائلة، أن ابن (مزنة) نفسه الذي يكبر أخاه بنحو سنة ونصف، يعيش بعيداً عن أمّه الحقيقية دون أن تعرف بوجوده أصلاً.

وظلّ الدكتور سامي يحتفظ بالسر، وهو يعاني الأحلام والكوابيس، لفترة طويلة، أما الجدّة العجوز، فكانت تتردّد أحياناً على إلهام في مدينتها البعيدة عن العاصمة، وتشدّ من أزرها وهي تعتني بولدها الذي كبر تحت عنايتها وعناية أمّها ورعايتها.

* * *

تلك التلال الغامضة

-١-

كان يرهقه كثيراً التفكير في المهمّة التي كلّف بها في شهر حزيران القادم، وهي مهمّة غامضة غير معروفة. وما زالت كلمات رئيسه ترنُّ في أذنه: «يجب أن تستعد جيداً يا نعيم قبل أن تبدأ بزيارة ذلك المكان وتقديم تقرير شامل عنه. فالمطلوب أن نحلّ الألغاز الغريبة من الحوادث التي تجري فيه. أنا أثق بقدراتك الصحافية».

كان عليه أن يطّلع على كل الأخبار والتقارير الواردة من هناك، إضافة لقراءة ما كتب عنها في الكتب القديمة.

بعد نحو ثلاثة أسابيع توفّرت لديه معلومات مقتضبة حول ذلك المكان، كانت متضاربة أحياناً.

صمّم أن يبدأ مهمّته بعد أن يئس من الوصول إلى معلومات متفق عليها وهكذا بدأت رحلته:

- اسمعي يا سعدا، قد أغيبُ أسبوعاً وربّما أكثر، فإن لم أتصل بك أحياناً، فلا يعني ذلك أن مكروهاً حدث لي.
- ولماذا لا تعرّفني بمهمتك؟ هل هي سرّية إلى هذا الحد؟
- ليست سرّية يا عزيزتي، مهمّة صحافية لكشف منطقة يكتنفها الغموض وبعيدة عن مناطق سكن الناس، أقرب قرية إليها تبعد نحو ٤٠ كم. هي في منطقة وعرة في الجبال، لا تصل إليها السيارات.

- قد تشكّل خطراً عليك. مَنْ الذي سيرافقك؟

- المصوّر فادي، تعرفينه؟

- بالطبع هو شاب قوي الجسم وشجاع.

- وهذا ما يريحني.

- ألا تشعر بالخوف؟

- أبداً. أشعر أنني في سبيلي للقيام لمغامرة ربما ستكون مذهلة.

- كل هذه الكتب والمجلّات، والأوراق التي تفرزها طابعة الحاسوب، كلّها محاولات لدراسة تلك المنطقة.

- ومع الأسف لم تعطني تلك الدراسات شيئاً مفيداً.

- ما اسم تلك المنطقة؟

- مرتفعات التنين.

- مرتفعات التنين؟ إنه اسم غريب.

- هي جزء من سلسلة الجبال الشماليّة الشرقيّة قريباً من سنجار، في مواقع لم يستوطنها البشر، ربما لصعوبة الحياة فيها.

رنّ هاتفه النقّال، استغربتْ سعدا:

- غريب؟ مَنْ الذي يخابرك في هذه الساعة؟

- إنه فادي.

فتح الخط:

- آلو. فادي. خير؟

- لم تنم بعد؟ لا بأس. أحضرْ معك من فضلك البوصلة وأدوات الكشّاف التي استخدمناها في وادي الأحراج القريب من وادي جهنّم.

- حسناً يا فادي. توقّعتُ أن نحتاجها لذلك وضعتُها في حقيبة الكتف.

- نلتقي في السادسة صباحاً. تصبح على خير.

علّقت سعدا:

- أرجو ألّا تكون مغامرة متعبة كمغامرتكم في وادي الأحراج.

- في وادي الأحراج صادفنا وحوشاً مفترسة وزواحف. تعاملنا معها ببراعة ولم تكن تخيفنا. ووصلنا إلى أطراف وادي جهنّم المخيف. والتقينا بذلك المغامر الذي اعتقده الناس ميتاً، بعدما أصرّ أن يتدلّى بحبال طويلة ليصل إلى عمق الوادي ويكتشفه.

- ولكنه خرج من الوادي تائهاً زائغ النظرات، فاقداً لذاكرته. ولو لا مغامرتكما في وادي الأحراج للوصول إلى حافة وادي جهنّم، بعد أن رصدته المناظير خارجاً من ذلك الوادي المخيف. لما كان حيّاً الآن.

- صمّمنا أنا وفادي أن نصل إليه في اليوم نفسه، لذلك انطلقنا مع تباشير الفجر الأولى لنصل إليه قبل الغروب بقليل، بعد ساعات من الزوغان من الوحوش.

- كان نجاحاً ساحقاً لكما أنت وفادي. هيّا حاولْ أن تنام لبعض الوقت.

- سأقوم بتحضير بعض الأغراض ثم الحقْ بك.

* * *

انطلقا معاً في سيارة نعيم ذات الدفع الرباعي، وكان فادي متحمّساً للوصول إلى جبال سنجار، رغم أن الطريق طويل من العاصمة حتى تلك المنطقة في أقصى الشمال الشرقي.

لم تكن حركة السيارات على الطريق الدولي كثيرة في ذلك الصباح الباكر من شهر حزيران، وهذا ما جعل نعيم يزيد من سرعته حتى وصل الطريق المفضي إلى الصحراء. لم يصادف أيضاً سوى القليل من السيارات العابرة. ولكن شيئاً غير مألوف لفت انتباهه:

- أترى يا فادي؟

- ما هذا؟ كأن أحداً يشير لنا. أترى؟

- كأنّها فتاة ترتدي لباساً غريباً؟

- هل ستتوقّف لننقلها معنا؟ قد تزعجنا في الطريق، وتؤخّرنا.

- ربّما كانت بحاجة لمساعدة يا فادي. يجب أن أتوقّف.

- كما تشاء.

أوقف السيارة، قال للفتاة:

- تريدين مساعدة؟

- آسفة، أريد أن أبحث عن أبي. ذهب أمس صوب الجبال القريبة من سنجار ولم يعد.

- تبحثين عنه؟ أين؟

- في ضواحي التلال هناك، أنا أعرف كيف أجده.

- نحن نقصد مكاناً قريباً، سننزلك في أقرب منطقة مأهولة.

- ولكنكما تقصدان التلال القريبة من جبل سنجار.

- ماذا تقولين؟

- أمي قالت لي ذلك.

- أمك قالت ذلك؟ قالت إننا نقصد التلال قرب جبل سنجار؟

- نعم. أنت الحنطي العملاق اسمك فادي. وذلك الشاب الأشقر اسمه نعيم. أمي رأتكما في الحلم. وهي أرسلتني لأرافقكما.

- أمك رأتنا في الحلم؟ متى؟

- ليلة أمس. أمي ترى أحلاماً حقيقية. هيّا افتح الباب لي سأرافقكما.

- ما رأيك يا نعيم؟ لا بدّ وأن في الأمر سر.

صعدت في الخلف وانطلقت السيّارة، سألها نعيم:

- ما قصتك أيتها الفتاة ولماذا ستبحثين عن والدك في تلك المناطق؟

- والدي ذهب إلى تلال التنّين يبحث عن عشبة تشفي أمي، ولم يعد. رأت أمّي حلماً أن شابين قادمين من العاصمة يقصدان تلال التنين وأن أبي سيعود معهما. ثمّ رأتكما ليلة أمس بنفس ملامحكما.

- ما اسمك يا فتاة؟ وأين تقع قريتكم؟

- اسمي ريما، وقريتنا اسمها (الخربة) ونحن من قبيلة طي.

همسا يتحادثان قال فادي:

- أسمعت؟ هذا يكاد لا يصدّق.

- يبدو أن هذه الفتاة ستساعدنا.

- قد تكون عبئاً علينا ولا تتحمّل الترحال ومتاعب السفر في طرقات جبلية وعرة؟

- إنها من البادية، تستطيع التحمّل والصبر، وأعتقد أنها ستكون ذات فائدة كبيرة لنا. لا نستطيع إنزالها الآن، أصبحت في أمانتنا.

-٢-

تحادثا مع الفتاة في الطريق الطويل، وشعرا أنها فتاة غير عاديّة، نملك الشجاعة والقوة، وحدثتهما عن والدها الحكيم وعن أمّها العالمة بالأسرار التي تتمتّع بقوى خفيّة، تمارسها في مساعدة الناس.

في أول استراحة طلبا طعاماً وشراباً، رفضت ريما تناول أي شيء، وقالت إنّها تناولت الطعام مع أمّها وترغب أن تصل إلى والدها بسرعة. وهكذا تابعا السير، وقاد (فادي) السيارة هذه المرّة. قال فادي:

- يجب أن نبيت الليلة في فندق قريب من التلال، ولا أدري كيف نتصرّف مع ريما؟

- هي نائمة الآن، وسنتحادث معها حين تستيقظ.

- أتعلم يا نعيم، أشعر أنني بوجود هذه الصبية شديد التفاؤل في حلّ ألغاز تلال التنّين. وربما سنساعدها في الوصول إلى والدها.

- وربما في الحصول أيضاً على العشية التي ستشفي أمها المريضة. ما قرأته عن تلال التنين أن أعشاباً طبيّة تشفي أمراضاً مستعصية متوفرة في أودية تلك التلال. عدا عن وجود مياه عذبة تنقّي الجسم من المرض.

- كم أنا متشوّق للوصول إلى هناك.

* * *

سألا عن فندق للمبيت، في أقرب بلدة للتلال:

- ليس هناك من فنادق في بلدتنا، يمكنكما استئجار غرفة للمبيت.

دلّهما على مكان يؤجّر صاحبه الغرف للعابرين، لم يكن بعيداً:

- لا بأس. نريد غرفتين. واحدة لي ولرفيقي، وواحدة لهذه الفتاة.

قالت ريما:

- لديّ أقرباء هنا سأنام عندهم وفي الصباح الباكر سأكون في انتظاركما قرب السيارة.

- حسناً. أنتِ متأكّدة من وجود أقربائك؟

- نعم. لا تقلقا عليّ. عن إذنكما.

عاد صاحب المكان بعد قليل:

- الغرفة جاهزة. وسأعدُّ لكما طعامَ العشاء بعد ساعة.

- لا بأس شكراً لك.

قال للصبيّ:

- رافقْهما يا يوسف إلى الغرفة.

- حسناً يا أبي. تفضّلا.

- أعجبتكما الغرفة. إذا احتجتما شيئاً، شدّا هذا الحبل سيرن جرس في الصالة السفلية، فآتي إليكما! المهم بعد ساعة يمكنكما تناول العشاء معنا.

- لا بأس. شكراً لك.

علّق نعيم:

- هي غرفة عتيقة ولكنها نظيفة. لا بأس بها لليلة واحدة. أهل هذه البلدة طيبون كرماء. جئت إليها قبل عشر سنوات في زيارة لبحيرتها لإجراء تحقيق صحافي حول هجرة الطيور لهذه المنطقة.

- سنتفقّد أشياءنا من أجل رحلة الصباح.

- أمعقول أن ترافقنا (ريما) وليس معها شيء؟

- هي بدويّة وتعرف ما تحتاجه. كأنها قالت لي همساً أنها تعرف الطريق الموصل إلى قلب تلال التنين.

- أمّها حلمت بنا، وبأننا سنعيد والدها، والد ريما سليماً معافىً معنا حين انتهاء رحلة كشفنا لتلال التنين. هذا شيء خارق.

- سأشحن بطاريات إضافية للكاميرا. قد نصوّر الكثير من عجائب هذه التلال.

- نعم يا فادي إنه موضوع شديد الأهمية.

مع بزوغ الفجر كان الشابان مستعدّين للحركة بالسيارة حين أطلّت ريما من جانب الطريق وهي تحمل بقجة بيدها، قالت:

- صباح الخير. وصلت على الموعد.

- نعم. أهلا بك.

صعدت على المقعد الخلفي، سأله فادي:

- هل ستقود السيارة يا نعيم؟

- نعم. ولا أعتقد أننا سنتوغّل فيها داخل التلال العالية والسفوح المنحدرة.

قالت ريما:

- سنصل إلى مكان، يستحيل بعده الانتقال بالسيارة. هو مكان آمن سنترك السيارة هناك ثم نتابع السير.

قال نعيم:

- إن شاء الله ننجح في هذه المهمّة الصعبة.

- متأكّدة من الطريق يا ريما؟

- نعم. الآن سيأتينا منعطف، بعده وادٍ شديد الانحدار، انتبه يا نعيم، الطريق مليء بالحفر والمطبّات، هي أمتار قليلة فقط، وبعد ذلك يصبح الطريق أكثر سهولة.

وصل الطريق في بعض نقاطه إلى حدّ كانت السيّارة تمرُّ به بهدوء وحذر ودقّة، خشية السقوط في الوادي. قال فادي:

- لم أرَ في حياتي طريقاً ضيقاً مخيفاً كهذا الطريق. ألست خائفة يا ريما؟

- لا. أعرف أننا سنصل إلى المنطقة المنخفضة حيث سنضع السيارة، بكل أمان. أنا أثق بنبوءات أمي.

- لا بدّ وأن نتعرّف عليها حين نعود.

- إن شاء الله. خاصة وسيكون والدي معنا.

أصبح الطريق سهلاً ولكنه كان منحدراً بشكل خطر، قال نعيم:

- مكابح السيارة مبدّلة قبل أيام. لا خوف منها.

قالت ريما مخاطبة نعيم:

- الآن خذ الطريق الأيمن سنصل إلى المكان الذي سنضع فيه السيارة قريباً.

كان الطريق وعراً! مشت السيارة فوقه ببطء قبل أن يلوح لهم كوخ بسقف قرميدي يرقد بين التلال، قرب بضعة أشجار. وخرجت امرأة عجوز تستقبلهم:

- يا هلا بالضيوف.

ردّت ريما:

- أهلاً بك يا خالة.

- آه. أنت ريما. جئتِ للبحث عن والدك، توقّعت ذلك. وأنتما جئتما لمساعدتها؟

- نعم. جئنا لمساعدتها.

- الطريق طويل وصعب. لا أدري ما جرى لوالد ريما. ولكني متأكّدة أنه حيّ. أصرّ أن يسلك ذلك الطريق هناك. وقد نصحته بسلوك طريق آخر.

سألها نعيم:

- تعيشين لوحدك هنا؟

- نعم. منذ سنوات بعيدة. أولادي هنا، يذهبون للصيد قد يغيبون عدّة أيام ولكنهم يعودون دائماً.

- لماذا لم ينتظر والد ريما حتى يذهب بعض أبنائك معه؟

- أبنائي لا يرافقون الغرباء في سعيهم لاختراق منطقة تلال التنين، يعتبرونها أرضاً محرّمة على البشر.

- وأنت، أتعتبرينها كذلك؟ أقصد محرّمة على البشر؟

تنهّدت، قبل أن تجيب:

- لا يستطيع اختراقها إلا من كان جريء القلب حكيماً يبحث عن المعرفة.

تركوا السيّارة بعد أن تأكّد نعيم من إقفال أبوابها، ووضعها في القسم الخلفي من المنزل، تحت سقف يغطّيها من الشمس، وربما من المطر. قالت ريما:

- هيّا نبدأ المسير، أمامنا ساعات حتى نصل إلى مكان آمن، قبل مغيب الشمس. قد لا نعثر على والدي هذا اليوم.

- ساعدني يا نعيم، لنثبت حقائبنا على ظهورنا.

سألتهما العجوز:

- أتحملان سلاحاً؟

قال فادي:

- نحمل سكاكين، نستخدمها في قطع الخضار. ولا نملك سلاحاً نارياً.

- أرجو لكما التوفيق مع هذه الفتاة الشجاعة.

سألتها ريما:

- كيف عرفتِ يا خالة أني قادمة؟

- أخبرني والدك أنه إذا تأخّر فقد تأتي ابنته للبحث عنه. حكى لي عنك كثيراً.

-٣-

انطلق الشابان مع ريما التي مشت أمامهما بخطوات واثقة. وبعد نحو الساعتين، توقّفوا للاستراحة. دون أن يتبادلا معها الحديث خلال المسير، فقد كانت تسبقهما بعدّة أمتار، علّق نعيم:

- لم نرَ كائناً منذ أن بدأنا رحلتنا. فقط هذه الأشجار المتناثرة، والطرقات المنحدرة الضيقة، صعوداً وهبوطاً.

- بعد قليل يتغيّر الوضع.

- وما أدراكِ؟ ثم أنا مستغرب فعلاً كيف تعرفين هذه المنطقة وهذه أول مرّة تزورينها.

قالت متردّدة:

- أمي معي، تقتفي أثر والدي. هي من توجّهني.

- كيف؟ يبدو هذا غير معقول؟

- أنا أسبقكما بعدّة أمتار، لضمان دقّة التخاطر بيني وبينها في منطقة غامضة طرقاتها غير واضحة المعالم.

- تتصلين بأمك عن طريق التخاطر؟ يبدو هذا غريباً فعلاً يا فادي.

- ولكننا نراه حقيقياً.

قالت بجديّة وبلطف:

- هيا، يجب أن نتحرّك من جديد. انتهت الاستراحة.

بدأ الطريق يتغيّر وقد هبطوا وادياً ضيقاً، ازداد هذا الضيق إلى درجة سمحت بمرور شخص واحد في طريق بدا كأنه لا ينتهي. قالت ريما:

- انتبها، هناك أشخاص حولنا. إنهم يراقبوننا.

- ولكنّا لا نرى أحداً.

- قد يظهرون لنا؟ انتبها فقط.

وفعلاً بدأت تصلهما أصوات حركة وأناس يتحدّثون بشكل غير مفهوم، تهامس نعيم وفادي:

- أتسمع؟

- نعم. ولم نرِ أحداً بعد.

ورغم ازدياد الحركة، وتداخل الأصوات لم يظهر أحد لهم. واستمرت ريما في طريقها وهما خلفها، يشعران بالتوتّر والقلق. ثمّ خرجوا من الوادي الضيّق، نحو سفح منحدر امتدَّ أمامهم. وقد ظهرت عليه توزّعات لمجموعات من الأشجار.

كان الجو قد ازداد برودة، مع نسمات من الهواء، ازدادت قوّة مع صعود السفح. وفجأة رأوا قرب إحدى الأشجار الضخمة شيخاً بلحية بيضاء. وقربه امرأة متوسّطة العمر، قالت ريما:

- لا تتحادثا معهما، إلا إذا بدآ هما الحديث.

- قد يدلّاننا على الطريق.

- أنا أعرف الطريق جيداً، ولا حاجة لأن نسألهما.

- معك حقّ ما دامت والدتك توجهك، فربّما هناك سبب، تعرفه والدتك أكثر منّا سنتجاوزهما دون أن نتكلّم معهما؟

- سنرى.

ولكنّ الشيخ سألهم:

- من أنتم. ولماذا جئتم إلى هنا؟

أجابت ريما:

- جئتُ مع هذين الشابين للبحث عن والدي. اسمه (دوقلة) جاء إلى هنا للبحث عن عشبة لعلاج والدتي.

- دوقلة؟ سمعت بهذا الاسم. أنتِ من البدو؟

- نعم. وأنتسب لقبيلة طي.

- ونِعْمَ النسب. أتريدون عوناً؟

- شكراً لك يا عم. نحن نعرف طريقنا إلى والدي.

كانت تبدو شديدة الثقة بنفسها، أتاهم نباح كلب يقترب منهم وهو شديد الهيجان، قالت ريما:

- لا تخافا، لن يجرؤ على مسّ أيّ منّا.

- أستطيع طعنه في قلبه بضربة واحدة.

قالت:

- لم نأتِ، لنقتل أي كائن. لن يجرؤ على مهاجمتكما مباشرة إنه ينبح فقط.

- ولكنّ الشرر ينطلق من عينيه، والمرأة قرب الشيخ وربما كانت ابنته، تنظر نحونا بتشفٍّ، كأنّها تنتظر أن يمزّقنا الكلب بأنيابه.

- لا تقلقا، علّمتني والدتي أن أثق بنفسي وبقدراتي!

قال الشيخ:

- على كلّ حال أمامكما أيّها الشابان مهمّة صعبة بعد ساعات.

قالت المرأة ساخرة:

- وقد لا تنجوان منها.

اختفى الشيخ والمرأة فجأة. ربّما دخلا بين الأشجار. قالت ريما:

- لنتابع طريقنا ولا نكترث.

بدؤوا بالدخول بين الأشجار العالية المتكاثفة:

- تبدو أشبه بغابة حقيقيّة، حتى الضوء بدأ يتناقص.

- لن نستغرق سوى وقت قصير لعبور الغابة.

صرخ فادي:

- ريما انتبهي هناك ثعبان ضخم يتدلّى بين الأشجار.

قال نعيم:

- لم أرَ في حياتي مثل ضخامته من قبل. ليتنا أحضرنا سلاحاً نارياً.

- ألم تسمع ما أكّدت عليه؟ لم نأت لنسفك دماء أي كائن.

- ولكنه ضخم ومرعب الشكل، وقد يهاجمنا؟

- اتبعاني وتجاهلا كل ما تريانه حولنا.

بهدوء وثقة مشت ريما، ومرّت تحت الثعبان وهما خلفها على بعد أمتار. ومرّا تحت رأس الثعبان فاغر الفم. وهما قلقان يرتجفان. ورأيا عيوناً بين الأشجار تحدّق بهم. ولكن الغابة الصغيرة انتهت فجأة. كأنّ ما فيها امتحان للشجاعة. علّقت ريما:

- لو قمنا بأية حركة عدائية، لتغيّر وضعنا ولأصبحنا في أسوأ حال. المهم أن نصبر ونملك الثقة والشجاعة. حتى نعبر الأخطار المحدقة بنا.

فكّر فادي مستغرباً «لم أرَ في حياتي فتاة تتمتّع بهذه القدرة والقوة على تحدّي الأخطار». سأل:

- بدأنا نشعر بالتعب يا ريما، ألن نتوقف للاستراحة؟

- لم يحن بعد موعد الاستراحة. تابعا طريقكما خلفي.

وصلا إلى قمّة أحد التلال، كانت هناك صخرة مكعّبة منحوتة، بدقّة، والشمس بدأت تميل نحو الغروب. قالت:

- سنستريح قرب هذه الصخرة، لمدة ربع ساعة ثم نتابع.

- قد تغرب الشمس، ولا نعثر على مكان آمن للنوم.

- لا تقلق يا فادي، المكان الذي سننام فيه ليس هنا.

علّق نعيم، متجاهلاً الموضوع:

- أترى يا فادي مدى دقّة نحت هذه الصخرة؟ بالتأكيد نحتتها أيد بشرية.

قالت ريما:

- عمرها نحو ٢٧٠٠ سنة، هي من نوع لا يتأثّر بعوامل الحتّ، هي صخرة صمّاء. أقامتها أقوام كانت تعيش في هذه الجبال من أجل رصد حركة الشمس. انظرا إلى ظلّها.

- غريب. يبدو ظلّها على شكل بيضوي، قطع ناقص. التقطت عدّة صور لها.

- هذا الشكل عندما تشرق الشمس يكون بأقصى طوله، يتناقص حتى ينعدم عند الظهيرة ويظهر من جديد على هذا الشكل قبل الغروب. من خلال حركة القطع الناقص وانحناءاته كان يتمّ تحديد الوقت بدقّة.

- ما اسم أولئك الأقوام. أتعرفين؟

- هم من مجموعات بشرية، اختارت الحياة بين هذه التلال.

- تلال التنين؟

- نعم. التي بدأت حدودها من هذه الصخرة. غداً سنكون في قلب تلك التلال.

- لم تبدأ تلال التنين بعد؟

- بدأت تباشيرها فقط، مع تلك الممرّات الضيّقة، والشيخ وابنته والكلب الهائج، ثمّ مع الأفعى والعيون المتوهّجة بين الأشجار. هي مقدّمات فقط.

- ومرّ والدك بين كل تلك المصاعب؟

- ربما. لا أدري. ولكنّه بالتأكيد عبر الجزء الأصعب في الرحلة قبل أن يختفي.

- ألست جائعة؟ أتريدين طعاماً سريعاً؟

- لا أريد شيئاً، لديّ طعامي وشرابي.

- كما تشائين.

- سنبدأ الحركة. هيّا.

قال فادي بقلق:

- فرغت أول مجموعة من البطاريات، ولم تبدأ تلال التنين بعد.

- لديك مجموعات أخرى، لا تنسَ أن تلتقط الصور باستمرار. أنت تسجل لحظات نادرة قد لا تتكرّر.

- معك حق. إنها صور نادرة.

ثم قال هامساً:

- التقطت لريما صوراً غير عادية.

عادوا إلى الحركة من جديد. وبدأ إحساس بالدفء يعتريهم وهم ينحدرون في السفح بعد أن تركوا الصخرة المكعّبة. قالت ريما:

- المنطقة هنا دافئة، ويُقال في الأسطورة إن التنين يظهر أحياناً فينفثُ اللهبَ حوله، فيدفّئ الجوّ.

- التنين؟ آه. هذا هو سبب تسميتها بجبال التنين.

- ربما كان في داخلها براكين تنفث الحمم، كان القدماء يعتقدونها تنانينَ نارية. ما رأيك يا فادي؟

- ممكن. فكرة منطقية فعلاً.

- سنصل بعد قليل إلى كهوف الوادي. هي كهوف عميقة، ستستريح في إحداها. ونقضي ليلتنا.

- هل هناك من مفاجآت جديدة يا ريما؟

- أعتقد أن لدينا الكثير من المفاجآت الجديدة. نحن نكتشف عالماً غير معروف، بالنسبة للناس، ولم يغامر أحد في المجيء إلى هنا، عدا القليل من الناس. ومن بينهم والدي.

وصلتهم أصوات زئير وحوش، وعراك بين حيوانات مفترسة، قال فادي، بشيء من الخوف:

- يبدو أن الوحوش تستوطن الأودية. يعني ذلك أن بعض هذه الكهوف، تشكّل أوكاراً آمنة لها.

- بدأ الضوء يخفُّ بعد غياب الشمس. دلّتني أمي على كهف، أكّدت لي أنه آمن تماماً. نحن نتجه إليه.

- إن شاء الله يكون آمناً، فعلاً.

ثمّ همس لنعيم:

- أمعقول ألّا تشمّ تلك الوحوش روائحنا وتهاجمنا. نحن طرائد سهلة لها.

وبدأت أصوات غريبة تصلهم:

- آه. يا بني. أنا قلقة عليك. ترى في أي بطن وحشي استقرّ جسمك. آه.

قالت ريما تطمئنهما:

- لا تخافا من الصوت، هناك أصوات أخرى سنسمعها، هي أسرار من هذه التلال. طمأنتني أمي أنها أصوات لكائنات غير مرئية، تتردّد كالصدى.

عادت الأصوات من جديد:

- أمي. أنا خائف. لا تبتعدي عني.

- لا تخف يا بني. أنا قريبة منك، أدرأ عنك أي خطر.

- أين والدي؟ لماذا لا أراه.

- إنه يبحث عنا. سيلتقي بنا يا بني. لا تخف. آه. آه.

قالت ريما موضّحة:

- أصوات غريبة لأناس فقدوا المكان والزمان. إنهم من ضاعوا هنا، ربما في أزمنة سابقة.

تتابعت الأصوات:

- آه يا بني. أنا ألوب عليك هنا، أبحث عنك، ربّما ما زلتَ حيّاً، رغم أن كلّ من صادفتهم يقولون لا بدّ وأن الوحوش افترستك. آه. يا رب. ساعدني. آه. آه.

علّق نعيم:

- كأنها أرواح خارج الزمن، نسمع أصواتها الباحثة عمّن فقدتهم هنا.

قال فادي:

- إذن كان هناك الكثير من المغامرين الذين دخلوا دائرة تلال التنين؟

- ممكن. هي منطقة مفتوحة على الأسرار. هه. اقتربنا من الكهوف، لا تقلقا، كهفنا هناك على الجهة اليمنى. لا تنظرا صوب الوحوش التي بدأت تظهر لنا. تجاهلاها، كما تجاهلتما الثعبان الضخم في الغابة.

ظهرت لهما مجموعة من النمور والذئاب وقطعان من الوعول والزرافات، ولم يريا صراعاً بينها، ولا اعتداءً من مجموعة على أخرى، كانت مشاهد غريبة، مجسّمة تظهر أمامهما، تهامس فادي ونعيم:

- لم أرَ مثل جرأة هذه الفتاة.

- إنها تعرف ما تفعل. وبثقة مطلقة تؤدّي دورها.

وحالما دخلا الكهف ضيّق الفوهة. هدأت أصوات الوحوش. وفتحت ريما صرّتها أخرجت غطاءً رقيقاً وضعته ليغطّي باب الكهف، وهي تقول:

- لن تجرؤ الوحوش على الاقتراب منا. طلبت أمّي مني أن أضعه على الباب هنا.

- يبدو الكهف أشبه بغرفة واسعة، فيها عدّة مصاطب.

- ستفرشان على هاتين المصطبتين. وسأفرش هنا على المصطبة القريبة من الباب. يمكنكما إشعال المصباح الآن.

قال فادي بقلق:

- ستنامين قرب الباب؟ قد يخترق وحش ما عزلتنا؟ ستكونين الضحية الأولى.

- لا تقلق. لست خائفة من شيء.

قال فادي:

- حسناً. سأعد الطعام. أشعر بجوع شديد.

علّق نعيم متوتّراً:

- قد تجذب رائحة الطعام الوحوش إلينا؟

- مررنا بين أنيابها ولم تجرؤ على مهاجمتنا، لست خائفاً منها.

قالت ريما:

- معك حق يا فادي. بدأت تتأقلم مع الجو.

ولكنها لم تكن ليلة مريحة بل كانت ليلة مليئة بالكوابيس.

دوائر المفاجآت

عادت الأصوات من جديد، قال نعيم:

- كأنني اسمع صوت أنين.

- أنين؟ تقصد أنيناً بشرياً؟

- نعم. نعم.

- ربما توهّمت ذلك نتيجة اختلاط أصوات الوحوش.

قالت ريما:

- لا يا فادي. إنه لا يتوهّم. هناك أنين بشري فعلاً.

- آه. بدأت أميّزه بين أصوات الوحوش. ترى من أين يأتي هذا الصوت؟ لا يبدو قريباً من هنا. أليس كذلك يا ريما؟

- يا إلهي. أشعر به قريباً مني. يا فادي. ماذا تقول؟ ليس بعيداً.

قالت برجاء:

- يا إلهي. دعاني أركّز قليلاً. أمي تخاطبني الآن. آه.

«ريما يا ابنتي. ركّزي قليلاً معي، غوصي في الأشياء من حولك، قد لا أستطيع الكلام معك حول معنى هذا ولكن تذكّري ما أقوله. غوصي في الأشياء من حولك».

- آه. يا إلهي. يجب أن أغوص في الأشياء.

- ما بك يا ريما؟ ماذا يحدث لك؟

- آه. لا شيء.

ثم قالت فجأة:

- الأنين من داخل الكهف. أحضر المصباح يا فادي وتعال ونعيم خلفي.

- متأكّدة؟ من داخل الكهف؟

- نعم. هيّا اتبعاني.

رأوا داخل عمق الكهف رجلاً مسنّاً، كان يتأوّه ويهذي، همهمت ريما، وهي تشير لنعيم ليركّز الضوء عليه:

- حرارة جسمه مرتفعة. هناك بعض الخدوش على ذراعيه. آه الدم ينزف من هنا. سأحاول معالجته ببعض مراهم الأعشاب التي أحملها.

فتح الشيخ عينيه بعد لحظات ونظر حوله. وهو زائغ النظرات:

- أين أنا؟ من أنتم؟ آه رأسي يؤلمني.

- أنت بخير يا عم. كيف حضرت إلى هنا؟

- آه يا رأسي. أين سميحة؟ سميحة. سميحة. أين أنت؟

- من هي سميحة يا عم؟

أخذ ينشج ويبكي:

- آه. سميحة أين أنت؟ كيف ابتلعتكِ الهاوية؟

- ابتلعتها الهاوية يا عم؟ أية هاوية؟

- آه يا سميحة كنت لي نعم الرفيقة والصديقة والحبيبة.

قالت ريما بعد لحظات وهي شاردة كأنّها تتخاطب مع طيف غير مرئي:

- اهدأ يا عم. زوجتك لم تمت هي بخير.

- رأيتها تسقط. آه يا سميحة.

همس نعيم:

- وكيف عرفت أنها لم تمت يا ريما؟

- كأن مشاهد كالبرق أتت إلى ذهني، تنبئني بذلك. آه أمي معي دائماً، لم تفارقني حتى الآن.

لم يتوقّف الشيخ عن البكاء:

- آه يا زوجتي الحبيبة.

ثم أخذ يتشنّج، وتزوغ عيناه. قالت ريما بهدوء:

- ستريحه هذه النقاط من الدواء.

نام الشيخ بعمق، وحاول فادي ونعيم النوم بينما ظلّت ريما مستيقظة، كأنها تنتظر حدثاً ما. كان نعيم وفادي يتحادثان بصوت منخفض:

- الحرارة شديدة داخل الكهف، لا نستطيع النوم.

- لا بأس، يجب أن نتأقلم مع هذا الجو. أترى ريما؟ تبدو قلقة بعض الشيء.

- ربما أقلقها وجود الشيخ، وغموض قصته بالنسبة لنا.

- لا. أشعر أنها تخفي شيئاً.

عادت أصوات الوحوش من جديد، وفجأة شعروا بالأرض تتحرّك من تحتهم. كان واضحاً أنّ زلزالاً يحدث، وانفتحت حفرة داخل الكهف:

- هي حفرة أرضية. الأرض تهتز. لا تقلقا لن يحدث شيء الآن، قد تأتي الارتدادات المزعجة من الهزّة الأصلية، حيث يكون الليل قد انجلى. تتوقّع أمي حدوث الهزّة الأعنف قبل ظهر الغد.

- ولم تستطع أمك أن تعرف شيئاً عن الرجل؟

- سترى كيف أحاوره حين يستيقظ. وبمساعدة أمي، حاولا أن تناما لبعض الوقت، في الغد سنرى ساعات صعبة.

شعر فادي بالإكبار لتلك الصبية الشجاعة الصابرة، وشعر أن ميلاً نحوها قد بدأ يسيطر عليه. وهكذا غفا على وجهها الصبوح. ولكن حلماً غريباً راوده.

-٤-

كان يسير في طريق مشجّر، وحوله الأصوات الغريبة تتداخل:

- إلى أين أيها الشاب. لن يرحمك ملك الغابة. إنه شرس جداً.

كان صوت امرأة، كانت تضحك مبتعدة، سمع أصواتاً متداخلة لحيوانات مفترسة. عاد الصوت يقول:

- اهرب بجلدك أيها الشاب. ستتكاثر الوحوش من حولك.

رأى جمعاً من الحيوانات المتوحّشة تتجه إليه:

- يا إلهي، ما الذي يجري؟ من أين أتت هذه الحيوانات؟

- قلت لك اهرب. اهرب بسرعة.

- يا إلهي. لا. لا.

تكاثرت الوحوش وهي تقترب منه وهو يشعر برعب لا يوصف، ثمّ رأى ريما تظهر كالملاك، وهي تقترب منه وتبعد تلك الحيوانات القبيحة عنه. ثم استيقظ وهو يرتجف.

* * *

كانت ريما قد أبعدت الوحوش التي حاول بعضها تمزيق الملاءة التي وضعتها على باب الكهف. كم هي شجاعة، جريئة. هذه الفتاة التي لا تخاف شيئاً. سمع صوت الشيخ يتحرّك، إنه يستيقظ. قالت ريما:

- جيد، أنه استيقظ مع خيوط الفجر الأولى قد ينجح في تفسير ما جرى له. يبدو دماغه مضطرباً.

عاد يتأوّه وهو يتمتم:

- سميحة. سميحة.

ثم انتبه لريما:

- آه. من أنت يا فتاة؟ أنا لا أعرفك.

- قل لنا من أنت يا عمّاه، وكيف جئت إلى تلال التنين؟

- آه. هل رأيتم سميحة زوجتي؟ يا إلهي، تذكّرت رأيتها تسقط في الهاوية، هناك داخل الكهف. يجب أن أبحث عنها.

- هي ليست في الكهف، قد نراها بعد مدّة قصيرة، يجب أن نتحرّك.

- إلى أين؟ يجب أن أبحث عنها.

أعدك يا عم أنك ستراها. هه. استعدت قواك؟

- أشعر بوجع في قدمي فقط، ولكن أستطيع احتماله. آه. ألديكم طعام، أنا جائع. وأحتاج للماء لأشرب.

قال نعيم:

- خذْ هذا الرغيف، عليه بعض قوالب الجبن، وهذه زجاجة ماء صغيرة.

- شكراً لك يا بني. آه. أشعر بجوع شديد.

انقضّ على الطعام يلتهمه، ثم شرب من ماء الزجاجة الصغيرة حتّى أنهاها:

- كأنك لم تأكل منذ زمن.

- نعم. هاجمتنا الوحوش فتركنا زادنا وركضنا صوب الكهف أنا وسميحة. كأن الوحوش لا تجرؤ على دخول الكهف. كانت تحاول جرّنا للخروج، ولكن سميحة أصرّت على الصمود داخل الكهف.

- وما قصتك يا عم؟

قالت ريما:

- سيحكي لنا قصته ونحن نسير في الطريق، زوجته بحاجة لمساعدة.

- حسناً كما تريدين يا ريما. إلى أين الآن؟

خرجوا من الكهف، توزّع فادي ونعيم حمل الأغراض الخاصّة بهما، قالت ريما:

- سنصعد هذه التلّة لنطل على الجانب الآخر منها. اتبعوني بهدوء. هه. قل لي يا عم. لماذا حضرت إلى هنا؟

- أنا أعيش على أطراف التلال. في بيت صغير قرب نبع صغير. هجرنا الناس، لنقيم في منطقة معزولة. سميحة امرأة تكره المشاكل، وقد أتعبها الناس في القرية، كانت تقدّم لهم النصائح بالاهتمام بأرضهم، وبذل الجهد في زراعتها وسقايتها، ولكنهم كانوا كسالى، ثرثارين، يحبّون خلق الفتن والمشاجرات بينهم.

- الهجرة إلى هنا ليست حلاًّ يا عم.

- صحيح، ولكن الأذى وصل إلى أسرتنا، وفي أحد الأيام أحضروا لنا ابننا الأكبر ميتاً من جراء طلق ناري لمجهول. صبرنا ودفنّاه وكتمنا حزننا، ولكن أحدهم اعتدى على ابنتنا ضحى أيضاً.

- اعتدى عليها، تقصد حاول اغتصابها.

- بل اغتصبها، لتموت من القهر، والمشكلة أننا نعرف كلّ الذين يختلقون لنا المشاكل، وهم من الأثرياء، والمتسلّطين والسادة. لذلك قرّرنا الهجرة إلى هذه المناطق المعزولة.

- ولكنها مناطق مليئة بالوحوش والغرائب.

- ربما تكون الوحوش أرحم من البشر أحياناً.

- ولماذا جئتم إلى هذه التلال الموحشة الغامضة؟

- رغب ابننا الوحيد الباقي، المغامرة في الدخول للتلال للصيد، ولم يعد. وهذا ما أرعبنا وأقلقنا وأحزننا. كيف نخسر ولدنا الوحيد؟ لذلك جئنا نبحث عنه. أنا وسميحة.

قالت ريما محذّرة:

- انتبهوا جيداً، الصخور ليست مستقرّة هنا.

بدت الصخور هشّة، كانت تتكسّر فور ملامستها، قالت ريما:

- أترون؟ انتبهوا وخذوا حذركم؟

سألها نعيم:

- لماذا جئنا إلى هذه المنطقة؟ أترين كيف تنهار الأرض تحتنا؟

- هناك ممر صلب سنمر به ونتجه صوب الوادي من هذا الطرف.

- لماذا؟ كان يمكن أن نسلك طريقاً غير خطر.

- لا تتعجّل يا نعيم هيا، سنبدأ الهبوط إلى داخل الممر الصلب. مهما حصل من مفاجآت لا تقلقا ولا تخافا سنجتازها بنجاح فلا تتردّدا في السير خلفي.

سألها الشيخ:

- أيمكن أن نرى سميحة يا ابنتي؟

- ستراها يا عمّ، لا تقلق.

سمعوا أصوات حركة وصراخ بعيد، قال فادي:

- ما هذا؟ كأن هناك بشراً في الأسفل.

- نعم. نحن ذاهبون لملاقاتهم.

كانوا مجموعة من البدائيين يلتفون حول شيء داخل دائرة مغلقة. وحين رأوا الشيخ وفادي ونعيم وريما ابتعدوا دون عدوانية، كأنهم أرادوا الكشف عن ذلك الشيء داخل الحلقة. صرخ الشيخ بحبور:

- إنها سميحة زوجتي يا إلهي.

ركض إليها وهو يهتف باسمها، رأته وشهقت بفرح:

- عرفان. الحمد لله. اعتقدت أنني لن أراك أبداً.

انفجرت تبكي، قال بخوف:

- ما بك يا حبيبتي؟ الدم ينزف منك وأنت تستلقين على ظهرك.

- سقطتُّ في حفرة تطلّ على فتحة أتاني منها النور. وحين زحفتُ متألّمة لأخرج من الحفرة، لقيتُ هؤلاء البدائيين الذين ساعدوني، ولكنّهم وقفوا عاجزين عن علاج جروحي.

قالت ريما:

- لا بأس يا خالة، سأعالجك.

كانت تبكي وهي تسند رأسها إلى كتف عرفان زوجها:

- آه. ليتني أعيش حتى أرى (سعيداً) ابني.

- سترينه يا خالة، إن شاء الله.

وفجأة أخذ البدائيون يقومون بحركات مضطربة، وهم يشيرون برعب نحو التلال المقابلة. ثمّ بدؤوا يفرّون مذعورين. كأن شيئاً مرعباً قادماً إلى المنطقة. قالت ريما:

- إنها الأناكوندا التي تستوطن هذه المنطقة. أتستطيعين الوقوف والسير يا خالة؟ يجب أن نبتعد عن هذا المكان بسرعة.

- قد تصل إلينا، إنها أفعى ضخمة، لم أرها بعد. ولكنهم ينسجون حولها الأساطير. يا إلهي البدائيون اختفوا بسرعة غير مألوفة.

قالت ريما:

- الحفرة التي سقطت فيها تنتشر حولها بيوض الأناكوندا، لذلك يجب أن نبتعد بسرعة. أرجو ألّا تكون إحدى تلك البيوض قد انكسرت، سيزداد غضب أنثى الأناكوندا وجنونها.

قال نعيم:

- تستطيع ابتلاع رجل ببساطة، قد تقتله في داخل جوفها ثم تلقيه خارجاً. إن كانت غير جائعة.

- هيا نبتعد بسرعة. ريما. ما رأيك لو نتجه صوب الشمال. هل أساعدك يا خالة؟

قال عرفان:

- دواء ريما أفادها كثيراً. سلمت يداك يا ابنتي.

وظهرت الأفعى عن بعد، بدت مرعبة في ضخامتها، صرخت ريما:

- انتبهوا جيّداً. تلك الشيطانة المرعبة قادمة.

- يا إلهي، كم هي ضخمة. آه.

- لا تتحرّكوا، اثبتوا مكانكم دون حركة. هي ذاهبة للاطمئنان على البيوض حين تلج فتحة الكهف، سنجري سريعاً مبتعدين.

رأوا الأفعى الضخمة التي يزيد طولها عن (٣٥) متراً وهي ضخمة مرعبة تمرَّ على بعد أمتار منهم، ثم تنسلُّ إلى داخل الكهف، وعندها بدؤوا بالحركة وفادي يكاد يحمل زوجة الشيخ عرفان قالت ريما:

- لم يعد هناك من حاجة لأن نخاف، المهم أن نظلّ مسرعين في سيرنا باتجاه الشمال.

سأل نعيم:

- حتى الآن لم أفهم سبب وجود هؤلاء البدائيين، أهناك المزيد منهم بين هذه التلال؟

أجابه عرفان:

- ربما. رغم أنهم يرتدون ثياباً من جلود الحيوانات، إلا أنهم يعيشون هنا بعيداً عن المدينة. وأحياناً يفتك بهم المرض، والوحوش المفترسة، أنا أعرف بعض زعمائهم. يأتون إلى بيتنا المنعزل طلباً للحماية، يعتقدون أنني أملك قوى خارقة، لأنني عالجت بعض أطفالهم ولكن كثيراً منهم قد يموتون برصاص المهرّبين الذين يقطعون هذه المناطق.

- مهرّبون يجتازون تلال التنين؟

- نعم. في بعض مناطقها، يقومون بتهريب الآثار، والسلاح والمخدّرات. قد تراهم على شكل جماعات مسلّحة تظهر فجأة وتختفي فجأة. لم يقتربوا من بيتنا طوال فترة سكننا المنعزل على حواف التلال.

- ذات مرّة زارني بعضهم وطلب مني بعض الطعام. قال لي:

«أعطني كل ما لديك من طعام، أصحابي بحاجة للأكل». سألته: «وكيف تقطعون مناطق مقفرة دون طعام؟». قال: «هاجمتنا الوحوش، فتركنا أغراضنا الثقيلة، ومن بينها الطعام وهاهم جماعتنا هناك». قلت: «ليس لدي سوى القليل. نحن نعاني أيضاً من ندرة الطعام ولكننا ندبّر أمورنا».

قال بوقاحة: «ولماذا تعيشون هنا دون طعام ومتعة، أنتم هاربون من العدالة إذن. سأدلُّ رجال الأمن على مكان إقامتكم»!!.

تابع عرفان حكايته:

- غضبت كثيراً حين قال لي هذا الكلام ساخراً وصمّمتُ على عدم إعطائهم شيء ممّا ندّخر. وجاء سعيد ابني في الوقت المناسب. سألني:

- هل يزعجك هؤلاء الرجال يا أبي؟

- نزعجه؟ هه. نريد كلّ الطعام المتوفّر لديكم وإلا قتلتكم بهذه البندقية سريعة الطلقات فنحن كثر.

قلت بغضب:

- قلت لك ليس لدينا سوى القليل من الطعام. سنصبح جائعين إن تنازلنا لكم عنه.

- ونحن نصرُّ على الدخول وأخذ كل شيء، وإلّا.

حرّك بندقيته سريعة الطلقات، وهو يلقّمها مهدّداً، قلت عندها:

- أنصحكم بالرحيل من هنا. لدينا القدرة على طردكم ومعاقبتكم.

صرخ ابني، منادياً كلبه الأثير، «كارون»، الذي كشّر عن أنيابه معترضاً طريق الرجل، الذي أفلت البندقية وهرب. ولم نرَ أحداً من المهرّبين بعد ذلك.

سأله نعيم:

- ولماذا لم تحضرا «كارون» معكما للبحث عن سعيد؟

- سعيد لا يقوم بحركة إلا ومعه «كارون»، هو دليله وحاميه في هذه القفار الغامضة.

- منذ متى خرج ابنكما من البيت، مع كلبه؟

- قبل يومين. أول البارحة صباحاً عند الفجر.

وفجأة لفتت ريما انتباههم:

- انظروا جهة الغرب، هناك مشهد غريب يلوح في الأفق.

كانت الشمس تنعكس على بعض الصخور في التلال الغربية فتظهر الصخور مشعّة بألوان حمراء وبرتقالية وخضراء. سأل فادي، وهو يلتقط الصور:

- منظر فريد، ما سبب هذه الألوان؟

- عندما تميل أشعّة الشمس بزاوية معيّنة تنعكس على سطوح الصخور الخارجية، وأغلبها صخور بركانية قديمة، نبتت فوقها الطحالب والأشنيات بسبب توفّر المياه قربها. عدا عن تراكيب هذه الصخور وما تحويه من معادن، ومواد ربما كان بعضها من المواد المشعّة الطبيعيّة.

- ومن أين وصلتك هذه المعلومات؟

- من الكتب، عوّدتني أمي على القراءة وكانت تفسّر لي الكثير من الكتب الغامضة القديمة.

وصلهم صوت نباح كلب بعيد، قال عرفان:

- أتسمعون؟ إنّه نباح كلبنا «كارون».

قالت أم سعيد:

- يعني أن ابننا قريب من هنا.

قالت ريما:

- سنصل التلّة ونستطلع. قلبي يحدّثني بمفاجأة غير عادية. يا إلهي أين أمي؟ لم تعد معي الآن. في الوقت الذي احتاجها فيه.

وحين وصلوا التلّة التي تكلّمت عنها ريما وأطلّوا على الوادي تحتها رأوا منظراً فريداً. بحيرة كبيرة وحولها الأشجار والخضرة. ظهر سعيد هناك، وهو يجلس قرب رجل ممدّد. صرخت الأمّ:

- سعيد. سعيد. ابني.

كان الكلب قد وصل إليهم، وبدأ يلحس أيادي عرفان وأم سعيد وهو يقفز بحبور، قالت ريما:

- قلبي يحدّثني أن الرجل الممدّد هناك هو والدي.

قال فادي مستغرباً:

- والدك؟ معقول؟

قالت ريما بصوت عال:

- هيّا يا جماعة نهبط التل. من المنطقة التي سيدلّنا عليها الكلب. لا نستطيع الهبوط إلى الوادي من هنا المكان شديد الانحدار.

كان نعيم يردّد:

- لم أرَ في حياتي أبدع من هذا المنظر. يا إلهي.

قال فادي لأم سعيد:

- سأساعدك يا خالة سميحة. الطريق منحدر هنا قليلاً.

- بارك الله بك يا بني. هه. عثرنا على سعيد أخيراً، ولكن من الرجل الممدّد إلى جانبه؟ لا ريب وأن له قصّة.

قال بصوت منخفض:

- إنه والد ريما، الذي تبحث عنه هنا.

ردّد عرفان وهو يتنهّد منفعلاً:

- الحمد لله. هي فتاة جريئة شجاعة، وربما تحمل الكثير من الحكمة.

-٥-

وأخيراً وصلوا إلى مكان سعيد الذي هرع يعانق والديه:

- آسف يا أبي. كان الرجل بحاجة لي. إنه رجل مسكين تعرّض لطلق ناري من قبل عصابات التهريب. وسقط بين الموت والحياة قرب المنحدر هناك. عثر عليه «كارون» كان يتنفّس بصعوبة وقد فقد الكثير من دمه.

اندفعت ريما نحوه وهي تبكي:

- الحمد لله أنني عثرت عليك يا أبي.

ضمّها إليه بحنان وقد بدا شديد التعب:

- كانت أياماً صعبة يا ابنتي، هذا الشاب أعادني للحياة.

قال سعيد:

- وأنت ساعدتني في ذلك يا عم. أنت من وجّهني صوبَ الأعشاب المفيدة لعلاج جروحك، وتعويض الدم المفقود منك.

ثمّ قال مخاطباً ريما:

- والدك يا آنسة مصاب برضوض موجعة في ظهره. وربما كُسرت بعض أضلاعه، بسبب سقوطه من مكان مرتفع. العم دوقلة كانت به رغبة الحياة، وربما شعوره بحاجتكما إليه أنت ووالدتك. لذلك تحسّن سريعاً.

استفسرت ريما:

- ما الذي يؤلمك الآن يا ابي؟

- ما قاله سعيد صحيح، لديّ رضوض في أضلاعي، وحين أحاول الوقوف، يؤلمني ظهري. ربما تعرّضت بعض فقراته للرضّ. أنا متأكّد أنه ليس لديّ كسر في العمود الفقري. وهذا ما يطمئنني.

عرّفته على الشابين:

- هذا هو نعيم وهو صحافي مشهور، وهذا فادي مصوّر صحافي، أتيا بصحبتي لاكتشاف التلال هنا، ولمساعدتي في العثور عليك، كانا نِعْمَ الشابين المؤدّبين يا أبي.

قال سعيد:

- وهذا هو أبي الشيخ عرفان وأمي سميحة يا عم دوقلة. حدثتكما عنهما الكثير. جاءا يبحثان عني بعد أن أطلتُ الغيبة عليهما أكثر من اللازم.

ردّد دوقلة:

- تشرّفنا. ابنتي ريما، هي أعزّ ما في الوجود عندي وعند أمّها. أتت تبحث عني وسط ظروف غير طبيعية، أتت بجرأتها وشجاعتها والحكمة التي تعلّمتها منّا أنا وأمّها، غير خائفة من شيء. مؤمنة بأن الله سبحانه وتعالى سيساعدها في الوصول إلي.

ارتاحوا لبعض الوقت في المكان الذي ربض فيه سعيد ودوقلة المصاب. ورغب نعيم سماع قصّة دوقلة والد ريما:

- الذي علمناه أنك جئت للبحث عن عشبة تشفي زوجتك المريضة.

- نعم. وقد عثرت على بعضها هنا، هي عشبة نادرة ولكني عثرت عليها أخيراً.

قالت ريما:

- لِمَ لَمْ تجرّبها في علاج إصاباتك، إنها عشبة تشفي وترمّم الخلايا المُصابة سريعاً، هكذا أخبرتني عنها أمي.

- قد لا تكون الكمّية التي عثرت عليها كافية لعلاج أمك.

قال فادي:

- سنبحث عن المزيد من هذه العشبة ولا بدّ أن نعثر عليها، إن كانت مفيدة لك استخدمها يا عم.

- نعم يا أبي أرجوك. أنا أعرف كيف أحضرها.

- لا أستطيع يا ابنتي، قد لا أعثر على المزيد منها.

فتحت متاع والدها:

- أنت تضعها بين أشيائك. سأذهب للبحث عن المزيد منها. أنا وفادي ونعيم، وأنا متأكّدة أننا سنعثر عليها.

- حسناً. حسناً. سآخذ القليل منها. قد أتحسّن سريعاً.

- سأجهّزها لك لتشرب منقوعها. وأضع ما تبقّى على الجروح وأماكن الإصابات.

سألته أم سعيد:

- أهي مفيدة إلى هذه الدرجة؟ معقول؟

- نعم. لذلك هي نادرة. كندرة ماء الحياة التي يبحث عنها الناس في الأساطير من أجل الخلود. ولكن هذه العشبة تعالج المرض، ولا تعطي الخلود.

قال فادي:

- عرفت شكل العشبة جيداً، سأبحث عنها ونعيم، وكوني يا ريما إلى جوار والدك.

قال سعيد:

- سأرافقكما، قال لي العم دوقلة إن العشبة تنمو حول البحيرة هنا، في الأمكنة الصخرية فقط، هي تخرج من شقوق الصخور. وهذا يعني

أن البحث عنها سيكون بين الصخور على ضفاف البحيرة فقط. وهي ليست بعيدة كثيراً عن هنا.

- عظيم. هي معلومات مهمّة.

قالت ريما بحنان:

- أعتقد أنكَ صادفتَ الكثير من المتاعب يا أبي، أخبرتني أمي عن ذلك.

- هذه التلال بركانية قديمة. فيها عيون ساخنة، وفيها مخلوقات غير مكتشفة، تظهر فيها الكثير من الغرائب، والأطياف والأشباح. جئتُ إليها أيضاً مدفوعاً برغبة الكشف، عدا عن مهمّتي الأساسية وهي البحث عن العشبة التي طلبتها أمك.

- حدّثني أيضاً يا أبي. رأيت بعض هذه الغرائب أيضاً.

- نحن في الربع الأول من هذه المنطقة. أمامنا مساحات واسعة لم يفكّر أحد بارتيادها.

- وتفكّر في ارتيادها؟ بالطبع سنعود بأسرع ما نستطيع إلى أمي. إن فكّرنا في المستقبل بالمجيء إلى هنا، سنكون مستعدّين وقد يرافقنا شبّان شجعان مثل فادي وسعيد. وربما نعيم. نعيم جريء ولكنه كثير الحذر. بينما فادي شجاع ولا يهاب شيئاً.

همس:

- كأنك تميلين لفادي.

- لكلّ منّا حياته يا أبي، هو ابن مدينة متحضّر وأنا ابنة بادية. لم أفكّر أبداً بأن أعيش في المدينة.

- وما المانع أن تفكري فيه. نظرات الإعجاب بادية عليه. لم يحوّل بصره عنك طيلة هذه المدّة.

جاءت سميحة، ومعها بعض الحطب:

- أحضرنا هذا الحطب أنا وعرفان. سنشعل النار، نعدُّ بعض الطعام من النباتات المتوفّرة هنا. هناك الكثير من الفطر اللذيذ. أنا أعرف النوع السام منه لذلك لا تقلقي يا ريما.

- لست قلقة يا خالتي.

- أجبرنا «كارون» على البقاء معنا. يريد اللحاق بسعيد، هو رفيق رحلاته دائماً. ولكن سعيداً ليس لوحده الآن. يمكنه الاستغناء عن «كارون».

سمعوا أصواتهم وهم يقتربون وسط صخب «كارون» الذي اندفع نحو سعيد قافزاً حوله بحبور، قال سعيد وهو يريهم بعض ما جلبه من العشبة الغريبة:

- عثرنا على منطقة صخرية غنية بهذه العشبة، أحضرنا منها الكثير.

قال نعيم:

- جلبنا أغلب ما في تلك المنطقة. ما دامت مفيدة لهذا الحد، سآخذ قليلاً منها، لنحلّله في المختبر عند شقيق زوجتي.

سأل دوقلة:

- وأنت يا فادي لست متزوّجاً؟

قال بخجل:

- لا يا عم دوقلة. وإن كنت أفكّر بذلك الآن.

أحضرت ريما وعاءً صغيراً:

- تناول منقوع العشبة يا أبي.

* * *

ولم تتوقّف الأحداث في طريق العودة. فبعد أن استردَّ دوقلة بعض قدراته، وانكفأت المجموعة في طريق العودة. تهامس فادي ونعيم حول فكرة طلب يد ريما من والدها. لم يكن نعيم مرتاحاً لهذا الطلب:

- الوضع يا فادي ليس سهلاً، هي فتاة بدويّة وأنت ابن مدينة لن تكون حياتها سهلة معك.

- أعرف يا نعيم! ولكنّي أشعر أنّها ملأت قلبي بشخصيتها الساحرة، هي فتاة استثنائيّة.

- ولكنّك قد تظلمها بنقلها إلى جوّ لا يمكن مقارنته بجوّ البادية البسيط والساحر.

- ولكنّها قادرة على التأقلم.

- ممكن لماذا لا تكلّمها؟

- آه. بصراحة لا أستطيع. ساعدني يا نعيم، كلّم والدها وهو سيكلّمها.

- طيّب سأكلّمه.

قال دوقلة وهو يهزّ رأسه محتاراً:

- يا أستاذ نعيم، فادي شاب خلوق وأعرف أنّه مغرم بريما ولكنّ الوضع ليس سهلاً، هل ريما تقبل الخروج من البادية التي تعيش فيها إلى وسط المدينة وصخبها؟

- ربّما تقبل يا عمّ دوقلة، فهي تستلطف فادي كما ألاحظ.

- على كلّ حال سنستشير أمّها. نظرتها ثاقبة كما تعلم.

- أرجو ألا يخيب ظنّ فادي بالنتيجة، فهو مغرم بالصبيّة.

كان فادي يشعر بالقلق والتوتّر وهو ينتظر خبراً من دوقلة حول قبول أو رفض ريما له بعد استشارة أمّها، ومن دون أن يتوقّع ظهورها فاجأته بالقول:

- كان يجب أن نتحاور معاً قراري بيدي ولا أحد يفرضه عليّ.

- آسف لم أجرؤ على الكلام معك، أنّت من مجتمع يحافظ على عاداته وتقاليده.

- ولكننّا قضينا فترات طويلة معاً، لم أشعر فيها بالحرج والتوتّر معك ومع نعيم، كنّا في عمل مستمر نمرّ بأخطار ونكتشف أماكن غامضة.

- المهمّ ماذا قرّرت بشأن طلبي يدك من أهلك؟

- يا عزيزي فادي، التقينا في ظروف استثنائيّة، وربّما تعلّقت بشخصيتي الجريئة العفويّة وقارنتها بفتيات المدينة، وهذه المقارنة جعلتك تتعلّق بي كفتاة مختلفة عمّن قابلتهنّ من قبل. أنا فتاة عاديّة بسيطة لن أستطيع التأقلم مع جوّ المدينة المعقّد. وكنتُ وما زلتُ أعتبركَ ونعيم كأخين عزيزين كانا مؤدّبين في التعامل معي. ولن أنسى أبداً تلك الرحلة الصعبة المثيرة التي خضنا غمارها معاً.

- أرجوك يا ريما أنا متعلّق بك. هل ما تقولينه له علاقة بما رأته والدتك في استبصارها لمستقبلك؟

- لا يا فادي. أمّي لا تعرف شيئاً والقرار منّي. وسنلتقي في المستقبل. وستتزوّج وتنجب الأولاد وسأزورك أنا وأمّي وأبي. أتمنّى لك السعادة.

* * *

كان نعيم قد كتب الكثير من الصفحات المختزلة عن الأحداث التي مرّوا بها. صفحات مثيرة عن منطقة ما زالت مجهولة تستعصي على رحلات الكشف.

* * *

تحت أرض القمر

-١-

كان الوضع محرجاً بالنسبة له، وقد استدعاه المشرف الكبير عن المنطقة ليخبره أن تقارير كثيرة تقدّم باستمرار عن خروقات أمنية لقوى مجهولة تنتشر بين الناس وتؤثّر على أدمغتهم.

كأنها طاقات خفيّة تبثّها قوّة غامضة بقصد تشتيت الأذهان وتخريب التركيز على الأجهزة التي تشكّل الحماية الأمنية للقاعدة البشرية على القمر:

- اسمع يا ناهض أنت أعظم خبير في شبكات الحماية، رشحته الأكاديمية للقيام بهذا القيام. فكيف تفسر ما يحصل؟

- بدأنا قبل قليل باستخدام شبكة الحماية الرديفة، وهي مجهّزة بعقول إلكترونية متفوّقة لكشف هذه الخروقات مهما كانت غامضة. كلّ ما أطلبه منك بضع ساعات يا سيدي، وسنستعيد وضعنا الطبيعي.

- لا بأس يا ناهض، سأعطيك المهلة التي تطلبها وأرجو من الله أن توفّق، وإلا سيكون الوضع محزناً بالنسبة لك.

- أرجو أن تعمّم على المهندسين أن يستنفروا أجهزتهم الجديدة مع الشبكة الرديفة، وهو أمر يحتاج لتوجيه منك.

- سأعطي توجيهاتي بذلك على الفور.

شعر ناهض أنه أمام تحدّ كبير ربّما كان الأخطر في حياته فقد استقدموه إلى قاعدة القمر للإشراف على شبكة حمايتها الأمنية من الأخطار التي يمكن أن تتعرّض لها من الأجسام الفضائية الساقطة أو من التغيّرات الكبيرة في الحرارة التي تطرأ على الجو فجأة نتيجة أمواج تأتي من جهات من الفضاء لم يستطع العلماء تفسير مصدرها.

استدعى مساعدته (لمى) كانت شابّة شديدة النشاط ومخلصة لعملها، وكان يعجبه منها ذلك التحليل المنطقي الذي تقدم عليه ليوصلها إلى نتائجها. وهذه النتائج تتحقّق بكل دقّة فيما بعد. قالت له بعد فترة صمت:

- يا دكتور ناهض المصدر كما أتوقّع قد يكون بشرياً، أو ربما كائنات عاقلة من خارج الأرض، لا أستطيع فهم ما يريدونه منّا.

- يجب أن تتمكّن مصادر الشبكة الرديفة من معرفة تردّدات هذه الأمواج المجهولة، لتتبّعها ومعرفة مصدرها.

- هذا ما سنحاول القيام به خلال الساعات القادمة. تبدو متعباً يا دكتور يمكنك، النوم لساعة، وإذا حدث شيء سأوقظك.

- رغم تعبي المتزايد لا أستطيع النوم. أشعر بقلق فظيع على الوضع.

- يجب أن تحاول على الأقل لساعة. أرجوك. نحن نحتاج كل طاقتك. حاول أن تستعيد ثقتك. سأكون معك حتى النهاية.

- حسناً، سأتمدّد في مكتبي. وأحاول أن أغفو لدقائق.

- واطمئن جيداً، أنا موجودة على الشبكة أراقب كل شيء.

- بارك الله بك يا لمى.

«أشعر أنني أكاد أموت من التعب، وقلقي يزداد في مرحلة التحدّي التي أعيشها الآن، يا رب ساعدني».

غفا ناهض سريعاً. ورأى في الحلم، كأن كائناً خرافياً يقترب منه وهو في مكتبه.

-٢-

- تبدو منهاراً يا دكتور ناهض.

- من أنت؟ وماذا تريد مني؟ تبدو غريباً عن عالمنا؟

قال وهو يقهقه بصلف وسخريّة:

- أنا سيّد الكواكب جئت لأظهر ضعفكم أيها البشر.

قال ناهض بغضب:

- لسنا ضعفاء. نستطيع أن نظهر قوّتنا الحقيقية عندما نتعرّف جيداً عليكم. وسننتصرّف.

- تبدو واثقاً من نفسك، سآمر أتباعي بإذلالك، وأنت المتفوّق بالذكاء على أقرانك.

- من أجل ماذا؟ ما الذي فعلناه لكم حتى جئتم بهذه العدوانية؟

- أنتم اخترقتم عالمنا، وخرّبتم نظامنا.

- وكيف؟ على حدّ علمي لم نخرّب نظام أحد في الكواكب المحيطة بنا. ولم نعتد على أية منظومة كونية.

- كل حضارتكم قامت على التخريب، حروبكم الحديثة قتلت الملايين ولوّثت الكوكب الأزرق، واخترقت غلافه الجوي لتمتد طويلاً بإشعاعاتها المخرّبة. حتى وصلت إلينا. نحن لا نقبل العدوان، وسنقاوم انتشار سفنكم ضمن المجموعة الشمسية.

- أنتم تنتمون إذن إلى المجموعة الشمسية؟ تعيشون فوق أحد كواكبها؟

- بالتأكيد نحن نشأنا هنا، ولكننا انتشرنا بعيداً، وما زال موطننا حيّاً هنا. أنتم تخرّبون موطننا ولذلك سنعاقبكم.

شعر وجهه يكبر حتى يغطي الأفق والريح تتلاعب به كأنه يتمزّق، كأنه من دخان ثمّ استيقظ مرعوباً:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. كأنه كان حقيقة ولم يكن حلماً. يا إلهي ما هذا؟»

كانت أصواتاً مرتفعة لأزيز إلكتروني غريب، سمع صوت لمى بالجهاز قربه:

- دكتور انتبه جيداً، حصرنا الطاقة على الجهاز رقم (٤).

- أنا أرى ذلك.

عبث بأزرار (الكومبيوتر) كانت هناك طاقة غامضة، تظهر بشكل أمواج غامضة، يجب أن يحاول توضيحها. صرخ برعب:

- يا إلهي. وجه ذلك الكائن الذي رأيته في الحلم.

وصله صوت لمى:

- هل حصرت المصدر يا دكتور؟

- ليس بعد. أنا أحاول.

- ونحن نحاول أيضاً، اصطياد الطاقات الأخرى، لمعرفة تكوينها.

- لمى. تمكّنت من حصر وجه لكائن شبيه بالبشر.

- كما كنت أتوقّع، إنها طاقة عقل ذلك الكائن. يجب الوصول إليه ومحاورته. حاول أن تدخل إليه عن طريق الحزم المتوازية.

- أنا أحاول ذلك.

وانبعث صوت يرعد خلال الجهاز:

- رسالة موجّهة إلى المشرفين على المحطّة القمرية.

- أتسمعين يا لمى؟

- نعم اسمع جيداً.

عاد الصوت يرعد من جديد:

- نحن سمحنا لكم باصطياد بعض الطاقات التي نبثّها، وتأكّدوا أننا لو أردنا غير ذلك، لما استطعتم الوصول إلينا.

«سأكتب له رسالة على الحاسوب قد يجيب عنها»! بدأ بالكتابة:

- أنا المهندس المشرف عن حماية المحطّة. لماذا ترسلون هذه الطاقة؟

- أنتم تخرّبون عالمنا. وهذا إنذار لكم.

كتب: «كيف نخرّب عالمكم؟ اشرحوا لنا ذلك. حتى نسارع بوضع حد لهذا التخريب»!

- وكيف؟ التخريب يتزايد ولا أمل في إيقافه. درسنا الوضع جيداً.

كتب: «أعرف أن حضارتنا الأرضية لم تكن منضبطة كثيراً، ولكننا نحاول أن نرمّم الفوضى التي فرزتها. أنا صادق فيما أقول».

- قبل يومين حطّت سفينة من سفنكم على بحر العواصف وقتلت أكثر من (٢٠٠) من أخوتنا.

كتب: «وكيف حدث ذلك؟ تلك السفينة حدث لها حادث أدّى إلى انفجار أحد محرّكاتها وقد تمكّنا من إنقاذ ركّابها».

- ولكن أجزاءها تطايرت في الفضاء نتيجة عدم قدرة جاذبية القمر على الاحتفاظ بتلك الأجزاء فقتلت ما قتلت من أخوتنا.

كتب: «كان حادثاً عرضياً».

- ولكن التقرير الذي ظهر بعد ذلك أثبت أن العطل في السفينة كان معروفاً لدى الخبراء، ورغم ذلك تركوا السفينة تقلع إلى القمر. ولم يعاقب أحد من المشرفين.

كتب: «هل يعني ذلك أننا مسؤولون نحن في القاعدة القمرية عن أخطاء من على الأرض»؟

سأتحاور معك مباشرة، أنا جاهز لذلك. تبدو شخصاً طيباً.

كتب: «أسعدتني بذلك»!

-٣-

كان العام (٢٠٧٠) ميلادية، وكانت القاعدة القمرية تمثّل نقلة نوعية في الحياة في الفضاء، وقد خرج الإنسان من إسار كوكبه، إلى أقرب الأجرام إليه، القمر.

محطّات ضخمة تدور حول الأرض بخبرائها وعلمائها والفنيين فيها، تعدُّ احتياطاً لكل أشكال التنقّل في الفضاء خارج الأرض.

بعد ذلك الحوار غير المباشر بيّن الدكتور ناهض وصاحب الصوت، جلس ناهض في مكتبه المليء بأجهزة المراقبة، ينتظر اللقاء مع ذلك الكائن المجهول. وهو متوتّر قلق. دخلت إليه **(لمى)** مع زميلتها **(هيام)**:

- أصرّت المهندسة هيام أن تأتي معي لرؤيتك.
- خير يا هيام؟
- يا سيدي تمكّنت من حصر الطاقات في صناديق الكادميوم، وساعدني العقل الإلكتروني المركزي في تفسير الكثير من ألغازها.
- عظيم. أنا انتظر وصول الكائن المشرف عن هذه الطاقات للحوار معه. بشكل مباشر. وبعد ذلك أتفرّغ لنتائج أبحاثك يا هيام.
- هل تريدنا أن نبقى هنا في صحبتك؟
- لِمَ لا؟ لا أعتقد أنه سيمانع في ذلك.

انبعث صوت أزيز إلكتروني قبل أن يظهر الكائن:

- أرى شكلك الشبيه بالبشر، بل تبدو أكثر تناسقاً في جسمك من البشر.
- اسمي لمار يا دكتور ناهض.
- أهلاً بك يا سيدي. هذه مساعدتي لمى، ومساعدتي هيام.
- أعرفهما جيداً. تمكّنت هذه من حصر طاقاتنا داخل صناديق الكادميوم، وحلّلت بعض ألغازنا. لا بأس. الآن جئنا إليكم مباشرة، نريد أن نتحاور

معكم، نشرح لكم كل شيء. راجين أن نتعاون معاً للوصول إلى إيقاف للقتل والتدمير الذي يستمر ضد أخوتنا.

- وإن كنت لا أعرف تفاصيل ما تقوله ولا أستطيع أن أخمّن ولكن لا بأس.

- نحن كنّا نعيش على القمر، تحت سطحه. منذ نحو اثني عشر ألف عام من أعوام كوكبكم.

- ومن أين أتيتم إلى القمر؟ وهل بدأتم حياتكم عليه؟ أم؟.

- انظر إليّ جيداً، ماذا ترى؟

- أنت تشبهنا، أنت بشريّ من أبناء جلدتنا؟

- كنّا نعيش على الأرض في قارة كبيرة كانت نموذجاً فريداً لتطوّر الإنسان.

- قبل أكثر من اثني عشر ألف عام؟

- نعم. كنّا نشكّل مجتمعات متساوية تعمل للعلم والتطوّر ويحكمها السلوك الإنساني في أفعالها، وكنّا سعداء بالتعاون الكبير الذي يجري بين بني جنسنا، حتى أتى ذلك اليوم الذي دخل فيه الغرباء إلى أكبر مدننا (تانيس).

- كأنك تتحدّث عن إحدى قارّات الأرض المختفية، أقصد قارة اطلانطيس.

- لا أعلم عن ماذا تتحدّث، ولكن قارّتنا كانت بين بحران متطاولان، كنّا جزيرة ضخمة تحيط بها البحار من كلّ جانب ويحصرها من الشرق والغرب بحران يتلاقيان في الشمال والجنوب.

- نعم. ودخل الغرباء مدينتكم الضخمة (تانيس)؟

- كانوا غرباء بسحنات عابسة، طلبوا منّا العون والحماية من مخلوقات شوهاء تطاردهم. سوف أعرض عليكم مشاهد من تاريخنا البعيد مازلنا نحتفظ به كوثيقة لتاريخنا البعيد.

-٤-

رأى ناهض ولمى وهيام أشكالاً من غرباء يرتدون أردية طويلة ويستر بعضهم وجهه، قال من بدا كبيرهم:

- يا أهل هذه المدينة الجميلة. نريد عونكم.

- من أنتم وماذا تريدون؟

- نحن مجموعة من مساكين هذا الكوكب نلتمس الأمان بينكم.

قال المسؤول عن حواجز الدخول:

- وكيف دخلتم مدينتنا؟

- لم ترفضنا الأجهزة، دخلنا ببساطة.

- اسمعي يا دانا، تحقّقي من الأمر، كيف جرى ذلك؟

قالت الفتاة التي بدت المسؤولة عن أجهزة الدخول:

- سأفعل يا سيدي.

عاد الغريب يتوسّل:

- نتوجه إليكم بالنداء الحارّ، أن تساعدونا. وتنقذونا من الهلاك.

- وكيف سنساعدكم، ولم تدخلوا مختبراتنا، وتخضعوا لاختبارات الحياة معنا؟ ليست العملية سهلة يا سيد.

- اسمع يا كبير القوم، اتركنا نعبر إليكم ونعيش معكم، ونتعاون معاً في الحياة المشتركة، وإلا سترى شيئاً آخر منا.

- تهدّدني؟ اقتربت منه إحدى الغريبات وفجأة ضغط على زر قربه وهو يتلوّى:

- اسمعي يا هيلا. أنا. أنا آه.

سقط الرجل باحتشاء قلبي، قالت الغريبة:

- لقد مات.

- أحسنت غرس الإبرة الصغيرة في عنقه. لم ينتبه أحد.

قال بصوت عال:

- مسكين هذا الرجل. كان سيساعدنا.

جاءت هيلا على عجل وهي تصرخ:

- سيدي. سيدي. أرسلوا سيارة إسعاف بسرعة. سأحدد لكم الموقع.

قال الغريب: - لا فائدة الرجل مات.

جاء أحد مسؤولي الحاجز، سألته هيلا:

- وماذا سنفعل الآن يا سيدي؟

- سنرى لا تتعجّلي.

أشار بيده بسرعة ليأتي جنود مدجّجون بالسلاح أحاطوا بالغرباء، الذين كان عددهم يزيد عن عشرين بين رجل وامرأة، ومعهم صناديق كانت تحمل أشياءهم وحوائجهم. وبدأ التحقيق الفوري معهم. قالت هيلا:

- تحقّقنا من البوّابات، لم يدخل أحد منكم عن طريقها. من أين دخلتم؟

- يا سيدتي، نحن نحتاج العون. نحن فقراء مساكين، اضطرتنا الظروف للهرب من مناطق معيشتنا، وقد اضطهدونا في كل مكان.

- من الذي اضطهدكم؟ وعمّن تتحدّث؟

- كل سكان المناطق الأخرى اضطهدونا، وضعونا في أقفاص، في مغاور، حتى انقرض بنو جنسنا.

- انقرض بنو جنسكم؟ عن أي جنس تتحدّث؟ ألستم بشراً؟

- أقصد انقرضت قبيلتنا، ونحن من قبيلة مختلفة عن كل قبائل الأرض.

- أتسمعين يا (دانا)؟ كأن بدائيتهم العدوانية، تنفّر الناس منهم. يجب أن نختبرهم جيداً، وأن نعلم من أين تسلّلوا بهذا العدد. وربما كان هناك آخرون قد يظهرون في أية لحظة.

- نعم. نعم. معك حق.

- وكيف دخلتم إلينا؟

انبعثت صرخات تحذيريّة:

- دانا. انتبهي. قولي للحرّاس أن لا يطلقوا أحداً منهم من قيوده.

- أردنا أن نطبّق قوانيننا عليهم، بعض قيودهم فكّت عن أيديهم.

- لا. لا. انتبهي. دانا، يا بنتي، إنهم غدّارون انتبهي جيداً.

انفجرت بالبكاء:

- كأني أسمع صوت معلّمي الحكيم، قتله الأنذال أشعر أنّ طيفه يدور حولي، أشعر به يختلج متمايلاً.

قالت هيلا:

- ما بك يادانا؟

- صوت الحكيم يحذّرني منهم. ما زال طيفه يرفرف حولنا.

صرخت هيلا:

- قيّدوهم جيداً، وليرسفوا بالأغلال الثقيلة.

- لماذا يا فتاة؟ لم نفعل شيئاً لك.

انبعث صوت بالميكرفون:

- توفّي الحكيم نتيجة إبرة بدائية سامّة اخترقت رقبته. هذا هو التقرير الأخير.

صرخت هيلا بحزن:

- قتلتموه يا أنذال.

ولكنّها بدأت تتشنّج كمن يختنق، صرخ كبير الحرّاس:

- يا حراس، أطبقوا عليهم جيداً. يبدو أنهم اعتدوا على **(هيلا)**.

غمغم الغريب بتشفّ:

- وسنقتلك أنت أيضاً.

نفخ في قصبته إبرته السامّة، صوب دانا:

- أيها الوغد. تعال هنا. كدت تصيبها بالإبرة الصغيرة.

صرخ بالحرّاس:

- أحيطوا بهم جيداً، واهبطوا بهم إلى زنزانة الرعب.

كانت دانا تبكي:

- مسكينة هيلا. تشنّجت وماتت.

كان زعيمهم يضحك ساخراً، دون أن يبالي بما يجري حوله:

- تبكينها؟ ستكون لنا الغلبة في النهاية.

- اخرس أيها الوغد.

-٥-

أكمل لمار الحكاية:

- أنزلوهم إلى زنزانة الرعب. ولم تكن زنزانة رعب بالمعنى الحرفي، كانت زنزانة يستجوب فيها الناس ويستخرجون المعلومات المطلوبة منهم بأساليب نفسية، دون أن يعرّضوهم للضرب أو الإهانة. كانت الأساليب في غاية الدقة.

سأله ناهض:

- وهل عرفتم من روايات أجدادكم كيف دخل أولئك الغرباء إلى (تانيس)؟ كيف دخلوا دون أن تعرفوا؟ دون أن ينتبه لهم الأمن؟

- دخلوا عن طريق البحر، تسلّلوا في مجموعات متفرّقة إلى شواطئ القارّة، ومن ثغرات النفايات التي لا يمكن لبشري أن يتحمّل سوائلها وروائحها وهي معالجة بمواد تحوّلها بالتدريج إلى مواد مفيدة في الصناعة.

- ألم يخطر ببال أجدادك الانتباه إلى أن هذه الثغرات قد تكون خطيرة، تتشكّل فيها خروقات أمنية؟

- نعم يا دكتور ناهض. ولكننا كنا نتعامل بنوع من الحساسية تجاه هؤلاء الغرباء. أعتقدناهم مساكين يحتاجون لعون إنساني.

- وماذا جرى بعد ذلك؟

- كانت لهم القدرة على التظاهر بالانهيار والمرض حتى لتعتقد أنهم على وشك الموت.

- وهذا ما جعلهم يخترقون المشرفين عليهم في السجن؟ ثم.

- نعم. نعم. وتسلّل بعضهم من جديد، واختفوا عن أعين المراقبين. ورغم البحث ومحاولات الملاحقة الدقيقة، لم نستطع أن نقبض على الهاربين من جديد. وساعد هؤلاء فيما بعد، أفواجاً قدمت من وراء البحار. من القبيلة نفسها التي كانوا يزعمون أنها تتعرّض لاضطهاد من بقية القبائل. وأرسلنا رسلنا إلى القارّات الأخرى لمعرفة أصلهم ومنبتهم، وأفعالهم، حتى نقاومهم. ونتلمّس امتداداتهم.

- قصة مثيرة فعلاً. كأن التاريخ يعيد نفسه.

- ماذا أقول يا دكتور! عندما عاد بعض من أرسلناه لتقصّي الحقائق قدّموا لنا تقارير في غاية الرعب. فهم يتظاهرون بالمسكنة، والاضطهاد ثم

يتسلّلون إلى المواقع المهمّة في القبائل، وينخرونها من الداخل حتى تقع النزاعات الصغيرة والحروب، وهم ينظرون بتشفّ لكل مظاهر القتل والوحشية التي أضرموا نارها بين الناس. آه. حتى كان ذلك اليوم.

* * *

اجتمع قادتنا في ذلك الزمن السحيق وهم في مرحلة من اليأس القاتل:

- أمعقول أن نصل إلى هذا الوضع السيّء؟ بدأت حضارتنا تتدهور، والناس ينقسمون على أنفسهم. ولم نعد نتطوّر كما كنّا من قبل. ازدادت المنافسة على صنع السلاح المدمّر بين أقاليم القارّة، واعتزل كل طاغية بإقليمه، ووضع جيشه المدجّج بالموت على حدود إقليمه.

- أرى شيئاً خطيراً سيقع، آه. مَنْ أولئك الأنذال.

- تغلغلوا حتى سيطروا على حكّام الأقاليم وبدأت شرورهم تخترق كل البناء الحضاري المسالم الذي بنيناه منذ مئات السنين.

- لهم قدرة كبيرة على التغلغل والخداع والوسوسة بأفكار شيطانية وتدمير الآخر، دون أن يصيبهم أذى.

- يجب أن نقاوم الخراب. يجب أن نقاوم الخراب وإلا انتهينا.

- والوضع شديد التعقيد.

بدؤوا يستمعون لتقارير مختلفة:

- رأيت الوغد. كان يضع قنبلة قرب المقهى.

- حاصروه. لن ندعه يهرب.

- أبطلوا مفعول القنبلة.

- أيها الناس. لا تدعوه يهرب.

- يا إلهي. يبدو أنهم سريعو الحركة، والدمار قادم.

عاد لمار يروي كيف تعقّدت الأحداث:

- أصبح الغرباء هم السادة. وارتفعت طاقة الشر. كان وضعاً غير معقول.

-٦-

كان لمار ابن قارة اطلانطيس يحكي للدكتور ناهض كبير خبراء الأتمتة على المحطّة القمرية. عن مأساة القارّة. وكان ناهض يستمع إليه مدهوشاً:

- هذا سرّ الخروقات الأمنية التي تجري عندنا. وهذا يفسّر الكثير أيضاً، من الألغاز التي لا نعرف شيئاً عنها وعن غموضها. وما العمل الآن؟

قال لمار:

- سنتصدّى لهم معاً. أعدكم.

قال لهم ذلك وبدأ يختفي، بعد أن دخل في نور ساطع مبهر.

قال ناهض معلّقاً:

- كأنه تحوّل إلى طاقة، هو كائن فريد من حضارة منقرضة فريدة كانت موجودة في القارة الغارقة في الأرض. يا إلهي.

- وماذا سنفعل الآن يا سيدي؟

- سنبحث عن الأشرار وعن النتائج السلبية التي تظهر لدينا، في كل مكان أحياناً، دون أن نعرف عنها شيئاً.

- وكيف سيكون ذلك؟ يبدو الأمر شبه مستحيل.

قال وهو يهزّ رأسه:

- بل إن الأمر أصبح مفهوماً، وميسوراً لخوض المعركة.

كان يثق بهيام ولمى. فهمس لهما بهواجسه وتمكّن من أخذ وعد منهما بالعمل على كشف الطاقات الشرّيرة والتصدّي لها وإعلامه بكل النتائج.

وتذكّر حلمه الغريب، وكيف خاطبه الصوت المجهول بقوله: «أنا سيّد العالم، وأنتم ضعفاء أيها البشر».

وبينما هو في أفكاره المشحونة بالقلق. سمع أزيزاً من جهاز المخاطبة.

- دكتور ناهض.

- نعم. مَنْ المتكلّم؟ أنا لا أرى صورتك على الجهاز.

- أنا أحد مساعدي لمار. طلب منّي الدخول إليك لمقابلتك. أحمل رسالة لك.

- رسالة؟ أي نوع من الرسائل؟ ولِمَ لم يأت هو بنفسه؟

- إنه يحاول الوصول إلى حلّ لإيقاف طاقات الشر عن الاستمرار في خرقها لشبكاتكم الأمنية.

- لا بأس يمكنك المجيء لمقابلتي؟

- حسناً أنا قادم.

ورأى ناهض فجأة ضوءاً كشّافاً يظهر في جهاز البث. وصرخة أشبه بأنين بشري، ثمّ سقوط جسم، وصوت مساعدته يرتجف من الألم:

- آه. إنني أموت.

هتف يسأل:

- ماذا حصل؟

سمع قهقهة ساخرة:

- قتلنا مساعدتك يا ناهض. وسنأتي لنمسح ذاكرتك ونركّب لك ذاكرة جديدة.

صرخ بقوّة وهو يقاوم قوى مجهولة تأتيه من كلّ جانب:

- لا. لا. لن يحدث ذلك أبداً.

ظهر له ذلك الوجه الشيطاني المرعب وهو يردّد بسخريّة:

- الآن سندخل إلى ذاكرتك.

كان يقاوم بقوّة خارقة:

- لا. لا. لن تستطيعوا فعل ذلك أبداً.

صرخ الوجه الشيطاني بسخرية:

من خلال موافقتك الشفهية دخلنا على الأجهزة وجئنا إليك. ستصبح تحت رحمتنا، ونصليك العذاب الشديد إن لم تسايرنا وتستمع لنصائحنا وتعمل بها. أنت لا ترى إلاّ وجهي سأظهر لك الآن.

ظهر له بشكله الممسوخ بكلّ قبحه! ردّد ناهض برعب وهو يرتجف:

- يا إلهي ما أقبح شكلك، تبدو بشكل شيطان حقيقي.

شعر ناهض أنه يسحب من جسده وأنه يطير عبر نفق مظلم وآلاف الأصوات المخرّشة للأذن تكاد تقتله. صرخ المسخ:

- شيدرا. شيدرا. أين أنت؟

- أنا هنا يا سيدي. جئت من الأرض الموعودة بسرعة البرق لألبّي رغباتك وأوامرك.

- وكيف تركت الناس هناك؟

- طردوا ما تبقّى من السكان وأصبحوا الآن مستقلين بدولتهم وقد دفعت الحكومات المحيطة إلى المبتزّين منّا أموالاً طائلة.

- عظيم، اسحبي هذا المخبول إلى كرة الموت المظلمة.

ردّدت وهي تضحك:

- كرة الموت المظلمة؟ هذا سينهي حياته بسرعة. أو يتحوّل.

- نعم. وقد يصبح صاحب العقل الراجح، بليداً أبلهاً بعد ذلك. هذا هو التحوّل الذي نسعى إليه يا سيّدي. طاقته تبدو صامدة حتّى الآن، حاصروه بالمناظر المؤسية.

رأى ناهض مشاهد كادت تقتله، لأطفال مشوّهين، ومجازر مرعبة لنساء وشيوخ، وجنود موتورين يزرعون الموت في كل مكان. وسمع صرخات ونواح الثكالى والمفؤودين.

كانت صرخات وتأوّهات مصحوبة بنداء استغاثة لرجال ونساء وأطفال:

- أرجوك لا تدعهم. يقتلون أخوتي. أمّاه. لا. لا.

- لم يتركوا أحداً إلا وشوّهوه بأسلحتهم البربرية. قطّعوا يديّ. ورجليّ. آه.

- أرجوك يا عم. أبعدهم عنّا. إنهم أشبه بالديدان.

- كيف سأعيش بلا أطراف.

- ولدي. ماذا فعلوا بك وبأخوتك؟ أنذال الشرّ قاتلهم الله.

- إنهم يزرعون الموت بشكل مرعب. آه يا إلهي.

- أنقذ ولدي. أبعده عن المجزرة. القتلة في كل مكان.

جمهرة من الناس المعذّبين ترمق ناهض بنظرات حاقدة:

- قالوا لنا إنك المسؤول عن هذه المجازر. أنت لا تنتمي لهذه الأرض.

صرخ:

- أنا؟ معاذ الله.

توسّلوا إليه:

- استمع لهم ولبِّ مطالبهم سيتركوننا.

قاوم بقوّة:

- هي أوهام، مشاهد غير حقيقية، تعرضونها أمامي لابتزازي. ولكي أرضخ لمطالبكم.

قال المسخ:

- أرِهِ يا «شيدرا» إذن ما ينتظره من عذاب إن لم يستسلم.

ورأى ناهض مشاهد أخرى كان هو بطلها، كان يتعرّض لكل أشكال التعذيب، وهو يتألّم لدرجة فظيعة:

- أريده أن يستسلم مهما كلّف الأمر.

صرخت «شيدرا»:

- ادخلوا الصناديق أيها المتوحّشون.

ولكنّ شيئاً خارقاً كان يحدث لـ «شيدرا»:

- ما هذا؟ ماذا يحدث لي؟

كانت لمى تصرخ:

- حافظ على قوة الطاقة يا بدر، واستمر في اصطياد طاقاتهم الشريرة.

سمع ناهض أصواتاً صاخبة مصحوبة بأصوات انفجارات صغيرة وبدر يردّد:

- إنهم يحاولون الخروج من دائرة الطاقة التي تحاصرهم.

- لا تدع لهم مجالاً للهرب.

انفجرت «شيدرا» تضحك:

- تحرّرتُ من دائرتكم، وسأحرّر باقي رفاقي.

شهقت لمى مذهولة:

- كيف تمكّنت من ذلك؟

قال بدر:

- يا إلهي. لا. لا. إنها تكوّن طاقة حرارية هائلة.

صرخت لمى:

- ابتعد يا بدر. ابتعد، يجب أن تنفلت من حصارها.

- لن يتمكّن. نحن الأقوى.

قال معاون بدر:

- سأساعدكِ يا سيدتي، شرط أن تكافئيني بالعمل في خدمتك.

- لك ذلك، دمّر تماسكهم.

غمغمت بسخريّة:

- سيكون أحد ضحايانا المساكين.

لم يشعر إلاّ والآلام تخترقه:

- ماذا تفعلين لي؟ لماذا؟ آه. وعدتني.

قالت ساخرة:

- لا تثق بوعودنا. أنت لا تنتمي لزمرتنا، ولست أكثر من عبد، أو وسيلة نستخدمها متى نشاء. واستخدمناك كضحية فقط.

كان الرجل يتألّم، قالت مشيرة لبدر:

- أردت قتلي، فقتلت واحداً من رجالك من بني جنسكم.

غمغمت لمى وهي تبذل جهدها:

- هو خانع ذليل لا ينتمي إلينا. هيا يا بدر.

- آه يا لمى. الطاقة تزداد، أصبحت منهكاً، ماذا أفعل؟ يا إلهي.

ولكنّ صوت لمار وصل للجميع:

- الآن أصبحتِ تحت السيطرة أيتها القاتلة.

كانت «شيدرا» تصرخ بألم:

- آه. لا. لا. لا

قالت لمى بفرح:

- أيّها القائد لمار. أهلاً بك بيننا، في مقاومة الشر.

- جهّزتُ الكثير من الفاعلين من أبناء قومي لمحاربة الشر معكم. ولن أنسى ما فعله أجداد هؤلاء من تدمير لحضارتنا وقارتنا المفقودة.

- الدكتور ناهض غائب عن الوعي.

- سنحاول إعادته لوعيه.

- الحاسوب الآلي، يؤكّد أنه يعاني من الخوف من الاستيقاظ.

- قد لا يرغب في الاستيقاظ ليقينه أن الأشرار ما زالوا يزرعون الرعب.

- وكيف سنُدخل إلى عقله المعلومة المعاكسة، بأننا طردناهم ولم يعد لديهم وجود.

- لا تقلقي. هذا هو عملي.

كان بدر يصرخ متألّماً:

- آه. أشعر أنني مشلول.

- سننظّفك يا بدر من الطاقة السلبية التي تركوها عليك.

-٥-

كان ناهض في عالم آخر يعاني من وطأة الكابوس المرعب.

«كأن هناك أنفاقاً مظلمة من حولي. أحدهم يدفعني لألج في إحداها».

- استيقظْ يا ناهض. الأشباح التي تراها غير حقيقية. وغير فاعلة.

كان ناهض يتقلّب:

- وماذا أفعل يا لمار. لا أستطيع.

- استمعت مطولاً إلى قصتي، ألا تثق بي؟

- نعم. أثق بك. رأيت كلّ شيء في عالمك وعشته وأنا أثق بك.

- إذن استيقظ. هيا.

قالت لمى:

- إنه يحاول، ولا يستطيع. كأنّه مشلول.

قال لمار:

- هي طاقة حبسته داخلها سنخرجه منها لا تقلقي.

وخلال دقائق، خرجت من (ناهض) كتلة لامعة، انطلقت بعيداً كالنار متحاشية أن تمسّ بنارها أي جسم قابل للاشتعال. صحا وهو يبحلق حوله ذاهلاً:

- أين أنا؟

- حمداً لله على سلامتك.

- لمى أنت هنا. لم ينته الشر بعد، أين لمار؟

- أنا هنا يا ناهض. أراقب الوضع، وأعيد نظام شبكات الحماية الأمنية إلى الوضع الممتاز. حتى لا تتسلّل طاقات شريرة أخرى إليكم من جديد.

كانت هناك أصوات غامضة، سأله ناهض:

- ماذا يجري؟

- نحن نلاحق طاقاتهم الشريرة التي اخترقت جو القمر وأرضه. ونطردها من هنا. قبل أن تقضي على حضارتكم كما قضت على حضارتنا من قبل.

تقلّب وهو يحرّك جسمه:

- أشعر أنني تخلّصت من الكوابيس التي كانت ترهقني. أين هيام؟

قالت لمى بحزن:

- قتلها الأشرار.

قال لمار:

- ولو لم تعرفي كيف يكون التصرّف البارع، لأصابوك أيضاً، عدت مسلّحة بالطاقة مع بدر وقاومتهم.

قال ناهض متنهّداً بحرقة:

- بارك الله فيك يا لمى، ورحم الله هيام.

قال لمار:

- قبل أن أذهب بعيداً. سأفسّر لكم سبب وجود كائنات وبعضها يتسلّح بطاقة غريبة غير مفهومة حتّى بالنسبة لنا أحياناً.

- نعرف قليلاً عنها. سنستمع إليك ونتشارك ببعض المعلومات.

انبعث صوته يتحدّث بلغته المفهومة:

- نعلم أنّ النظريات الفلكية الحديثة تتحدّث عن وجود كون آخر مضاد لكوننا. وهذا الكون المضاد يحوي مادة مضادّة، تختلف عن المادة العاديّة، من أنها تتكوّن من ذرّات تحتوي على نواة سالبة، تدور حولها إلكترونات موجبة. بينما في المادّة التي تعرفونها، هناك ذرّات تحتوي على نواة موجبة تدور حولها إلكترونات سالبة.

- وعند ولادة الكون قبل نحو (١٥) مليار سنة، حدث الانفجار الأعظم. وهذا الانفجار الأعظم لكتلة هائلة الكثافة، نشر كميّات متساوية من المادة ومن ضد المادة في كل اتجاه. وبين المادة المعروفة، انتشرت ضد المادة، ثم بدأت تختفي بالتدريج. وربّما يعود سبب اختفائها إلى التحامها بمادة، التحاماً كلّياً، جعل كلاً منهما (المادة وضد المادة) تختفيان، وتنطلق طاقة هائلة. فحين التحام ذرّة مادّة مع ذرّة مادّة مضادّة، تفني الذرّتان بعضهما وتنطلق طاقة من هذا الفناء التام.

- وأزيد على هذه المعلومات أنّه ربما انفصلت مع الزمن المادّة مع بعضها، وضد المادّة مع بعضها لتشكّل كلّ منهما كوناً مستقلاً، كون من مادة، وكون من ضد المادة. وهذه النظرية تداعب الخيال، بأن يكون لكل منّا نظيره في الكون الآخر. وكل منا يملك ضده.

- وفي الحياة تتلاعب الأفكار المتضاربة في داخل الإنسان، لينتصر بعضها على الآخر، تماماً كما في حالة صراع البشر مع بعضهم. سبحان الله.

- بين هذه الأكوان تنطلق الطاقات وتتداخل بشكل معقّد غير مفهوم. وقد درسنا الكثير من هذه التفاصيل العلميّة الشيّقة.

- نحن نحتاج كثيراً للاستعانة بكم في تطوير علومنا. أيمكن أن تقدّموا لنا بعض العون في ذلك؟

- لا بأس سنجهّز لذلك مجموعة من علمائنا للمساهمة في تطوير معارفكم. سنكون سعداء بذلك.

كانت عمليّة بدأها لمار ومن معه في سبيل الاختلاط بالبشر والتعرّف على أسرارهم وإعطاء معرفة جديدة قد يحتاجونها في أزمانهم المقبلة.

* * *

الفجر الرمادي

-١-

تمرُّ السنوات يا فارس، وأنت ما زلت تطارد خلف سرابك، تحاول أن تحقّق ذاتك في تلبية طموحاتك في مساعدة الغير والإخلاص لمبادئك، والإبداع في كتاباتك، حتى أصبحت هذه الكتابات بشخصياتها الأسطورية جزءاً من حياتك.

تجلس على شرفة منزلك تتأمّل المدينة المزدحمة وأنت في تلك المنطقة من سفح الجبل تطلّ على مساحات شاسعة من الأحياء المفروشة ببيوتها وأزقّتها وشوارعها الواسعة أحياناً.

اعتدت على الوحدة والتأمّل ورفضتَ كل ضغوط الأقارب والأصحاب عليك لتتزوّج وكنت تردّد دائماً قول أبي العلاء.

هـــــذا جنـــــاه أبي عـــــلي وَمـــــا جنيـــــتُ عـــــلى أحـــــد

تمتد العتمة أمامك، وتبدأ المصابيح في الإنارة لتتحوّل إلى وهج يضيء سماء المدينة، وتسرح بك الذكريات تستعرض علاقتك بهذه المدينة التي تعشقها، وتعشق حواريها وأزقّتها الضيقة، وأناسها على اختلاف أهوائهم. وتسمع طرقاً على الباب. فتنهض بتثاقل. وتفتح الباب كانت صبيّة تحمل رضيعاً بدت عليها اللهفة:

- الدكتور فارس؟

- نعم. خير؟

- ابني مريض، عجز الأطباء عن معرفة مرضه، قيل لي أنك تتمتع بقدرات خارقة. جئتُ إليك لتعرف مرض ابني، أو تساعد علاجه.

- ربما أخطأت العنوان يا سيدتي، أنا مختص بعلم الفلك ولست طبيباً. ثم من قال لك أنني أتمتّع بقدرات خارقة؟

انفجرت تبكي:

- أرجوك أنا في حالة يرثى لها، وقد دلّني عليك أناس أثق بهم.

- وماذا أستطيع أن أفعل لك؟

حاول أن يتهرّب منها. تبدو مشكلتها صعبة كما قرأ من وجهها.

- تستطيع أن تفعل. هكذا أكّدوا لي، أرجوك. أنا في وضع غير مألوف.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. أنا لستُ ساحراً! ولا أتمتّع بقدرات خارقة كما وصفوني لك. إن كانت مشكلتك غير مألوفة، قد لا أستطيع أن أساعدك.

- حاول أرجوك. سأحكي لك القصة.

- لا بأس. أمري لله، تفضّلي.

أجلسها في الصالة، وهي تحضن طفلها الذي بكى قليلاً ثمّ استكان في حضنها:

- أتحتاجين لشيء؟ ماء طعام، لديّ بعض الحليب في الثلاّجة.

- لا أريد شيئاً. فقط استمع إليّ.

- لا بأس، تفضّلي أسمعيني قصتك.

تنهّدت بحرقة، وهي تحضن الطفل بحرص:

- منذ أن حملته في بطني. وهو يعاني، وقعت على الأرض مرّتين في أشهر الحمل الأولى، دون سبب، لم أتعثّر بشيء، ولم أشعر بدوار، ولكني وقعت دون سبب وتعرّضتُ لنزف شديد، ولولا مساعدة والدي لي لكنت خسرتُ هذا الطفل البريء.

بدا الطفل يبكي، وهي تحاول تهدئته، سألها:

- وأين زوجك؟ لماذا لم يأتِ معك؟ وأين تعيشين؟ وماذا يعمل والدك؟

- لا بأس سأحاول إجابتك عن كل التساؤلات التي قد تخطر ببالك.

- لا بأس، سأهدّئ رضيعك بطريقتي، ولكن استمرّي في حديثك لن أقاطعك إلا بشكل استثنائي.

- حسناً يا دكتور.

نجح فارس في تهدئة الطفل الرضيع. بعدما مرّر أصابعه فوقه للحظات. وقد شعر أن شحنات من الطاقة تحوم فوق الصغير.

وبدأت المرأة الغريبة تحكي لفارس قصّتها:

كنت صبية تتعشّقها العين، وحيدة لوالدي بين مجموعة من الصبيان، نشأت مدلّلة، وقد كان والدي يحبّني كثيراً ويتركني أفعل ما أشاء لولا تدخّل والدتي وشجارها معه:

- أنت تفسد البنت بدلالك يا سامح، حرام عليك.

- ألا ترين كم هي ذكية ومهتمّة بدروسها وثقافتها؟ سيكون لها مستقبل باهر إن شاء الله.

- ولكنها لا تعرف شيئاً عن الطبخ والنفخ والغسيل وأعمال البيت الأخرى. وهي في السادسة عشرة.

- هذه أمور ليست صعبة. عندما تقرّر القيام بها ستتعلمها بسرعة. هادية فتاة غير عادية يا نهى، أرجوك لا ترهقيها بحصارك لها، اتركيها على راحتها، ستتعلّم ما ترغبين أن تتعلّمه حين يحين الأوان.

- كما تشاء يا سامح. أتعبتما قلبي أنت وهي.

«كانت رغبة والدي أن يزيد من ثقافتي ومعرفتي، وكأنه يحضّرني لأكون ما عجز عن أن يكونه، فقد كان كثير الثقافة والمعرفة، له آراء في الحياة ورسالتها وأهدافها تختلف عن كثيرين. ولكنّي كنت أشعر أن شيئاً ما كان ينقصه:

- الحياة يا ابنتي ليست زماناً نمضيه ونحن نأكل ونشرب ونلهث وراء المتعة، لها مهام أخرى شديدة الأهمية وصعبة. من بينها وضع أسس ومعطيات ومهام وأهداف لها جوانب إنسانية، تتعلّق بالآخرين والتعامل معهم وعونهم. واكتشاف العالم وفهمه وتوسيع دائرة هذا الفهم باستمرار».

وروت هادية كيف سارت حياتها في الاتجاه الذي رغبه والدها. كانت متفوّقة في دراستها، تفوّقاً لفت نظر الكثيرين الذين كانوا يتابعونها وخاصة بعد أن دخلت الجامعة في كلية العلوم لتتابع دراستها في علم الحياة كما كانت تحلم من قبل.

وحين تفوّقت في كلية العلوم أرسلتها الجامعة للاختصاص في جامعة في دولة متطوّرة. وفي تلك الأثناء اخترق حياتها حدث لم يكن متوقّعاً أبداً.

كانت تجلس في شرفة منزلها المطل على حديقة الجامعة مع صديقتها سوزان حين رأت لمعاناً في السماء:

- انظري يا سوزان ألا ترين؟ ذلك اللمعان هناك في الجهة الغربية.

- إنه أشبه بشهاب يندفع من السماء. كأنه يضمحل.

ولكنّ صوتاً قويّاً لاصطدام جسم بالأرض وصلنا فانتابنا الخوف. قالت سوزان:

- ربما كان نيزكاً. إنه في الجزء الشرقي من الجامعة. في الغابة النموذجية.

قلت متحمّسة:

- ما رأيك لو ذهبنا إلى هناك؟

- ألا تشعرين بالنعاس؟ إنها الثانية صباحاً.

- أعتقد أن حدثاً غير عادي ربما يحدث في الغابة الآن. أقصد في الغابة النموذجية للجامعة.

- تريدين الذهاب إلى هناك؟

- ما رأيك؟ لنذهب سوية.

- لا بأس. أنت تحبّين المغامرة يا هادية، وربما توهمنا شيئاً قد لا يكون موجوداً، على كل حال لنذهب إلى هناك.

ذهبنا نحو الغابة النموذجيّة للجامعة، كان كلّ شيء من حولنا هادئاً، وأضواء البروجكتورات تضيء مساحات واسعة وتنفذ من خلال أشجار

الغابة، سمعنا صوتاً خلفنا، جمّد الدم في عروقنا، التفتّ لأجدّ رجلاً يرتدي زي الحرّاس الليليين، قلت بصوت خافت أهدّئ من خوف سوزان:

- إنه أحد الحرّاس الليليين، لا تخافي.

قلت موضّحة وبلهجة هادئة:

- نحن نتمشّى. تعبنا من الدراسة، أنت هنا منذ زمن؟

- منذ نحو ربع ساعة، مع تبديل الورديات.

- كل شيء على ما يرام؟ ألم تلحظ شيئاً غير عادي؟

- لا. لماذا تسألين؟

قلت بارتباك:

- لا شيء.

- آه. لا بأس. ستدخلان إلى داخل الغابة؟

- ربما الغابة مضاءة. ثم إننا لا نخاف.

- ولماذا الخوف كل شيء أمان هنا؟

استأذنّاه في الذهاب وما إن ابتعدنا عنه قليلاً، قالت سوزان:

- كيف نفتش في الغابة ما دام الحارس لم يرَ شيئاً؟

- ولكننا سمعنا صوت سقوط جسم ضخم هنا. ربّما سمعه الحارس البديل، ولكن لأنورديته انتهت أهمل البحث في سرّه. والحارس الجديد يبدو أنه لم يرَ شيئاً. ولم يسمع شيئاً. هيّا نتابع طريقنا إلى قلب الغابة.

* * *

تابعت هادية حكايتها: دخلنا عمق الغابة وفتّشنا كثيراً:

- غريب، لا أثر هنا لسقوط جسم.

- أتعتقدين أنه كان ضخم الحجم، كجسم طائرة مروحية؟

- أعتقد أنه أكبر حجماً من ذلك.

فتّشنا الغابة بدقّة، ولم نرَ شيئاً. وفجأة سمعنا أصواتاً، تصدر عن أجهزة إلكترونيّة، ثمّ ميّزنا صوت امرأة وصوت رجل يتحادثان كانت المرأة تتأوّه متألّمة، وكانت اللغة التي تتحدّث بها غريبة، حاولت أن أعرفها عن طريق استعراض كلّ اللغات المعروفة في أرشيف جوّالي فلم أصل لشيء.

* * *

كان اصطدام المركبة الغريبة شديداً بالأرض، تساءلت المشرفة الغريبة:

- كيف حدث ذلك يا بني؟

- لا أدري. يبدو أن دخولنا في مجال جاذبية هذا الكوكب بسرعة لم يستطع الحاسوب الآلي توقّعها، قد جعلتنا نسقط بهذه الطريقة. الحمد لله لم تتأثّر أجهزة المركبة.

- ولكني أشعر بالغثيان يا داميس. وأشعر أيضاً بوجع في ظهري.

- المهم ألّا يلحظنا أحد. سأعطيك دواءً يا أماه.

- أرجو أن أتحسّن، سأظلُّ في المركبة هنا في النفق الذي حفرناه في غابة الشجر هذه، حتّى لا يستطيع أحد أن يكتشف وجودنا. هل ستخرج؟

- نعم يا أمّاه. القضية التي جئنا من أجلها ليست سهلة.

- معك حق، انتبه لنفسك جيداً. سأتابعك بالأجهزة هنا. إن احتجت شيئاً اضغط أحد أزرار جهازك حسب الحاجة.

- حسناً يا أمي. سأفتح غطاء النفق بهدوء، وأخرج.

- يمكنك استخدام قواك الأخرى، في النفوذ إلى الأشياء، والتنقّل بسرعة.

- لا بأس.

-٢-

سمعنا صوت فتح باب بشكل آلي، فأصابنا الذعر، ولكنّ صوتاً ما كان يتقدّم في اتجاهنا:

- أتسمعين؟

- ربما كان أحد الحراس. لا أرى شيئاً.

لكنّ أمراً وصل لداميس عبر الأجهزة:

- داميس، حرّك أجهزتك لتتفاهم مع الفتاتين أمامك.

- لا تقلقي يا أماه.

وفجأة ظهر أمامنا شاب غريب:

- آسف. أرعبتكما؟

- ماذا تفعل هنا؟ أنت من الحرّاس؟

- لا. أنا زائر مثلكما.

- زائر؟ يبدو لباسك غريباً. كيف سمحوا لك بالمجيء إلى هنا؟

- أزور المركز العلمي هنا، أتحاور مع علمائه. أنا وزملائي.

- ومن أي مكان أنت؟ لست من هنا.

- لا. لست من هنا. هه، من أنتما؟

قلت:

- أنا أدرس الدكتوراه في علم الحياة؟ وصديقتي تحضّر الدكتوراه في الكيمياء الحيوية.

- تخصّصات مهمّة.

- وما هو اختصاصك أنت؟

- أنا أيضاً مختص في كشف الحياة الجديدة.

- كشف الحياة الجديدة؟ تقصد البحث عن الحيوات الجديدة؟

- شيء من هذا القبيل.

وفجأة سمعنا خطوات وراءنا وظهر الحارس الليلي:

- ما زلتما هنا؟ هذا زميل ثالث؟

- نعم.

- من أين جئت؟ لم ألاحظك. هه تحملون بطاقاتكم؟ أريد رؤية البطاقات من فضلكم. الساعة تقارب الثالثة صباحاً.

قدمنا له بطاقتينا أنا وسوزان، قال الحارس:

- أين بطاقتك أيها الشاب؟

- لحظة.

تأخّر لثوانٍ قبل أن يُخرج بطاقته، تفرّس فيها الحارس وأعادها

- حسناً، شكراً لكم. أرجو أن تعودوا إلى أمكنة إقامتكم. الوقت متأخّر كثيراً.

- حسناً، كما تشاء.

رنّ جوال سوزان، بدا عليها القلق، ثمّ قالت:

- آسفة، صديقتي لوريس في الشقّة جرحت يدها، مضطرة للذهاب حالاً.

- حسناً يا سوزان سألحق بك للاطمئنان عليها.

- لا بأس يا هاديا، نلتقي في الصباح.

بدا على الشاب الغريب الاهتمام، قال لي:

- اسمك هادية من هنا؟

- أنا من سورية من الشام.

- وأنا اسمي داميس. من مكان بعيد.

- يعني لست من هنا؟ لست ألمانيّاً؟

- لا. تعيشين وحدك؟

- بالطبع أعيش لوحدي في الشقّة - قريبة من المختبر - أنا أجري أحياناً تجاربي لساعة متأخّرة من الليل، اليوم قرّرتُ أن أستريح. وجدتُ الليلة هادئة صافية فخرجتُ أنا وسوزان نتمشّى.

- لا بأس. سأوصلك إلى شقّتك.

شعرت بجاذبية نحوه. ويبدو أنّه شعر بنفس الشعور، وسمعت صوتاً مكتوماً في سماعة أذنه، قلت:

- أحدهم يتّصل بك؟

- نعم.

كانت أمّه كانت توصيه بالحذر:

«تبدو مشوّشاً. قد تكشف الصبية أنك لست بشرياً».

حكى بلغة غريبة ثم سكت، وتابعنا مسيرنا إلى مكان إقامتي، واتفقنا أن نلتقي حين يسمح له الوضع بذلك.

* * *

«هكذا تعرّفت على داميس. ولست أدري كيف تعلّق أحدنا بالآخر دون أن أعرف شيئاً كثيراً عنه»، سألها فارس:

- كنت ترينه دائماً؟

- حين أرغب برؤيته، أراه أمامي. ولم أكن أعرف السبب.

- وتطوّرت علاقتكما؟

نعم. كان يزورني في المخبر، ويحُلُّ مشاكل علمية كبيرة كنت أصطدم بها أحياناً في دراساتي لعلم الحياة. وهذا ما زاد تعلّقي بمعرفته، وفي أحد الأيام، جاءتني أمه. كانت عجوزاً طيبة. طرقت عليّ الباب في الصباح الباكر. وحين فتحت الباب طالعني وجهها السمح المبتسم، قالت لي دون مقدّمات:

- أنا والدة داميس يا ابنتي.

- أهلا بك يا خالة.

تنهّدت وهي تتفرّس بي، ثمّ قالت:

- لم أكن أتوقّع الذي يحدث يا ابنتي. أنا خائفة عليك.

- لماذا يا خالة؟ خير؟

- اسمعي يا ابنتي ما سأحكي لك، سيدهشك، ولن يكون - ربما - مقبولاً لديك. رغم أنه حقيقي مئة في المئة.

- خير يا خالة؟ أقلقتني؟

- أنا وداميس غريبان عن عالمكم. جئنا من مكان بعيد، سقطنا بسرعة في الغلاف الجوي، تأثّرت مركبتنا، وأصبتُ بجراح.

- جئتم من خارج الغلاف الجوي؟ ماذا تقصدين؟

نحن من كوكب بعيد يدور حول نجمة تشبه شمسكم، تبعد نحو (١٢) سنة ضوئية! جئنا إليكم في زيارة اطّلاعيّة، على متن مركبتنا (الفجر الرمادي)، وقد هبطنا أنا وولدي بمركبة صغيرة لنكتشف شيئاً من عالمكم. وظلّت مركبتنا تدور حول أرضكم.

- أمعقول ما تقولينه يا خالة؟ تبدوان بشريين طبيعيين.

- لدينا قدرة على التحوّل، رغم أننا نشبهكم في أشكالكم إلا أن هناك خلافاً في تدويرة الرأس، وتوزّع الغضاريف والعظام في الجسم. وقد تأقلمنا تماماً مع أشكالكم. لدينا قدرة على حل المشاكل بسرعة قياسية بالنسبة لكم. وقد سقط ابني في فخ العشق، وهو ما لم نتوقّعه.

- أمعقول؟ أنتما من كوكب آخر بعيد؟

- نعم يا ابنتي هذه حقيقة. والمشكلة التي لم نتوقّعها هو أن داميساً مولع بك، بشكل غير مألوف لدينا. وأنت تحبّينه كما أعتقد.

- أشعر بالرعب مما تقولينه يا خالة. أنتما غريبان عن كوكبنا وعن.

قاطعتني وهي تهزّ رأسها:

- وعن التآلف بين الأقران، وهو ما قد يفشل مخطّطاتنا بالعودة إلى طبيعتنا. صمّم ابني داميس أن تتآلف بأشكالنا مع أشكالكم.

- يعني أشكالكم مختلفة عنا؟

- قليلاً، ولكن الشكل العام واحد، فقط كما قلت لك في بعض التفاصيل. الآن أصبحنا مثلكم تماماً. هذا ما رغبه ابني، وقد شعر أنه لا يستطيع الحياة دونك. ولكن هذا أنقص منّا بعض القدرات، قد لا نستطيع إعادتها من جديد.

- يبدو كلامك أشبه بالألغاز يا خالة.

- ليست ألغازاً، هو كلام من الصعب تصديقه، ولكنه ليس ألغازاً.

- وجئت إليّ لتنبهيني لما يجري حولي، وقد أصبح داميس جزءاً من دمي، لماذا لم يشرح هذا الموضوع لي من قبل؟

- كان خائفاً من ردّة فعلك.

- ولكني أحبّه حقيقة، وربما ازداد تعلّقي به الآن.

- اعتقدت أن العكس سيحدث. ما أكثر اضطراب أدمغتكم يا بني البشر. تجولت كثيراً في عوالمكم، ولم أرَ دماغاً سليماً، الكلُّ ينصب الشباك لغيره ويحيك المؤامرات، ويجري وراء المتعة على حساب العقل.

- وهل أنتم مختلفون عنا كثيراً؟ ألا يجري بينكم مثل ما يجري بيننا؟

- كنّا أسوأ من ذاك بكثير، ولكن عالمنا اختلف الآن، أصبح عالماً موحّداً، متجانساً، لا خطأ فيه ولا خطيئة.

وفجأة طرق علينا الباب، قلت لها:

- سأرى من في الباب يا خالة، ابقي هنا سأعود في الحال.

كان المدير العام لمركز البحوث يطلبني. ولّما سألت:

- ماذا يريد مني؟

- كأنه اجتماع شديد السرّية، لم يرضَ أن يستخدم الجوّال أو الهاتف للاتصال بك، ولا حتّى البريد الإلكتروني. أصرّ أن أقابلك وأخبرك برغبته.

- لا بأس لدي بعض الضيوف، عندما يغادرون، سآتي إلى المدير العام لمقابلته.

أغلقت الباب وعدت إلى ضيفتي أم داميس، فلم أجدها. كانت قد اختفت فجأة بشكل غير مفهوم. جلست أفكّر بقلق بما قالته، وهو بالتأكيد حقيقي وصحيح، ما الذي يمكن أن أقوم به وأنا مدلهة بحب داميس. يجب أن أراه حالاً. وكعادته طرق الباب عليّ حينما استدعيته تخاطرياً:

- أهلاً بك، لم تتأخّر.

- أنت قلقة وخائفة ولست على ما يرام، زارتك أمي؟

- نعم. وأخبرتني بما يجب أن أعرفه عنك.

- أنا أحبّكِ يا هادية، وليست لديّ القدرة على الحياة دونك، أريد الزواج منك. عرفتُ كلَّ شيء عنك، خضتُ في ذاكرتك والجانب الآخر من شخصيتك. بهرني صدقك وقدرتك على الإبداع.

- ولكنك من طبعة مختلفة يا داميس، وأخاف ألّا يكون زواجنا موفقاً، أقصد زواجاً يتعرّض لمشاكل أقوى منا بسبب التباين في فيزيولوجية كلّ منّا.

- درست كل شيء، وأعتقد أن لديّ القدرة على تذليل أية صعوبة مهما كانت كبيرة. لا تقلقي يا حبيبتي. على كل حال، أنت مدعوّة لمقابلة المدير العام للمركز، يمكنك الذهاب الآن، سنتحادث في المساء.

لأوّل مرّة يختفي عن عيني كما فعلت أمّه، ذهبت لمقابلة مدير المركز. وكنتُ شاردة وقد لحظ ذلك:

- اسمعي يا أستاذة هادية، أعلم كم تبذلين من جهد في سبيل أبحاثك. وأعلم الكم غير العادي للإنتاج الإبداعي العلمي الذي توصّلت إليه في فترة قصيرة.

ثمّ انتبه إلى شرودي فقال ضاحكاً:

- تفكّرين في حل مشكلة علمية استعصت عليك؟

- أنا بخير. لا بأس. لماذا استدعيتني يا دكتور؟

- المشرف العلمي قال إن ما فعلته حتى الآن، يعدُّ أكثر من كاف لنيل لقب الدكتوراه، وقد قرّبنا موعد المناقشة إلى الخامس عشر من الشهر القادم. هل أنت جاهزة؟

- بالطبع. شكراً لك، هذا خبر سار.

- ولكننا نرغب بعد أن تنالي الدكتوراه أن تظلّي بيننا، نوفّر لك ما ترغبين في سبيل متابعة إبداعاتك العلمية.

قلت بارتباك:

- ما زال الوقت مبكراً على ذلك يا سيدي.

- لا بأس، أعلم أنك ستقبلين عرضنا. يمكنك الاستعداد الآن من أجل توضيب أبحاثك للمناقشة ونيل درجة الدكتوراه في علم الحياة قريباً.

ضغط على زر بجانبه، فدخل سكرتيره، قال له:

- خذ الأستاذة هادية إلى رئيسة قسم المعلومات.

- للتنسيق من أجل المناقشة؟

- نعم.

ثمّ همس له بكلام تمكّنت من سماعه نتيجة تدريبات داميس لي لزيادة طاقة حواسّي. قال له:

- انتبه جيداً لها، لا تدع أحداً يكلّمها في الطريق.

- سأفعل يا سيدي، لا تقلق.

يبدو أن بعضهم كان يرى داميساً معي في المخبر، وقد أبلغ الإدارة فوضعت أجهزة جديدة للمراقبة عن طريق الكاميرات، ولحظت كيف يظهر ويختفي بسرعة كبيرة. قال فارس:

- أرادوا حصاره، والتضييق عليه.

تنهّدت بحرقة:

- أرادوا القبض عليه والتحقيق معه، ولكنهم كانوا خائفين من سرعة ظهوره، وسرعة اختفائه أحياناً. فنصبوا شباكاً حديدية، في المخبر وحول المخبر.

- وماذا حدث، هل نجحوا في القبض عليه؟

- كأنما شعر بذلك فاختفى عن الأنظار، ولم يظهر سوى في شقّتي، دون أن أعرف سبب إصراره على حل مشاكلي العلمية على الورق، وليس عن طريق التجربة في المخبر. وقد أخبرني فيما بعد عن ذلك.

تابعت هاديا كلامها:

«سألني: - متى تنتهي إقامتك هنا»؟

- حين أستلم الشهادة، وهم يحاولون ترغيبي في البقاء هنا للعمل معهم.

- وأنت لست مقتنعة بذلك، ولكنك خائفة أن تفقديني.

- نعم. أنت تقرأ أفكاري جيّداً.

ونحن في حديثنا طرق عليّ الباب، وحين فتحته كان هناك رجلان من أمن الجامعة ومهندسان خبيران بالتقنيّة:

- أستاذة هادية، قيل أنّ لديك ضيوفاً نحن نرغب بالحديث معهم.

- ضيوف؟ ليس لديّ ضيوف.

- عن إذنك. سنفتش البيت.

«وبالطبع لم يعثروا على شيء»! استيقظ الصغير وبدأ يبكي، قال فارس:

- يحتاج للرضاعة.

- نعم. تعذّب كثيراً.

- أرضعيه وستكملين لي حكايتك.

-٣-

أنهت هادية إرضاع الصغير الذي خلد للنوم، سألها فارس:

- وماذا حدث لك بعد ذلك؟ الصغير نائم الآن. يمكنك الحديث بهدوء وأنت مطمئنة.

كأنما وضعوا خططاً لاقتناصه، وكثرت الفخاخ، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك. وقد قرّرتُ بعدها الرحيل إلى بلدي. بعد أن أناقش رسالة الدكتوراه بأيام. لكنّ المسؤول عن المركز رفض الفكرة:

- ليست العملية سهلة يا دكتورة، ستعملين في المخبر لعدّة أشهر، لدينا بعض المشاكل والمسائل العالقة، ستساعديننا على حلّها.

- ولكني لا أستطيع، جامعتي بحاجة لي.

- حسناً، أنهي حلّ مسائلنا ومشاكلنا العلمية العالقة وسنسمح لك. ثم إنني أرغب بالتعرّف عليه، على حبيبك الشاب الغريب الذي دوّخنا، فلم نستطع اقتناصه.

- ماذا تريدون منه؟ لماذا أنتم تسعون وراءه؟

- رجل شديد الذكاء، يساعدك في حل المسائل العلمية المعقّدة.

- ربما كان ذلك، ولكن لماذا تبحثون عنه؟ لا أعتقد أنه سيعمل معكم، هو ليس من هنا، يزور المنطقة فقط، وقد رغب في البقاء من أجلي، نحن في حكم (الخطيبين).

- من أي مكان هو؟ وإلى أية دولة ينتمي؟ هل يمكن أن تقنعيه بمقابلتنا، سنعرض عليه عملاً كبيراً يدرّ عليه الكثير من المال.

- سأحاول، إن زارني في وقت قريب.

- حسناً، نحن نعتمد على وعدك هذا.

- لا بأس.

سألها فارس:

- وهل تحدثت وداميس عن هذا العرض؟

- نعم. وقد كاد أن يوافق، لولا أن تدخّلت والدته. قالت له:

- اسمع يا بني، هؤلاء الناس يريدون استغلالك، والاستفادة من طاقتك، وربما السيطرة عليك.

- كيف يا أمي؟ باستطاعتي أن أغادر وأبتعد عنهم في أي وقت أشاء. ربما كانت موافقتي مرهونة بموافقة هادية. إن رغبت بالبقاء هنا، سأبقى معها.

- ولكن هادية لا تريد لك الأذيّة، ربّما عرضوا عليها مركزاً علمياً جيداً هنا، ولكنها لم تعطهم موافقتها. أليس كذلك يا ابنتي؟

- نعم يا خالة. وإن كان من الممكن أن يصيبه أذى منهم، فمن المستحيل أن أجعله يقابلهم.

- الحمد لله أنا مطمئنة لذلك. وأثق بك.

حاولتُ أن أراوغ معهم، حتى أحصل على شهادتي أولاً. فقلت للرجل الكبير:

- داميس سيسافر إلى بلده لعدّة أيام وحين يعود، سأقنعه بمقابلتكم.

- إذن سنؤجّل ذلك مناقشة الرسالة لحين عودته.

- ولكن مناقشتي الأسبوع القادم، لماذا ستؤجّلونها؟

- من أجل صديقك داميس. نريد أن نقابله سريعاً.

- هذا مخالف للقوانين الجامعية، سأعترض لدى مجلس الجامعة.

- كما تشائين، لن يستمع لك مجلس الجامعة.

حكت هادية، كيف ابتزّها أولئك الناس، وقد رغبت أم داميس بمساعدتها:

- ذهبت إلى مجلس الجامعة، فأراها الموظف طلباً منها حُوّل من نفس حاسوبها، ترغب فيه بتأجيل المناقشة لثلاثة أسابيع.

اعترضت على الموضوع، وأكّدت للموظف أن الطلب غير صحيح، أحدهم زوّر طلباً باسمها. وأنها ترفض التأجيل.

همست لها أم داميس:

- سأكتب طلباً وسأوجّهه صوب رئيس المجلس، سيذهب ويعود إليك بموافقة منه على مقابلته.

لم أعرف كيف قدّمت الطلب، وماذا فعلت فقد فوجئت خلال لحظات بسكرتير رئيس المجلس وهو يشير لي:

- عفواً يا آنسة، تفضّلي، رئيس المجلس جاهز لمقابلتك.

- نعم. نعم، تعالي معي يا خالة.

همست لي؛

- سآتي لأساعدك بالطبع.

دخلنا إلى مكتبه:

- تفضلي يا آنسة. أنت طالبة الدكتوراه المعترضة على موعد تأجيل مناقشة رسالتها.

أهلاً بك يا أستاذة.

- هذه خالتي، تقيم في المنطقة تزورني دائماً.

- أهلاً يا سيدتي. هه. خير يا أستاذة؟ ذكر لي الموظف المختص أن طلب تأجيل المناقشة غير صحيح. أنا أراه الآن على الحاسوب إنه يحمل توقيعك نفسه.

- أحدهم قدّم طلباً باسمي، ووقّع عنّي، وجئتُ لأكشف ذلك.

وفجأة دخل اثنان ظهرا كأنّهما من كبار المسؤولين في الولاية، قال المسؤول بينهما:

- كيف حالك يا بيتر؟

وقف رئيس المجلس باحترام:

- أهلاً بك يا سيدي. خير؟

- ارتأت سلطة الولاية تأجيل امتحان هذه الفتاة.

- ولكنها تعترض على ذلك، ومن حقّها أن تعترض.

- ولكن لضرورات أمنية تحتّم علينا أن نؤجّل لها هذا الامتحان.

فكّرت أم داميس كما أخبرتني فيما بعد:

«يبدو أن داميساً وهادية يتعرّضان لابتزاز. يعلم الله ما ستكون نتيجته»

- يا سيدي إن كان الموضوع مهمّاً لهذه الدرجة فسيؤجّل الامتحان.

ولكن أم داميس، تصرّفت بشكل غير مألوف بالنسبة لنا، وقد بدا على وجهها التفكير العميق. وبعد لحظات تكلّم رجل الولاية بشكل مختلف. وفوجئت بكلامه:

- اسمع يا بيتر.

- نعم يا سيدي.

- حتى لا نتّهم بأننا أعداء الحرية الشخصية للفرد، ولكون هذه الفتاة تريد مناقشة أطروحتها في يوم محدّد. فلا مانع لدينا من ذلك.

- إذن لن نؤجّل امتحانها. أفهم أنك تراجعت عن طلبك بتأجيل هذا الامتحان. هذا عظيم يا سيدي، الفتاة شديدة الذكاء وقدمت لمخابرنا الكثير من الإنجازات.

- لا بأس. لن نغيّر تاريخ مناقشتك يا فتاة.

- شكراً لك، أريد ذلك خطيّاً يا سيدي. حتى لا أتعرّض لمشاكل قد يوقعني فيها الروتين هنا. وفهمكم كفاية.

- اكتب لها يا بيتر الخطاب الذي تريده. وإن رغبت سأوقّع عليه بنفسي بصفتي المسؤول الأول في الولاية.

وشوشتني أم داميس:

- هذا أفضل يا ابنتي.

ثمّ فاجأني مسؤول الولاية بقوله:

- استمعي لي جيداً. سيحضر مناقشتك بعض ممن حصلوا عندنا على جائزة نوبل.

- وسأكون في مستوى المسؤولية يا سيدي.

ودخل سكرتير رئيس المجلس:

- طلبتني لأمر يا سيدي؟

- نعم. سأملي عليك خطاباً، ستطبعه وسنذيّله بتواقيعنا، أنا والسيد المسؤول الأول في الولاية.

- حسناً، تفضل، أنا جاهز.

«شعرت أننا لن ننتصر على أولئك الناس إلا لفترة مؤقّتة، وهكذا أكّدت لي أم داميس، فإيقافها لرغباتهم في السيطرة علينا، لن يستمر طويلاً، وهذا ما جعلنا نقرّر السفر بعد مناقشة الأطروحة مباشرة ولم يكن يفصلنا عن ذلك سوى أربعة أيام».

- اسمعي يا ابنتي، نحن نحارب قوىً خفيّة مسلّحة بتقنية عالية، ولن نستطيع لجمها طويلاً عن التدخّل في خصوصياتك وداميس، لذلك علينا الإسراع بالرحيل من هنا.

- حين أستلم شهادتي، لن أظلّ في هذه البلاد يوماً واحداً.

قال داميس:

- وأنا سأرافقك، حتى ولو أدّى ذلك إلى معاناتي مع من يطاردني منهم، وهم كثيرون.

- حسناً، اقترب الوقت يا حبيبي. بعد أربعة أيام سنناقش الأطروحة.

- هيا استعدي لتقديم أفكارك بقوّة لتضمني تفوّقكِ.

- وسأظل معك، أراقبك من بعيد. هيا يا حبيبتي. ابدئي بالاستعداد. ليس هناك وقت طويل.

- أأنت جاد في هذا؟ تعلم تماماً أنني مستعدّة لمناقشة أطروحتي والدفاع عن أصالة فصولها، الآن ومباشرة. هي أفكار ومعادلات قضينا وقتاً طويلاً معاً في الوصول إليها.

طرق الباب، قلت لداميس:

- سأرى من في الباب.

فتحت الباب، كان هناك امرأتان تحملان شارة المركز:

- أستاذة هادية؟

- نعم. ماذا تريدان؟

- نريد أن تملي لنا هذا الاستبيان بشكل فوري.

- استبيان؟ يمكنني تعبئته عن طريق الشبكة، لماذا هذا الأسلوب؟

- طلب منّا ذلك، وعلينا تنفيذه.

- أرني.

قلّبت الأوراق:

- ملأتُ مثل هذا الاستبيان من قبل. يمكنكما تأجيل ذلك إلى وقت آخر.

- عليك تنفيذ هذا فوراً.

أخرجت المرأة جهازاً نفثت منه سائلاً بخّاخاً في وجهي فشعرت أنّني أتخدّر وسقطت على الأرض، سمعت أم داميس تقول:

- ابتعد يا داميس، سأتدخّل الآن. يجب أن تختفي عن الأعين حالاً.

- قد يؤذيانها يا أمي؟

- لا تخف.

قالت لهما:

- لماذا تخدّران الصبيّة؟

- وسنخدّرك أنت.

- لن أسمح لكما بإيذاء الصبية.

بطريقتها الخاصّة أوقعتهما بلا حول ولا قوّة، صرخت إحداهما قبل أن تغيب عن الوعي:

- ماذا فعلت بنا أيتها العجوز؟

أيقظتني أم داميس، من خدري. وحين رأيت المرأتين شعرت بالخوف:

- لماذا أرادا تخديري؟ هل أرادا اصطحابي إلى مكان مجهول، ربما إلى قبو عميق، لاستدراج داميس والقبض عليه.

- لا أحد يستطيع القبض على ولدي. ما زال يتمتّع بقدرات كبيرة، رغم أنه دخل في فخ التآلف بين الأقران، من أجل أن يتقرّب منك ويصبح على سوية مشابهة للبشر.

- وماذا سأفعل بهاتين المرأتين؟

- سيستيقظان بعد قليل، ويشربان القهوة معك ثم ستغادران هكذا سأملي أوامري لهما، حال استيقاظهما.

- آه يا خالة. أشعر أنني في دائرة صعبة، مليئة بالمتاعب.

- سنكون معك لا تقلقي.

سمعنا تردّدات متكرّرة، بنداءات بثّها جهاز معلّق على صدر أم داميس:

«مركبة (الفجر الرمادي) تنادي (الزرقاء)»!!

- إنه نداء من مركبتنا البعيدة! التي ما زالت تدور حول الأرض.

ردّت عل النداء فوراً:

- الزرقاء تنادي الفجر الرمادي؟ ماذا هناك؟

«عليك وولدك مغادرة الأرض. التآلف بين الأقران لن يستمر طويلاً، ستفقدا حياتيكما. أمامكما أسبوع واحد فقط».

- الزرقاء، تنادي (الفجر الرمادي). ما الذي يحدث؟ لماذا هذا الخطاب لنا؟

- من خلال تحليلنا لما قمتما به، تبيّن لنا، أنكما في سبيل الانهيار الشامل لخلايا جسديكما الجديدين.

- وصلنا الأمر.

- (الفجر الرمادي) تحذّر الزرقاء، أجهزتنا لا تخطئ كما تعلمين.

- لا بأس.

-٤-

استيقظت المرأتان، وغادرتا، وأنا مذهولة مدهوشة خائفة. من أن أفقد داميس. وجرى كلّ شيء بسرعة كبيرة، تقدّمت للأطروحة ونجحت، وقد بذلت خالتي أم داميس جهداً كبيراً لشحني بالثقة والقدرة اللازمة لأجتاز كل شيء بنجاح كبير.

- ولم يتبقَّ سوى ثلاثة أيام لمغادرة داميس وأمّه لك؟

- نعم. واتفقنا على الزواج. وباركت هذا الزواج والدته. وعشنا ثلاثة أيام في منتهى السعادة، وقد حاول مخاطبة (الفجر الرمادي) عدّة مرّات، لكي يقنع نفسه أن الخبر قد يكون غير دقيق.

- تقصدين خبر أنه ووالدته سيفقدان الحياة خلال أيام؟

- نعم. ولكن (الفجر الرمادي) أكّدت له أن كل التحاليل شديدة الدقّة. وهذا ما أرعبني، أصرّ أن يوصلني إلى دمشق، ويغادر مع أمه، بعد وداع مؤثّر، كاد يفقدني عقلي، آه. شعرت أن رحيله يسلب لبي، وأنني سأقع فريسة أحزان لن تنتهي، ومرّت عليّ أيام بائسة قبل أن أشعر بأعراض الوحام. وأعلم أنني أحمل في بطني ثمرة زواجي الغريب مع كائن من كوكب بعيد.

- هذا هو طفله إذن؟ لا بأس، الآن عرفتُ سبب الشحنات العالية التي يملكها الصغير. سأحاول تخفيف الطاقة التي تحيط به.

- أعتقد أن داميساً لن ينسى أن كائنة أرضية تعلقت به وربما تمكّن من زيارة هذا الكوكب بشكل غير مألوف، ليوصل لي رسالة وفاء، وهو على هذا البعد السحيق.

- قصتك غريبة يا دكتورة هادية.

عاد الطفل إلى الحركة، كان يتحرّك ويناغي، بشكل طبيعي. قال فارس:

- سأقوم بجلسة (مسّاج نقطي) أخرى لتحريره من الإشعاعات المكثّفة التي تحيط به.

- حكيت لأهلي أنني تزوّجت وفقدتُ زوجي، وقد زوّدتني خالتي أم داميس بكل الوثائق اللازمة لذلك، كأنها كانت تتوقّع أن شيئاً ما سيقع، مثل حملي لطفل داميس ابنها الوحيد.

- لا مشكلة مع أهلك إذن؟

- لا. بل إن أمي متعلّقة كثيراً بالصغير، أرجوك حاول أن تحرّره من هذه الطاقات التي تحاصره، الطاقات غير المفهومة.

- أنت متفوّقة ومبدعة يمكنك أيضاً مساعدته.

- مرضه، له علاقة بالطاقة، وهو من اختصاصك كما عرفت.

- بدأ الأمر كهواية لي. ثم أصبحتُ محترفاً بالطاقة الحيوية، لدى الكثير منّا شروخ في الطاقة، تضعف الجسم وترهقه، وربما كان لمشاكل العصر تأثيرات سلبية علينا. عاد الطفل يبكي، وفارس يمرّر يديه فوق جسم الطفل، قالت:

- ما هذا؟ كأنّ أشعّة تنبعث منه خارجة من أجزاء كثيرة من جسمه.

- طاقة شعاعية حبيسة خرجت منه، هذا يعني أنه سيشفى. لا تقلقي.

- يا إلهي.

فكّرت قلقة «هل سيحمل شيئاً من والده البعيد؟ ماذا سيفعل حين ينمو ويكبر ويتعلّم؟ هل سيكون خارقاً كوالده؟».

- ربما كان خارقاً يا دكتورة، وورث هذه الصفة عن والده. وربما لا.

- قرأت أفكاري؟ آه. نسيت لك قدرة على قراءة الأفكار.

- يبدو طفلك طبيعياً يا دكتورة. احرصي عليه جيداً. ربما كان يحمل بعض الصفات من والده، لذلك يجب أن يكون حرصك عليه مضاعفاً. إنه ينام الآن.

شعر فارس أن المرأة، ارتاحت بعدما حكت قصّتها العجيبة، وأنه صدق هذه القصة، رغم أنها تبدو بعيدة عن المنطق. كانت تلفّ الرضيع بغطاء سميك وهي تستعد للرحيل. قالت وهي تنحني أمامه شاكرة:

- أشعر بالامتنان لك يا دكتور، خلصت ولدي من العذاب، واستمعت إليّ باهتمام. وسأظلّ على اتصال دائم بك إن سمحت.

- لا بأس يا دكتورة هادية، أنت تعملين في مخابر البحوث، هذه هي بطاقتي عليها أرقام هواتفي، قد أزوركم في المخابر يوماً.

- وهذا هو رقم هاتفي الجوال. بالتأكيد سأكون مسرورة إن زرتنا في المخابر، أنا أقوم بتجارب دقيقة حول الحياة في الكون، وقد اكتشفت كائنات دقيقة تعيش في غلاف الأرض الجوي لها طبيعة مختلفة عن

الكائنات التي نعرفها. ربما ستقدّم لنا أدلّة جديدة عن رحلة الحياة بين الكواكب.

- في الغلاف الجوي عندنا؟ على أي ارتفاع؟

- على ارتفاع يتراوح بين ١٢ كيلو متر و٥٠ كيلو متر. مازلت أجري عليها التجارب.

ودعته الصبية وهي تلف طفلها الرضيع. وسط صمته وذهوله وهو يفكّر بهذه الكائنات الدقيقة. التي تعيش في غلاف الأرض الجوي، قبل أن ينتقل به التفكير إلى قصّة هذه المرأة التي تحمل دليلاً لا يقبل الشك عن الحياة خارج الأرض.

هذا الطفل الغريب، الذي هو ثمرة عشق بين كائن من كوكب بعيد وكائنة أرضية. تمنّى الدكتور فارس، لو يعرف الكثير عنها وعن مسيرة ولدها الذي بدا له غير عادي. في زمن كثير المفاجآت، ويخبّئ ألغازاً تستعصي على الحل في السنوات المقبلة.

* * *

خروج الموتى

-١-

كان وضعاً صعباً وجد نفسه فيه وقد انفجرت عجلة السيارة في طريق فرعي يصل بين قريته على أطراف البادية وبين الطريق العام.

فالطريق الذي انفجرت فيه العجلة، كان مقفراً، وغير مضاء. وصعوبة تبديلها كانت تخيف سامي، وليس لديه سوى ضوء السيارة الأمامي.

وكان عليه أن يغامر وسط هذا الظلام بالبدء بتبديل العجلة، بدا له الضوء كافياً بصعوبة لفك براغي العجلة، ثم إخراج العجلة الاحتياطية من الصندوق الخلفي المليء بالمجلات والكتب والأغراض الخاصة به.

وهو غارق في عمله سمع صوتاً خلفه:

- هل تريد المساعدة؟

انتفض مرعوباً. كان رجلاً وجهه غير واضح، شعر بعدم الاطمئنان له. كانت رائحته مقزّزة.

- من أنت؟ وكيف حضرت إلى هنا؟

ضحك:

- أنا أعيش في هذه المناطق.

- أين؟ لا أرى بيوتاً أو آثاراً تدلُّ على السكن. صحراء خالية من الحياة.

- ليس بالضرورة أن يكون البيت فوق الأرض، لماذا لا يكون تحت الأرض؟

- هه. لم تقل لي كيف حدث وتعطّلت سيارتك هنا؟

- آه. انفجر الدولاب، ربما لسبب مجهول.

- هل أساعدك؟ هه؟

- لا بأس. تفضّل، ساعدني في حمل العجلة مكان العجلة المضروبة.

- هه. هكذا أفضل؟

- نعم. نعم. شكراً لك.

شعر سامي أن ملامح الرجل غير واضحة. ولم يكن الضوء كافياً لتفحّص وجهه خاصة وأن الرجل الغامض كان يتجنّب أن يتقابل مع سامي وجهاً لوجه.

حين أنهى سامي تثبيت العجلة الاحتياطية والتفتَ ليشكر الرجل وجده قد اختفى. فازداد رعبه.

يا إلهي. أين اختفى الرجل؟ يجب أن أنطلق بسرعة. أشعرُ أن أمراً غيرَ مألوف يحصل في هذه المنطقة آه أتذكّر ما قاله:

- «ليس بالضرورة أن يكون البيت فوق الأرض لماذا لا يكون تحت الأرض؟».

انطلق سامي بالسيّارة وهو يشعر بالخوف، ربّما لأوّل مرة في حياته. كان الطريق خالياً. والضوء يشقُّ عتمة الليل، تمنّى لو يلتقي بسيارة يسطع ضوؤها في الاتجاه المعاكس. دون نتيجة.

نظر لهاتفه النقّال إلى جانبه، لا توجد تغطية في المنطقة. وفجأة بدت له أضواء عن بعد. توقّعها. سيّارة أو أكثر. فشعر بالارتياح قليلاً. ولكن شيئاً غامضاً مرَّ أمام السيارة لم يستطع تبيّن شكله. كان منشغلاً بالأضواء البعيدة. ثم رأى شيئاً مكوّماً على الطريق على بعد عدّة أمتار منه. فضغط على المكابح.

- ما هذا يا إلهي؟

فتح باب السيارة كان شيئاً متكوّماً يغطّي الطريق الضيق، حيث لن تستطيع أيّة سيارة تجاوزه. تحرّك ذلك الشيء المتكوّم ثمّ نهض. ميّزه كان شكله غريباً. ووجهه مشوّه لدرجة فظيعة. انتصب أمامه ثمّ قال بصوت أجش:

- كان يجب أن أفعل ذلك حتى تتوقّف.

- بسم الله الرحمن الرحيم. من أنت؟

كان يضحك:

- أنا عثمان! تهتُ عن قريتي منذ الظهيرة، وستوصلني إليها بهذا الشيء المتحرّك الذي تركبه.

- عثمان؟ لا تبدو طبيعياً يا عم. أنا آسف أنا على عجلة من أمري هناك أخت مريضة تنتظر وصولي.

- قريتي اسمها (سلا) وستوصلني إليها.

- أرجوك يا عم.

- هل ستتركني لوحدي في هذا المكان الخالي؟

- هناك أضواء بعيدة سأوصلك إلى هناك. هيا اصعد.

ولج إلى المقعد المجاور إلى جانبه. كانت رائحته أشبه برائحة الجيف. شعر سامي برعب فظيع. عاوده صوته الأجشّ:

- هيا تحرّك. بسرعة.

سأله بصوت مرتجف:

- كيف حدث وخرجت من قريتك؟

- أنا أبحث عن جَمَلي الضائع. لم أستطع العثور عليه.

«كأن الأضواء ما زالت بعيدة. آه يا إلهي لا أستطيع احتمال هذه الرائحة، أكاد اختنق».

ولكنّه اضطرَّ من جديد لاستخدام مكابح السيّارة بشكل فجائي. كانت هناك كومة أخرى تتمدّد على الطريق.

فتح باب السيارة، امرأة رثّة الثياب نهضت بتثاقل نحوه:

- تعال ساعدني.

- أساعدك؟

- أنا ضائعة. كان يجب أن أفعل هذا.

رائحتها الكريهة زكمت أنفه. نظرت إليه وهي تضحك:

- سأصعد معك. هيا ستوصلني إلى قريتي **(سلا)**.

- سلا؟ إنها من نفس قريتك يا عم. كنت تبحثين عن جَمَل ضائع أيضاً، أم عن ماذا؟

قالت فجأة وهي ترمق مرافقه:

- عثمان؟ أنت هنا؟

- أنت يا حصّة؟ كنت أبحثُ عنكِ.

- وأنا كنت أبحث عنكَ يا جَمَلي الغالي.

صعدت في المقعد الخلفي.

- جملك الغالي؟ هل هو زوجك؟

- زوجي وأبو أولادي. وحبيبي.

ضحك عثمان وهو يدير رقبته نحوها:

- سيوصلنا هذا الشاب إلى سلا يا حصّة.

- عظيم. أين كنتَ؟ بحثتُ عنك طويلاً.

- كنت أبحثُ عنكِ.

تحرّكت السيارة وسامي يعاني من رائحة لا تُحتمل. كلاهما كان مشوّهاً لدرجة فظيعة. أشبه بجثّة متحرّكة. بدا له كأنه يمرّ بكابوس مرعب.

ورأى فجأة ضوء سيارة قادمة، كانت سيارة شاحنة كبيرة. تقطع الطريق في الاتجاه المقبل نحوه. أشار بضوء السيارة عدّة إشارات، كأنما يطلب من السائق التوقّف والعون. وكأنما شعر السائق بإشاراته الضوئية الملحاحة فتوقّف. وأوقف سامي السيارة. صرخ عثمان بحنق:

- خير؟ لماذا توقّفت؟ نحن على عجلة من أمرنا.

- أريد بعض المساعدة، ماء وربما بعض «إكسسوارات» السيّارة.

- هيّا. تابعْ سيرك. قبل أن نضربك. هيّا تابعْ طريقك.

توقّفت الشاحنة. صرخ محتجّاً:

- أنا بحاجة لمساعدة.

كان عثمان يشدّه من ثيابه. حاول أن ينفلت منه. ولكنّه شعر بضربة على رأسه يبدو أن حصّة قد ضربته بقوّة، فخرج مترنّحاً متّجهاً نحو الشاحنة المتوقّفة. انفتح باب الشاحنة وخرج منه السائق الكهل:

- خير يا بني؟ أشرت لي عدّة إشارات، أتريد مساعدة ما؟

- هل أنا بعيد كثيراً عن دير الزور. لم أرَ أية قرية في طريقي بعد.

- دير الزور؟ أنت في الطريق المتجه صوب الحدود العراقية. هناك أكثر من مائة كيلو متر عن أقرب قرية مأهولة. حتى الاستراحات مقفلة. تعذّبت كثيراً وأنا أبحث عن مكان أرتاح فيه. منذ (٣٠) ساعة لم أنم. كأنني فقدت طريقي أيضاً لأوّل مرّة.

- ولا تعرف الطريق المؤدّي لدير الزور؟

- حاول أن تتبعني هناك مفرق على بعد نحو (٣٥) كيلو متر يمكّنك من خلاله الوصول إلى الطريق المؤدّي للدير.

- آه. لديّ شيخ وامرأته يريدان منّي إيصالهما إلى قرية سلا. لهما رائحة الجيف.

- قرية سلا؟ لم أسمع بها من قبل. أين هما. لا أرى أحداً في سيارتك.

- يا إلهي أين اختفيا؟

قال الكهل مستغرباً:

- لهما رائحة الجيف؟ هه. فعلاً هناك رائحة غريبة تنبعث من سيارتك ولكني لا أرى أحداً.

- هذا أفضل سألفّ بالسيارة وألحق بك يا عم. أرجوك حاول أن تطمئن عليّ بالنظر في مرآة السيارة خلفك على الطريق.

- لا تقلق يا بني.

شعر سامي بالاطمئنان وهو يسير خلف الشاحنة التي زادت من سرعتها قليلاً بعدما انتهت الانعطافات وأصبح الطريق مستوياً.

استعرض سامي ما جرى له في هذه الرحلة العجيبة وطالعه وجه عثمان ووجه حصّة المشوّهان ورائحتهما الغريبة، وظروف مصادفتهما الغريبة أيضاً فشعر بالغثيان.

انبعث ضوء الفلاش المتواتر من السيارة الشاحنة أمامه. ولكنها لم تتوقّف كأن السائق الكهل يوحي له بوجود شيء ما أمامه. ثم توقّف ضوء الفلاش وسمع زموراً قوياً من الشاحنة. التي زادت من سرعتها.

زاد السرعة مثله. ولكنّ أضواء مكابح الشاحنة انبعثت وهي تلتفّ، صرخ ملتاعاً:

- يا إلهي ما الذي يحدث؟

كانت الشاحنة تلتف، كأنّ سائقها يريد تفادي الاصطدام بشيء. وفجأة خرجت عن الطريق ثمّ انحدرت نحو المنخفض اليساري لتستقر بشكل عمودي مائل فيه.

أوقف سامي السيّارة واتجه صوب سائق الشاحنة ليطمئن على حالته، ولكنّه رآه يهبط من الشاحنة وحين رأى سامي اتجه إليه وهو يصرخ بفزع:

- أين تلك المخلوقات الكريهة كانت تتجمّع أمامي ورفضت الابتعاد عن الطريق، رغم زمّور السيارة المزعج؟

- المهم أنك بخير، أين تلك المخلوقات؟

- لا أرى شيئاً. يا إلهي كانت أشباحاً بكتل مسربلة بالسواد تسدّ الطريق أمامي. سمعا أصواتاً وهمهمات وضجة غير مفهومة. قال سامي:

- أتسمع يا عم؟

- بالطبع، سأحاول إخراج الشاحنة من المنخفض، أرجو أن أنجح في ذلك. أرجوك يا بنيّ وجه ضوء مصابيح السيارة في اتجاه الشاحنة.

عاد سامي إلى سيّارته ووجّه أضواءها العالية في اتجاه الشاحنة وهو يتمتم:

أرجو أن ينجح، وإلاّ كانت ورطته كبيرة، وفجأة لمح تكتّلاً ما لبث أن انجلى عن مجموعة من الناس المتسربلين بالسواد تأتي من الطريق البعيد صوب الشاحنة.

كان الكهل قد نجح في إخراجها من المنخفض واعتدل بها في الاتجاه الصحيح للطريق. ويبدو أنه لحظ هذه المجموعة تقترب من الشاحنة فأطلق زمّوره من جديد. وأشار لسامي بالأضواء المتواترة أن ينطلق خلفه.

كان يتجه نحو الجهة اليمنى من الطريق غير مكترث بأولئك الناس. فانطلق سامي خلفه، كانوا يركضون خلف الشاحنة بسرعة كبيرة. ثمّ اتجه بعضهم نحو سامي، وهم يشيرون له أن يقف. استغرب مرعوباً:

«ماذا أرى؟ يا إلهي كأني أرى (عثمان وحصّة) بين هؤلاء»!!

كانت رائحة الجيف تملأ المكان، وتتغلغل حتّى إلى داخل السيّارة وتكاد تخنقه. وفجأة بدؤوا يتجمّعون أمام السيّارة حتّى لم يستطع أن يزوغ منهم. فأوقف السيارة وقد شعر أنه يختنق بالرائحة المرعبة وقد سدّوا عليه المنافذ، وغامت عيناه وقبل أن يفقد الوعي، شعر أن شخصاً يفتح السيارة وهو يبتسم ابتسامة كريهة ظهر فيها فمه بأسنان متفرّقة وقد تشقّقت شفتاه. فغاب عن الوعي.

-٢-

صحا سامي فوجد نفسه جالساً خلف المقود، والشمس الحارقة تضرب رأسه. كانت السيارة متوقّفة خارج الطريق وسط كتل منتظمة من الحجارة.

خرج يستطلع المكان، كانت عجلة سيارته ملقاة أمام السيارة، وكانت تلك الكتل المنتظمة من الحجارة ليست سوى شواهد قبور، مُحيت كتاباتها. سمع صوت زمّور سيّارة، فالتفت ليرى سيارة **(بيك آب)** تتوقّف قربه.

- أتريد مساعدة؟

قال مرتبكاً:

- نعم. بالتأكيد. أشكرك.

- لماذا أوقفتها هنا بين القبور؟

- كان الظلام يخيّم أمس، لم أنتبه إنها مقبرة.

شعر الرجل بحالته المرتبكة وقد بدا متعباً:

- لا تبدو لك القدرة على تبديل العجلة؟ أتشتكي من مرض ما، يبدو وجهك مصفرّاً.

قال محاولاً التماسك:

- لا. أنا بخير. سأقوم بحمل العجلة لتثبيتها.

- سأساعدك.

«أمعقول أنني كنت أحلم؟ ساعدني رجل غامض في تبديل العجلة أمس، ومشيت بها في طريق طويل وقابلت عثمان وحصّة، حتى سائق الشاحنة الكهل حاول مساعدتي».

سأله الرجل:

- أين تقصد؟

- قرية (السعدية) ليست بعيدة كثيراً عن الدير.

- آه السعدية، أمامك نحو ٤٠كم. أمعقول أنك نمت هنا ليلة كاملة؟ وفي مقبرة؟

- لم أستطع أن أبدّل العجلة لوحدي في الظلام، وكنتُ متعباً، فنمتُ.

حتى هو لم يقتنع بما قاله للرجل الغريب. فأفكاره مشوّشة، لا يدري ما حدث له، أكان حلماً كابوسياً؟ أم شيئاً آخر له علاقة بتداخل الأزمنة؟

شكر الرجل الذي انطلق بسيارته في الاتجاه المعاكس، وانطلق سامي في الطريق وقد تداخلت الأفكار في رأسه. وبعد دقائق رأى استراحة على يمين الطريق. فتوقّف فيها. كان المكانُ مزدحماً، جلس في زاوية قرب مجموعة من الناس، كانت أصواتهم المتداخلة، بين نساء ورجال:

- تصوّري طرق علينا الباب وهو يرتجف! قلت له: يا أخي ما بك؟ قال:

«كانوا يتكاثرون علينا كالجراد. ورائحتهم النتنة تكاد تقتلنا»! علّقت امرأة أخرى:

- حكى لكم القصّة؟ حدثيني بسرعة.

حاولت أنا وزوجي أن أهدّئ روعه حتى يحكي لنا القصّة. وهذا ما جرى. حكى لنا قصّة تقشعرُّ لها الأبدان. كان أخي (غالب) يحكيها لنا وهو يرتجف:

«كنتُ أعبرُ المنطقة بسيارتي، والعتمة تغمرُ كلَّ شيء من حولي. حين رأيتُ رجلاً وامرأة متقدّمين في السن، أشار إليّ أن أقف. فأشفقتُ عليهما ووقفت، شغل الرجل المقعد قربي وشغلت المرأة المقعد خلفه».

- نعم يا أخي وماذا جرى بعد ذلك؟

كانت رائحتهما مقزّزة، بدأتُ أشعرُ بأنها تخنقني، وحانت منّي التفاتة نحو الرجل الملثّم بكوفية، كانت يده خالية من اللحم. عظام مجرّدة، أرعبني منظرها توقّفت وأنا أشعر بالغثيان، ففاجأني منظر أعداد هائلة من أشباح عبارة عن هياكل عظمية، ورأيت شابّاً يخرج من بين كثبان الرمل قال:

- انج بنفسك يا أستاذ. ابتعد بسيارتك. سأحاول إبعادهم عنك.

«كان شاباً باسلاً دفعهم عنّي، وأخرج الرجل والمرأة من السيارة بسرعة» قال:

- هيّا تحرّك. سأناوشهم بعيداً.

قلت له:

- اصعدْ معي، سيسبّبون لك الأذى.

- لا داعي لأن تتعب نفسك سأعرف كيف أتخلّص منهم.

«كان باسلاً شجاعاً أبعدهم عنّي! وانطلقت بالسيارة وأنا أرى أنهم يتكاثرون حوله كالجراد. وشعرتُ بالأسى عليه. بفضله وصلت سليماً إلى هنا».

عاد الحوار بين المرأتين وسامي يستمع مشدوهاً:

- معقول؟ إلى هذه الدرجة ينتشرون في المنطقة بعد أن تبدأ العتمة؟

- آه يا أختاه، كان كابوساً مرعباً.

- معقول؟ كأنه خروج للموتى من تحت سطح الأرض، شيء لا يُصدّق.

فكّر مرعوباً: «لم أكن أحلم إذن. ما ترويه هذه المرأة عن أخيها، أشبه بما رأيته البارحة».

حضر النادل وهو يحمل صينيّة الإفطار، سأله سامي:

- اسمع يا أخ. أنت هنا منذ زمن. أقصد أتعمل هنا منذ زمن؟

- أربع سنوات. نومي ومأكلي ومشربي هنا. لماذا تسأل؟

- مررتُ على مقبرة منتشرة على طرفي الطريق. يبدو أنها مقبرة قديمة.

- هي مقبرة ضخمة، يُقال إنها تعود لسنوات ما بين ٢٠١٣ و٢٠١٨ حيث كان المتطرّفون يزرعون الموت في كلّ مكان.

- وماذا أيضاً؟ أرأيت شيئاً غير مألوف في تلك الحكايات؟

- منذ تلك العاصفة المطرية الشديدة والأحاديث لم تتوقّف عنها.

توقّف النادل عن الكلام وقد سمع نداءات الزبائن. عادت الأصوات من المنضدة المجاورة تصله، كان أحد الشبّان يسأل:

- أحاديث عنها عن تلك المخلوقات؟ مثل ماذا يا خالة؟

- حول موتى يخرجون من أكفانهم ويدورون حول الطريق، يعترضون السيارات المارّة، وربما يعتدون على الناس.

قال الشاب:

- هي حكايات، ربّما مُبالغٌ بها قليلاً.

أنهى إفطاره وحاسب صاحب المطعم، وقد شعر بالندم، كان يجب أن يسأل النادل عن تلك العاصفة المطرية. حين خرج سامي من المقهى رأى وجهاً لكهل، خيّل إليه أنه رآه من قبل. واتجه إلى سيارته يقلع فيها نحو القرية. وحين أقلعت به السيارة تذكّر أنه يشبه سائق الشاحنة، ففكّر بالعودة ولكنَّ الكهل صعد بسيّارة سياحية صغيرة اتّجهت في الاتجاه المعاكس لما يقصده سامي. كان الطريقُ خالياً من سيّارات عابرة، وما إن وصل أطرافَ القرية حتّى ظهر الناسُ وهم يتحرّكون في فسحات منازلهم، وهم يتناولون إفطارهم المتأخّر في يوم العطلة.

حين وصل سامي إلى السعدية، فوجئ بالناس هناك يقابلونه بالدهشة والذهول ولم يعرف السبب، واستقبلته أمه بالبكاء وهي تضمّه لصدرها:

- حمداً لله على سلامتك يا حبيبي.

- خير يا أماه؟ لماذا تبكين؟ لماذا يستقبلني الناس هنا مذهولين؟

- وصلنا خبر موتك يا بنيّ. قالوا لنا أن سيارتك مهشّمة على الطريق، ولا أحد في داخلها. وكان يجب أن تحضر أمس في الليل. وهذا ما جعلنا نصدّق الخبر.

- من قال ذلك؟ أنا هنا يا أمي، وأنا بخير وسيارتي سليمة.

- الحمد لله يا حبيبي، تعالَ. تعالَ ستفرح الجميع بوجودك.

تأمّلته بعمق:

- ما هذا السواد على قميصك من جهة ذراعك الأيمن؟

قال مرتبكاً:

- لا أدري.

- رائحته كريهة. كأنّه عفن.

عادت تشمّه من جديد:

- انتظر ما هذه الرائحة المنطلقة منك؟ شعرتُ بها حين ضممتكَ إليّ وعادت من جديد وأنا أتأمّل قميصك الملوّث. أرني كأنّك كنتَ بين الجيف يا بنيّ؟ ماذا حدث لك؟ أقلقتني. ادخل الحمّام وغير ملابسك. وعندما تهدأ قليلاً سأستمع لحكايتك وإن كنت واثقة أنك متشوّق لإدخالي في دائرة ما وقع معك.

تنهّد بحرقة، مستغرباً من الآثار على كمّه ومن رائحة الجيف التي تذكّره بليلة أمس التي اعتقدها حلماً كابوسيّاً ولكنّها لم تكن كذلك كما يبدو. ثم قال لأمّه:

- أنا فعلاً متشوّق لرواية ما حدث لي رغم غرابته الشديدة. ولكن لا بأس. سأذهب لأستحمّ سريعاً وأعود إليك

-٣-

كانت قلقة عليه متلهّفة لحديثه، «يا إلهي ماذا حدث له؟ كأنّه خارج من الجحيم. الآن بعد أن دقّقتُ في ملامحه، تأكّدت ليست عادية أبداً. فرحتي بلقائه أنستني ما رأيته من ملامح غريبة على وجهه وملابسه».

انتظرتُ خروجه ملهوفة وهي تُعدُّ القهوةَ، خرج وقد تحسّنت سحنته التي كانت مشوّشة، وجلس إلى جانها يشرب القهوةَ بمتعة:

- تحدّثْ يا بنيّ، أنا أنتظر.

- هل حدثتْ عاصفة مطريّة غزيرة يتحدّث عنها الناس في كلّ المنطقة ولا أعرف عنها شيئاً؟

- تسألني عن العاصفة المطرية؟ معك حق أنتَ تقيم في العاصمة ولا تعرف الكثير عن تبدّلات الطقس عندنا. في تشرين الأول الماضي حدثت عواصف ترابية كثيرة في منطقتنا وظلّت تتكرّر حتى شهر كانون الأول. كانت عواصف محمّلة بالتراب تحجبُ الرؤيةَ فيتوقّف السيرُ على الطرقات، ويلجأُ الناسُ إلى بيوتهم. وفي شهر كانون الأول بدأ المطر، وكان مطراً موحلاً لطّخ الأرض.

- آه أتذكّر أنني تكلّمتُ مع أختي صفاء وحكت لي عن المطر الموحل.

- وفي منتصف ذلك الشهر حدثتْ عاصفةٌ شديدة امتدّت على مساحات واسعة، وبدأ المطرُ الغزيرُ بالهطول، فشكّل سيولاً مع الهواء الشديد. ولم يسلمْ بيتٌ من القرية من العاصفة، أو من دخول المياه إلى باحته.

- هل أثّرتْ على القبور في القرية يا أمّاه؟

- نعم. جرفَ السيل بعضَ القبور وسبّب مشكلة. خاصة القبور غير الموضوعة ضمن صناديق من الإسمنت.

فكّر متنهّداً! كأنّه عرف تفسير تلك الجثث: «الآن فهمت. يبدو أن قبور تلك المقبرة القديمة غير محميّة، فجرف بعضها السيل. أيكون السيل هو سبب خروج الموتى»؟

- ما بك؟ شردت بعيداً؟

- أفكّرُ في أمر حيّرني، وأحاول أن أفسّره علمياً.

- ما هو هذا الأمر؟ أهو الذي أخرّك عن الحضور إلينا؟

- قد تستطيعين أن تفسّري ما حدث لي. سأحكي لك.

* * *

كانت تستمع إليه مدهوشة:

- قلتُ لكِ أمي عندي حكاية فريدة غير مألوفة.

- قبورٌ جماعيّة لأولئك التعساء الذين لم تحاول السلطات هنا البحث عن قبورهم الجماعيّة، من تلك السنوات البعيدة، آه يا إلهي؟ يجب أن نتحرّك جميعاً في كل المنطقة لتكريم جثامين أولئك المساكين بدفنهم بشكل لائق.

- معكِ حقّ يا أمّاه، كيف ننسى تلك السنوات العجاف الطويلة التي مرّت على منطقتنا، وهي محمّلة بالوحشيّة وسفك دماء الأبرياء؟

- عندما ندخل إلى تلك الحقبة من تاريخنا نشعرُ بالتقصير الكبير بحقّ الناس الذين ذهبوا هكذا دون أن يذكرهم أحد.

- المشكلة يا أمّاه التزوير الذي حدث. لو حكى أولئك الأموات قصصَهم لغيّروا الكثير ممّا نعرفه من تبريرات ظلم الناس وأحلامهم في تلك الحقبة.

وفجأة رنّ جرس الهاتف، رفعت الأم السمّاعة:

- آلو. مَنْ؟ ابني هنا. يمكنك مخاطبته الآن. تفضّل.

ناولته السمّاعة سمع صوتاً في الطرف الآخر:

- اسمي غالب. وأريد أن أتكلّم معك الآن من فضلك.

- غالب؟ هل أعرفك؟

- كنتُ بين الناس الذين استمعتَ إلى أحاديثهم في المقهى الذي توقّفتَ فيه في طريقك إلى القرية. قابلتكَ على الطريق ربّما لا تتذكّر جيّداً.

- ربّما، ماذا تريد منّي أستاذ غالب؟

- أريدُ أن نلتقي ونتحادث حول موضوع الموتى! أنا صحافي، أراسل كبريات الصحف في العاصمة، أتمنّى أن أجري لقاءً صحافيّاً معك حول الموضوع.

- مَنْ الذي أعطاك رقمي هنا؟

- أحد أقربائك.

- أنا آسف أستاذ غالب ليس لديّ وقت لذلك. أنا عائد إلى عملي. ربّما في وقت آخر.

وضع السّماعة منزعجاً.

* * *

سادة القهر والمتعة

-١-

شعر بانقباض في صدره، وهو يتجه نحو السرير، لقد تأخّر في السهر وهو يقرأ تلك الأضابير التي كانت تحكي عن انتكاسات في الحالة الصحية في المدينة، لم تكن مألوفة. كأنما هناك فعلاً فيروساً غريباً ينتشر بين الناس. صحت زوجته عليه.

- هه. تأخّرت، إنها الثانية والنصف.

- كان يجب أن أنهي قراءة هذه الأضابير وأضع ملاحظاتي.

- تبدو مُجهَداً يا عارف. خير يا حبيبي؟

- أشعر بوخز في صدري. ربّما من الإرهاق.

- سأقيس لك الضغط.

- أشعر بالنعاس سأنام. لا داعي لإزعاج نفسك.

- لا يا عارف. لحظة أنا قادمة.

«آه يا إلهي، أشعر أنني مرهق. كيف سأعالج هذه الأضابير اللعينة»؟

قاست له الضغط:

- يا إلهي، الضغط منخفض كثيراً. خذْ اشرب الماء، سأعدُّ لك كأساً من العصير.

أجبرته على تناول كامل كأس العصير، قال لها:

- أشعر أنني أحسن حالاً يا سلوى. سأنام الآن.

- نعم يا حبيبي يجب أن تنام.

«ويلي عليك كم تعمل، وكم يؤلمك وضع الناس في بلادنا».

تأمّلته وهو يغفو ودمعت عيناها، كانت تعرف أنه يعاني في الأيام الأخيرة وقد كثرت حالات المرض القاتل المجهولة التي كانت ترد تباعاً إلى المستشفيات. كان اختصاصه الجرثومي قد أهّله ليستلم التقارير الواردة من كل مكان حول هذه الحالات المجهولة المتزايدة.

ما إن غفا حتّى بدأ يدخل في حلم غريب:

«ما الذي يحدث لي؟ أشعر أنني أدخل في دوامة، آه رأسي يدور»

- دكتور عارف أعانك الله على هذه المهمّة الصعبة.

كانت هناك أصوات أنين وآلام، كانت امرأة تشير له وهي مكتئبة:

- هذه هي دائرة المرضى الذين قتلهم المرض المجهول.

- كل هؤلاء؟ يا إلهي.

- قتلهم المرض، وليس سوى الجثث المكدّسة.

وفجأة صرخت المرأة برعب:

- يا إلهي، كأنهم لم يموتوا بعد، إنهم يتحرّكون.

قال وهو يراقب ما يحصل:

- إنهم يتجهون إلينا. ماذا سنستطيع أن نفعل لهم؟

- ما زال الفيروس مجهولاً! ما الذي يجب علينا القيام به؟

- يجب عليك اكتشاف سر الفيروس ومحاربته.

رأى جمعاً من الناس:

- أنقذوا أبناءنا ونساءنا وشيوخنا. فكّروا بالمرضى الذين سيموتون، وكيف سيمتدُّ المرض ليصبح وباءً.

- ليست الحالة مطمئنة، ماذا سنفعل يا دكتور عارف؟

- سأبذل جهدي للقيام بعمل ما.

ازدادت تأوّهات المرضى، وشعر عارف بأن الناس يحاصرونه وهم يتألّمون، ثمّ استيقظ وهو يلهث. كانت سلوى إلى جانبه:

- ما بك يا عارف، أنت تشهد كابوساً. استيقظ يا حبيبي. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ما بك؟ أنت ترتجف.

قال:

- كان كابوساً فظيعاً. كنتُ في وسط قتلى المرض المجهول، كانوا يطالبونني بكشف السر، وإنقاذ المرضى الآخرين.

- إنه عمل صعب، حتى الآن لم نكتشف عن الفيروس شيئاً.

- قد تتمكّن اللجنة العلمية من فرزه في المختبر الوراثي غداً أو بعد غد.

- إذن، لا داعي للقلق.

- نحن قلقون من انتشاره قبل أن نستطيع محاصرته تماماً.

- حاول أن تعاود النوم، تحتاج لمجهود كبير في اليومين القادمين.

* * *

منذ الصباح قصد عارف المخبر المركزي ليرى آخر النتائج التي توصّل إليها علماءُ الهندسة الوراثيّة حول طبيعة الفيروس القاتل.

- ما آخر النتائج يا دكتور سلمان.

- إنه فيروس يغيّر شكله وحمضه النووي، ولا يكاد يستقر على شكل أو تركيب. ومن هنا تكمن خطورته.

- أعتقد أنه فيروس مدجّن. وليس فيروساً عادياً.

- مع الأسف هذا ما تشير إليه الدراسات. المشكلة يا دكتور عارف أن المرضى يزدادون بسرعة، حتى إن المشافي بدأت تضيق بهم.

- مَنْ الذي يقف وراء نشر هذا الفيروس القاتل. حدّثني عن طبيعة المرض. وآخر ما وصلكم من نتائج؟

- ينتقل المرض بالملامسة وربما بالهواء، ويكمن في المريض لنحو الأسبوع، ثم يبدأ بمهاجمة المناطق التي فيها عظام أولاً ثم المناطق التي فيها أجهزة لها أغلفة قوية قاسية، حيث يحوّل العظام إلى سائل كلسي، ويبدأ الجسم في التهتّك والتحوّل إلى شكل لزج خلال ثلاثة أيام فقط، والنتيجة كتلة من السوائل والأجهزة الرخوة. وسط عذاب فظيع للمريض.

- أمر غريب.

- والمدهش أن الجلد الخارجي لا يتأثّر بذلك، بل يظلُّ محافظاً على تماسكه، حتى يبدو في نهاية المطاف كقربة تحوي سوائل الجسد وعظامه المتحلّلة.

- ماذا؟ كيف لا يتأثر الجلد الخارجي؟

- لا ندري يا دكتور. كلّفت فريقاً طبياً بالبحث في هذا السبب. لماذا لا يتأثّر الجلد الخارجي للجسم البشري بالفيروس.

نظر إلى ساعته وقال:

- لدينا اجتماع حول ما يجب أن نفعله، الوضع شديد الخطورة.

تناول سمّاعة الهاتف:

- آلو. غادة، هل حضر الجميع؟

- نعم يا سيدي. في انتظار حضورك.

- رافقني يا دكتور سلمان، يجب أن نجابه الكارثة بعمل سريع.

صحبه إلى الاجتماع الذي حوى خبراء الهندسة الوراثيّة وبعض أخصائي التحاليل الجينيّة، وبعض علماء الحياة الدقيقة، شكر الجميع، وبدأ بالقول:

- مع الأسف الشديد لم تظهر بعد ثغرة للتفاؤل، نحن نجابه أخطر وباء عرفه العصر، ولا نملك الأدوات اللازمة لذلك، كيف سنجابهه؟ وبأية وسيلة؟ عندما اطلعت على الملفّات أمس كاد قلبي يتوقّف.

- دكتور، يجب أن نبذل المستحيل لنحصل على الترياق المناسب. الوباء ينتشر وقد يحصد الكثير من الناس.

قالت مساعدته غادة:

- هذه رسائل وردت إلينا.

- عبر البريد الإلكتروني؟ ماذا تقول هذه الرسائل؟

- إنها تطالبنا بحرق جثث الموتى وحصر العدوى.

- هذا ما يجب أن تفعله السلطات يا غادة، أرسلنا توصيات تؤكّد هذا التوجّه.

- ولكن المرض ما زال ينتشر.

- ولن يتوقّف حتى نعثر على الحل.

كان يفكّر بقلق: «لماذا لا يتأثّر الجلد البشري؟ يجب أن أنطلق من هذه المعلومة»!

قطع عليه شروده، دخول المخبري المختصّ:

- دكتور عارف نحتاجك في المخبر لأمر مهم.

- ماذا؟ أنا قادم فوراً، أكملوا الاجتماع يا جماعة وليحاول كل واحد منكم وضع تصوّرات الحل.

لبس كمّامة ولباساً خاصاً واتجه وسلمان يقودهما المخبري إلى غرفة التحليل. دخلوا المخبر.

أشار المخبري إلى مواد مختلطة في صندوق صغير فتحه بتأنٍّ:

- انظر هذه بقايا الجثث، كل شيء فيها ذاب إلا الأجهزة التي تحوي أغشية مرنة، كأن هذه الأغشية تقاوم الانحلال.

- يعني، في داخل هذه الأغشية، كما في الجلد المقاوم يكمن السر. وربّما استطعنا الاستفادة من جينات الخلايا المرنة في استنباط الترياق.

- نعم. هذه الخلايا تحتاج لعزل في المجهر الإلكتروني.

- وعزل هذه الخلايا قد يعطينا أفكاراً جديدة لإيقاف المرض.

- نعم. سنطلب عيّنات منها حالاً.

شكر المخبري:

- هيّا بنا إلى المختبر الجيني يا سلمان. لا وقت لدينا.

شعر عارف بالغثيان، وأن رأسه يدور كمن يسقط في هاوية ولحظ الدكتور سلمان حالته. فقال:

- يبدو عليك التعب، اترك العمل وعدْ للبيت.

- لا. لا. يجب أن أصل إلى الحل. أدخلت الخلايا المختبر الجيني، أنا أتعامل مع (الجين) المختص بالأغشية المرنة.

ولكن حالة عارف بدأت تزداد سوءاً. فكّر سلمان:

- يا إلهي قد يكون مصاباً بالفيروس

كان عارف يتألّم وهو يكابر:

«أشعر أن شيئاً يطحنني، يطحن عظامي. التعب يزداد والخدر ينتشر في جسمي، يجب أن أقاوم حتى أصل إلى الدواء الشافي».

- عارف. هل أساعدك؟

- ضعْ هذه العيّنة في الكأس البلوري، وتابع مراقبتها. آه. أنا أنهار يا سلمان. يبدو أن الفيروس قد انتقل إليّ. ربّما تسرّب من مكان غير مؤمّن.

- لا يمكن أن يكون هو الفيروس الذي نبحث بشتى الطرق عن وسائل إيقافه. هو يحتاج لحضانة أسبوع قبل أن يبدأ بالتكاثر.

- إذن، أنا أتوهّم. آه. سأغيب عن الوعي يا سلمان.

سقط على الأرض.

-٢-

كان العصر مرعباً، وقد اجتاحت الإنسانية الأمراض والعلل الجديدة، وحوصر الناس بالجوع وذلّ اللقمة، واستباحت القوى العظمى، الشعوب الفقيرة، في حروب استباقية وفوضى، وأصبح الكوكب يعجّ بالمذابح والتفجيرات واستغلال الإنسان لأخيه. إنه النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين.

أفاق من كوابيسه، كانت سلوى إلى جانبه وهي تبكي:

- أنت بخير يا حبيبي.

- آه يا سلوى عشتُ كوابيس غير محتملة، وأنا أتخيّل ذلك الفيروس القاتل ينتشر بين الناس فيحوّلهم إلى قُرَب ليس في داخلها سوى السوائل.

- وكيف خطر ببالك أنك أصبت بالمرض؟

- من الأعراض التي اجتاحتني، وأنا رجل منهك الأعصاب.

- على كل حال، يبدو أن العيّنة في الكأس البلّوري، التي فصلتها في المختبر الجيني قد تكاثرت، وأصبحت في وضع يمكن تجريبها على المصابين بالمرض.

- أين سلمان؟

- سيحضر حالاً. كما قال لي.

- يجب أن نبدأ بتجربة هذا الترياق.

دخلت غادة:

- كيف حالك يا سيدي؟

- كيف حالك يا غادة، هه. تحملين ملفّاً في يدك.

- لن أزعجك بالتواقيع، أردتُ إبلاغك أن الفيروس القاتل، سببه قنبلة ألقيت قريباً من العاصمة، في منطقة شعبية مزدحمة بالسكان.

- كنتُ أتوقّع ذلك. فالفيروس ليس عادياً، يبدو أنه مدجّن في مخابر القوى العظمى.

- أمعقول أن يحملوا مثل هذا الحقد علينا؟

- لولا بحوثنا العلمية الجادّة والناجحة، لأفرغوا أرضنا من الإنسان، كأنهم يحتاجون هذه الأرض دون بشر.

- مسح الذاكرة ومسح الإنسان أيضاً، هذا أمر مرعب.

- علينا أن نقاوم فقط. وهذا بالذات ما يلجم انتشار مخطّطات تحويل الكوكب إلى عائلة للكبار، لا مكان فيه للشعوب الضعيفة كما يروّجون.

- أتسمح لي يا سيدي، سأترك لك هذا التقرير وأذهب.

- لا بأس يا غادة.

حضر سلمان، كان يلهث:

- كيف حالك الآن يا دكتور عارف؟

- الحمد لله، أصبحت قادراً على الوقوف. هه. يجب أن نطبّق ترياقنا على الإصابات الحديثة بالمرض.

- كنت في انتظار مثل هذا القرار. هيّا سأساعدك.

قالت سلوى:

- سأرافقكما، إن لم تمانعا.

- لا بأس يا سلوى. أنت طبيبة وقد نحتاجك.

ورغم محاولات عزل المرض، فقد انتشر في العاصمة، وكنتَ تسمع أصوات سيارات الإسعاف المنتقلة من مكان إلى مكان. كان الكوكب يمرُّ بمرحلة أشبه بكوابيس.

وبدأت محطّات الإذاعة تنقل الأخبار:

«عمّت الأمراض والعلل والحروب الصغيرة بلدان الجنوب برمّتها، وقد أكّدت التقارير أن تلك البلدان تتعرّض لأوبئة، ونقص في المواد الغذائية، وتلوّث بمختلف أشكاله، جعل الحياة لا تُطاق فيها».

«ورغم إغلاق العديد من سفارات دول الشمال في هذه البلدان، إلّا أن الإقبال على اللجوء إلى دول الشمال ما زال كبيراً، حيث تنتقي هذه الدول حاجاتها من الأدمغة، والخدم والعمال، بشروط بسيطة. وكأنما أصبحت دول الشمال هي الملجأ الحقيقي للبشر».

- أسمعت يا عارف؟

- نعم يا سلوى. هذه هي الكارثة الحقيقية. الترويج لفكرة الهروب لتتلقّف الدول العظمى الصناعية، حاجاتها من الخدم والطاقات العلمية. التي تهرب تحت ضغط الظروف إلى تلك الدول.

قال سلمان:

- يبدو أن الترياق قد أخذ بالتأثير. انظر الشاشة رقم (تسعة) يا دكتور عارف. إنّها تعرض ما يحدث من معركة بين الفيروس والترياق.

بدت الخلايا المرنة تطارد الفيروس وتحاصره، وتكوّن حوله غشاءً سميكاً.

تابع سلمان:

- يبدو أن الفيروس في طريقة للحصار.

- ولكن نشر الترياق يحتاج لكميات كبيرة من المادة التي تكوّن الخلايا المرنة.

- يمكن شحن الجين المشكّل للترياق بنشاط إشعاعي يجعله يضاعف من تعداد الخلايا بشكل سريع.

- معك حق. سأقوم بذلك سريعاً.

جلسوا يستريحون، وهم يتناولون العصير. كانت سلوى تتابع أخبار بعض المحطّات، قالت فجأة:

- يبدو أن المراسل الصحفي يعرض تحقيقاً عن انتشار المرض عندنا. تابعا من فضلكما.

«تعاني هذه المنطقة من العالم من انتشار مرض مجهول، يحوّل الإنسان خلال ساعات إلى كتلة سائلة بعد أن تنهش الفيروسات العظام وتطحنها».

غمغم سلمان:

- إنها مشاهد مرعبة.

أكمل المراسل الذي كان يعرض تلك المشاهد في تقريره:

«ويؤكد الخبراء الذين درسوا هذا المرض، أن السبب يعود إلى احتفاظ سكان هذه المنطقة من العالم، بآثارهم ومخطوطاتهم القديمة، فقد أدّى ذلك، إلى ظهور نوع من الفيروسات التي تتكاثر في مناطق الآثار القديمة، والمكتبات التي تضمُّ المخطوطات، بحيث تعجّل هذه الآثار والمخطوطات في احتضان الفيروس وتكاثره. ليصبح حالة مرعبة في انتشار بين الناس هناك».

«أسمعت يا سلوى؟ يتّهمون الذاكرة التاريخية بأنها تحرّض الفيروس القاتل على الانتشار».

«ويقول الخبراء إن هذه المنطقة من العالم تحتاج لثلاثة أشهر فقط لتصبح خالية من الحياة. وقد ضربت المناطق المجاورة، حصاراً كاملاً على حدودها لمنع تسرّب الفيروس القاتل إليها».

علّق سلمان:

- أصبحت القضية واضحة. يبدو أنهم يخطّطون لسحقنا ومسحنا من الخريطة.

قال عارف:

- عندما تنتشر مثل هذه الأخبار عندنا، ستصيب الناس بالذعر. وربما سيؤثّر ذلك على تعاطيهم مع المسألة بشكل مختلف.

- ماذا تقصد؟

- قد ينهارون من اليأس، ولا يتناولون الترياق.

- كأنك لا تعرف الناس هنا يا عارف. كلُّ هذه الوسائل الإعلامية، وتحريضها المستمر للناس عندنا، لا تؤثّر على أحد، لأن أهل بلدنا يعرفون من يقف وراء هذه المخطّطات. لا تأبه لذلك.

* * *

عندما عاد وسلوى إلى البيت، كان يبدو كثير التوتّر، سألته:

- ما بك؟

- أنا خائف يا سلوى.

- لا يجب أن تخاف، الإنسان عندنا قاوم كل أشكال البغي والظلم والحصار والمذابح آلاف السنوات وظلّ متمسكاً بشخصيته دون أن تؤثّر به كلّ أشكال البغي هذه.

-٣-

وبتنظيم مدهش بإشراف الدكتور عارف ومساعديه والدكتور سلمان وطلبته، بدأت مجموعات الإسعاف تنتشر بين الناس في العاصمة وحولها، توزّع الترياق الذي تقبّله الناس باندفاع وقد ظهرت آثاره الإيجابية سريعاً:

- رغم السرعة التي نجح بها علماؤنا في كشف الترياق المناسب للمرض القاتل، وصل عدد الضحايا إلى خمسة آلاف ونيف.

- ولكننا استطعنا إيقاف المرض المرعب.

- سنعيد لهذه المنطقة ألقها بسرعة، نحتاج لإعلام مبرمج لدحض افتراءات الإعلام المضاد.

- هناك لجان مختصّة بذلك، لا تقلق.

- أعلم ذلك، وقد كلفوني شخصياً بالإشراف على إحدى هذه اللجان

- إنهم يحاربوننا حتى في التشويش على محطّات الأقمار الصناعية.

- يعرف مهندسونا وخبراؤنا كيف يتعاملون مع هذه المسألة.

وجاء في تقرير إحدى المحطّات التابعة للقوّى العظمى:

«وردت أنباء مذهلة من تلك المناطق التي تحافظ على آثارها وتراثها، تفيد أن علماءها قاوموا المرض وانتصروا عليه. وهذا يشكّل سابقة ليس لها مثيل».

اجتمعوا وتبادلوا المشورة:

- نعم. سابقة ليس لها مثيل، استطعنا أن ننتصر على فيروساتهم المدجّنة في مخابرهم.

- يجب أن نجهّز أنفسنا لأنواع أخرى من الاجتياح.

- وهذا ما سنؤهّل به علماءنا الشبّان، ليظلّوا متأهّبين.

- يحاربوننا بالعلم.

- وسنتفوق عليهم إن كان الحذر هو شعارنا.

ورغم كل الحصارات المتعبة، ظلّت تلك المنطقة عصيّة على البرامج المخرّبة. لهدم الإنسان وذاكرته.

* * *

ها أنت يا عارف تدخل دائرة جديدة من الوجع، وقد كثرت المتاعب المبرمجة لإرهاقك. وإرهاق البلاد التي تنتمي إليها.

قال لسلوى:

- أتعلمين يا عزيزتي أشعر أننا مقبلون على أيام صعبة. لم ييأسوا بعد من محاولة هزيمتنا. ويعلم ما الذي يخبئونه لنا بعد هذا الفيروس المرعب الذي أهلك العديد من الضحايا.

- قد يكون القادم مختلفاً، ربما مصدراً وبائياً جديداً، ربّما فتنة.

- فتنة؟ ماذا تقصدين؟

- أشعر أن شيئاً يدور في الخفاء. ويجب أن نكون محتاطين منه.

- نحن نشتغل بالعلم، يمكننا مقاومة كل ما يوجّهونه لنا في هذا الجانب. أما في الجوانب الأخرى، فهي ليست من مهامنا.

- لا يا عزيزي. هذا الكلام غير دقيق. في الهندسة الوراثية قد يلعبون بالجينات فيحوّلون المفكّر في مخابرهم إلى مجرم.

- معك حق، يجب أن ننتبه لذلك.

* * *

فكّر عارف بحزن شديد، لماذا يريدون تدمير هذه البلدان، وحصارها وتهجير أبنائها المتفوّقين، لخدمتهم وخدمة التكنولوجيا عندهم؟ هل سيبدؤون في تحويل الأرض ربّما بعد أن تفرغ من أناسها، إلى مرتع لشركات الاستثمار والتنقيب؟ تقلّب في فراشه، وشعرت سلوى بثقل الهموم التي تحاصره، ضمّته بحنان:

- لا تكثر من الخوف من القادم، سنحاول بكلّ ما أوتينا من قوّة، إبعاد هذا الخوف.

- لم يغمض لي جفن. أفكّر في أن هجماتهم المستمرّة بأحدث ما توصّلت إليه مخابرهم، تريد زرع اليأس في نفوسنا.

- وماذا باستطاعتنا أن نفعل؟ المشكلة أيضاً أن بعض صنّاع القرار عندنا يبيعون ضمائرهم لقاء المال. ألا ترى مقدار خطورة هذا الإشعاع المنتشر في البادية القريبة؟ إنها نفايات دفنت هناك دون أية نزعة أخلاقية إنسانية.

- نفايات نووية؟ يا إلهي.

- بدأنا نرصد الكتل المدفونة عن طريق التصوير الإشعاعي المكثّف. ربّما مئات بل آلاف من البراميل غير المحكمة الإغلاق. التي ستؤدّي لكارثة سريعة.

- لماذا هذا الإصرار على تدميرنا؟ أين حوار الحضارات؟ أين العلاقات الإنسانية وحقوق الحياة؟

- آه يا عارف. كلّها شعارات غيّروا بها معنى الحياة الإنسانية. مَنْ الذي قتل الحياة في أحشاء النسوة عندنا، أليس ذلك الفيروس المبرمج الذي سبّب دماراً في إنتاج البيوض لدرجة جعل العديد من النسوة عقيمات. حرموهنّ نعمة الأمومة، التي هي إحدى دعائم وجود المرأة.

- لا عليك يا حبيبتي، هذا هو قدرنا. ماذا نستطيع أن نفعل. لأجل ذلك رفض سلمان الزواج على طريقة (أبي العلاء المعري):

- رغم الفارق بين توجّهات (المعرّي) وتوجّهات سلمان.

- سلمان أراد ألّا يحمّل لذرّيته أي إرث له علاقة بما يجري، فالأجيال الجديدة تعاني كثيراً من خطورة ما يحدث.

- نعم. نعم. لنحاول أن ننام. لدينا عمل كثير في الغد.

- معك حق.

-٤-

تقلّب كثيراً في فراشه وسلوى تراقبه بقلق ثمّ غفا، ونامت بعد أن اطمأنت أنّه ينام بعمق. استيقظت مبكّرة تعدّ الإفطار، وتهيّء حقيبة سفرها إلى البادية. كان موعد وصول السيّارة التي ستقلّها مع فريق عملها يقترب، ولم يصحُ عارف بعد.

رنّ جرس الهاتف، فأسرعت لرفع السمّاعة، لكنّ عارف كان قد سبقها في الردّ على الدكتور سلمان، أقفلت السمّاعة ودخلت تجهّز القهوة وهي تسمع ردود عارف على حديث سلمان، يبدو أن شيئاً كارثيّاً بدأ من جديد:

- وباء جديد يا دكتور عارف؟

- وباء جديد؟ من أي نوع؟

- إنه يهاجم الحيوانات من أي نوع وصنف ورتبة، يكتسح خلايا الحيوان فيخرّب نويّاتها.

- هذه هي الأعراض المكتشفة؟

- نعم على الأقل حتى الآن. لا ندري ما يحدث في المستقبل.

- لا بأس سألقاك في المخبر بعد نحو الساعة.

- في انتظارك يا دكتور.

سرد لسلوى ما قاله سلمان، ثمّ غمغم وهو يهزّ رأسه:

- أمعقول أن نتعرّض من جديد لمثل هذا الأذى؟

- يبدو أنها حرب وجود يا عارف.

- كأنهم يتسلّون بتجريب الأوبئة علينا.

- هم يتسلّون فعلاً، وحوار الحضارات وحقوق الإنسان وحق الحياة المكتسب للبشر؟ كلّها شعارات فارغة.

- نعم. هي فعلاً شعارات فارغة. لأنها لا تطبّق عند ساستهم عندما يوجّهون عنقهم ضد دول الجنوب.

- اسمع يا عارف. ليس سهلاً أن تنشر الأوبئة، إلا إذا اشتريت ذمم بعضهم. عندما تشتري الذمم تقتل الضمير. فيصبح كلُّ شيء مباحاً.

- معك حق. المشكلة في هؤلاء وبعضهم من عليّة القوم. هل سترافقينني إلى المخبر.

- لديّ مهمّة أخرى كما تعلم. دراسة النشاط الإشعاعي في منطقة البادية القريبة.

- أما زال الوضع غير مطمئن؟

- نعم. ستبدأ الحفّارات عملها غداً، أشعر أن شيئاً مرعباً في سبيلنا للكشف عنه.

ضمّها إلى صدره بحنان وقد طفرت دموعه:

- آه يا سلوى، أنت حبيبتي ورفيقة عمري وأم أولادي الذين هجرونا بعيداً، وليس سوى اتّصالات منهم في أزمنة متباعدة، المهمّ أنّهم يعيشون باستقرار وأمان.

- ماذا تريد أن تقول يا حبيبي؟

- إنّ ثقلاً كبيراً نتحمّله أنا وأنت، رغم حصارنا من قِبَل من باعوا ضمائرهم، ومحاولة إذلالنا وإبعادنا عن التدخّل فيما يجري.

- ونحن نقاوم بعيوننا المخارز المحيطة بنا. علّمتني يا حبيبي أن أفهم رسالة الحياة بطريقة مختلفة، وكلّما تقدّم بنا العمر، كنت أكتشف فيك المزيد من صفاء النفس وقوّة مقاومة الخطيئة، والتحدّي.

- الحياة رسالة، وكلّما زادت نزعة الخير عند الإنسان، كلّما سما تفكيره وأصبح نوراً يقاوم الشرّ المستفحل من حوله.

- جهّزت لك إفطاراً سريعاً، وقد لا أعود من مهمّتي في البادية سريعاً.

- انتبهي لنفسك يا سلوى ولا تنسي أنّك نسمة الحياة عندي.

- يا حبيبي.

انفجرت تبكي وهي تضمّه، وتغمغم:

- انتبه لنفسك أرجوك ستنتهي حياتي إن أصابك مكروه.

ودّعها وهو يوصيها بالحرص، وأوصلها إلى الحافلة الصغيرة التي تنتظر في الخارج، ثمّ ارتدى ثياب العمل واتجه إلى المخبر.

* * *

- انظر يا دكتور عارف، أثر هذا الشيء المرعب. أدخلنا فأراً مصاباً، فأهلك العديد من حيوانات التجارب رغم إغلاق الكابينات وعزلها. وهذا قد يؤدّي إلى الانتشار السريع في البيئة المفتوحة في الخارج.

- لا وقت لدينا، يجب أن نوقف نفوق الحيوانات. لو امتدّ الوباء إلى قرانا ومزارعنا، لكانت الخسارة هائلة. ولا نعرف بعدما أثر ذلك على الإنسان. هل يتأثّر الإنسان من أكل حيوان مصاب، العلّة غير ظاهرة عليه؟

- يبدو الوضع مشوشاً، جمعت كل العاملين في علم الأوبئة والأمراض قبل قليل ووضعتهم في الصورة. سنبذل أقصى ما نستطيع.

- ليعيننا الله.

-٥-

كانت سلوى تفكّر طيلة الطريق بما يمكن أن ينتظرها في البادية المطلّة على تدمر. وعندما وصلت ودرست التقارير، قرّرت حفر المناطق التي يخرج منها الإشعاع.

أخذت تراقب العمّال والفنيين والخبراء المساعدين لها، ثم انفجرت في وجه بعضهم:

- قلت لكم ارتدوا جميعاً ملابس الحماية من الإشعاع فوراً، بدأنا ندخل مرحلة الخطر، الحفارة تكاد تصل إلى المستوى الأعلى من العيّنات المدفونة.

قال أحد مساعديها:

- لماذا لا ترتدين اللباس أنت يا دكتورة؟ إنه إلى جانبك في هذه الحقيبة.

اعتذرت بلطف:

- نعم. نعم. معك حق.

ثمّ تابعت تقول:

- افتحوا أجهزة الصوت والاستماع قبل أن تثبّتوا خوذة الرأس جيداً.

قال مساعدها:

- سأدور بينهم لأتأكّد من تطبيقهم لتعليمات الحماية.

- أعاننا الله. سيكون الخطر شديداً.

جاء مشرف المواد التي تمتصُّ الإشعاعات:

- دكتورة. أحضرنا كلَّ المواد التي طلبتها.

فكّرت خائفة «تُرى، هل ستكفي هذه المواد لامتصاص أضرار هذه النفايات؟ يا إلهي أعنّا».

قالت الخبيرة المساعدة:

- تبدين قلقة؟

- بالطبع يا علياء. قد لا تكفي هذه المواد.

- سنستغرق وقتاً طويلاً قبل أن نعرف النتيجة؟

- نحو الساعة تقريباً. المواد التي سنلقيها، شرهة لامتصاص الإشعاعات والنيوترونات الشاردة.

- والبراميل المحكمة الإغلاق؟

- ستتأثّر بالبراميل الأخرى، لذلك لن يفيد إغلاقها المحكم في شراهة المواد المكثّفة التي ستلتهم ما في داخلها.

- يبدو الوضع معقّداً؟

- نعم يا علياء. وشديدة الخطورة. ونحن الأكثر تعرّضاً للخطر، إذا لم تكن المواد المكثّفة النيي نلقيها سريعة العمل.

قال المهندس المسؤول عن الحفّارات:

- وصلنا إلى بداية المستوى الأعلى للبراميل.

- اذهبي إليه يا علياء. واطلبي منه البدء بإلقاء المواد المكثّفة داخل أنبوب الحفارة. قبل أن تخرج الإشعاعات القاتلة من داخل الأنبوب.

- حاضر يا دكتورة.

اقتربت منه وهي تصرخ كان صوت الحفّارة ملعلعاً:

- أنت جاهز؟

- نعم يا دكتورة علياء. هل أفتح الأنبوب؟

- سريعاً. وابتعد قليلاً عن الفوهة. لا وقت لدينا.

صرخ قائلاً:

- بسم الله.

بدأ بإلقاء المواد، ووصلتهم أصوات الارتجاج والغليان الداخلي، قالت علياء:

- فور وصول المواد بدأت بالعمل.

كانت علياء تراقب الأجهزة:

- المنسوب يقلُّ بسرعة. أعتقد أنك قلت إنّ العملية قد تستغرق نحو الساعة. هذا ما أكّدته الدكتورة المشرفة.

قال المهندس:

- قد لا نستغرق سوى دقائق.

- لا. انتبه. المنسوب يتباطأ في الهبوط. ربّما كانت التفاعلات الأولى سريعة، التهمت الكثير من المواد المكثّفة.

-٦-

وفي داخل المخبر، كان فريق العمل يعاني من قسوة ما يجري. فالوباء الجديد كان سريع الانتشار بين الحيوانات. والسبب فيروس مدجّن آخر يهاجم الحيوانات الفقارية ويخرّب نويّات الخلايا:

- لماذا الحيوانات الفقارية يا سلمان؟ ألا تتأثر به اللافقاريات. مثل الديدان والحشرات وغيرها؟

- لا. لا تتأثّر به.

- رغم وجود الخلايا الحيّة بها، إذن العظام هي التي تساهم في نقله.

- فكّرنا بذلك، واتّضح لنا أن نقي العظام نفسه هو الذي يساهم في نقل الفيروس، إنه يشكّل مرتعاً لتكاثرها.

- بينما لا تتأثّر الحشرات والديدان به. يجب أن نعثر على سبب عدم التأثّر هذا؟ هل هو الغلاف الكيتيني للحشرة؟ أم قدرة يرقات الديدان على المقاومة؟

قال سلمان مستفهماً:

- الغلاف الكيتيني؟

ثم صرخ:

- سلمى. أين أنت؟

جاءت سلمى سريعاً:

- خير يا دكتور.

قال سلمان يعرّفه بها:

- الدكتورة سلمى ابنة أخي يا دكتور عارف، إنها مختصّة بعلم الحشرات.

هزّ عارف رأسه مرحباً:

- عظيم يا سلمى. أريدك من فضلك أن تدرسي علاقة (الغلاف الكيتيني) للحشرات في مقاومة الوباء.

- آه. فهمت. سأنتقل إلى قسم المخبر (الحشري) فوراً. تعال معي يا وائل.

- نعم يا دكتورة. أنا جاهز.

- دقائق وتكون النتيجة أمامك يا دكتور عارف.

- شكراً يا ابنتي. دكتور وائل، أنا أعتمد عليكما. أعتقد أنكما فهمتما ما أريد.

- بالطبع يا دكتور. سنرى بعض سحق الكيتين وتحويله إلى سائل بخّاخ ماذا يمكن أن يفعل أمام هجمات الوباء الجديد. هيّا يا سلمى.

* * *

وفي القرية المجاورة لمنطقة الحفر، فوجئ الأهالي بروائح غريبة تنتشر في الجوّ. وتسبّب لهم عسراً في التنفّس. كانت السلطات قد حاولت إخلاء القرية بعد ورود الأخبار عن نشاط إشعاعي مجهول في المنطقة. ولكن الأهالي رفضوا المغادرة، لخوفهم أن تصادر السلطات بيوتهم وأملاكهم كما حدث لإحدى القرى القريبة منهم التي انتشر فيها الوباء الذي يحوّل الإنسان إلى ما يشبه الكيس بعد أن تذوب كل أجهزته داخل الجلد المقاوم. سألت سلوى علياءً:

- هل فحصت الغازات المنتشرة هنا؟

- نعم. وكانت النتائج لا تنذر بالخطر، فالغازات المنتشرة هي غازات كبريتات الهيدروجين وكبريتات الآزوت، التي تشبه روائح البيض الفاسد.

- السبب هو هذه التفاعلات التي تجري في قلب منطقة النفايات المدفونة. أعتقد أن عليك أن تبلّغي الأهالي أن لا خطر حقيقي من هذه الغازات.

- سأفعل يا دكتورة.

وأوصلت علياء الرسالة إلى أهالي المنطقة، أنّ الغازات الخارجة من الأرض إبّان التفاعل، ليست خطرة على الحياة. وفي أحد البيوت القريبة:

- فعلاً. نكاد نختنق. ولكن قالوا لنا: لا خطر من هذا الغازات على حياتنا.

- إنها روائح كريهة، كأنّها تصدر عن أنابيب الصرف الصحي، وفضلات الإنسان.

- أنت تشعر بالقرف فقط، احضر بعض علب الكولونيا وانثر محتوياتها في الجو، وسنغلق الباب، عسى أن نوقف وصول هذه الغازات كريهة الرائحة.

- جرّبت ذلك دون نتيجة يا أمي.

- جرّب أن تغلق الباب، وتمنع الغازات من الوصول.

- سأفعل يا أمي.

* * *

«وردت أنباء من بعض بلدان الجنوب عن انتشار وباء يصيب الحيوانات ويدمّر نويّات خلاياها فيقتلها خلال مدّة قصيرة. ويقول مراسلنا أن آلاف من حيوانات الرعي والحيوانات المدجنّة قد نفقت. وهذا ما سيؤدّي إلى كوارث بيئية واقتصادية شاملة. وإليكم بعض مشاهد لهذه الحيوانات الميّتة التي انتشرت جثثها في كل مكان».

علّق سلمان:

- من أين تمكّنوا من الولوج إلى هذه الأمكنة المحصّنة؟ لا بدّ وأن التصوير يجري بطريقة سرّية.

- الأقمار الصناعية تنفذ إلى كلّ الأمكنة، أصبحت تقنية التصوير مرعبة جداً. ماذا جرى للعاملين في المخبر الحيوي؟ هل توصّلوا لشيء؟

- نعم النتائج باهرة، كما توقّعت أيها الخبير الذكي، مصل الكيتين يقاوم الوباء.

كانت سلمى تبتسم كالمنتصرة:

- الحمد لله. سيصبح مصل (الكيتين) هو الكاسح الحقيقي للوباء. سوف نتمكنّ من إيقاف زحف المرض والقضاء عليه؟ كما فعلت الدكتورة سلوى في مجمّع النفايات النووية.

- بارك اللهّ بك.

رنّ الهاتف قربه، رفع السمّاعة، كانت المتّصلة هي سلوى:

- عارف حبيبي افتح القناة الثامنة هناك حديث مهم لأحد المسؤولين.

حرّك الجهاز على تلك القناة، قالت سلوى:

- تابع اللقاء، وقل لي ما رأيك، سأتصل بك حين ينتهي اللقاء.

تابع أسئلة وأجوبة المسؤول:

- نحن كما ترين ما زلنا أوج قوتنا.

- ولكن النفايات النووية أودت ببعض سكان المنطقة.

- المشكلة هو التسرّب نتيجة وضع النفايات في براميل غير محكمة السدّ، لو كانت النفايات مدفونة على الطريقة العلمية الصحيحة لما حدثت مثل هذه التسرّبات.

- كيف سمحتم بدفن هذه النفايات في بلادكم؟ ألا تعلمون خطورتها على الناس؟ لا بدّ وأن بعضهم قبض مبلغاً كبيراً.

- لا أريد أن أدخل في التفاصيل! المهم، إننا عالجنا المشكلة.

- يُقال إنكم من أدخلتم هذه النفايات وقبضتم الثمن؟

- أنا؟ لا. هذا غير صحيح! أنا كنت عضواً في اللجنة التي أقرّت الموافقة على دفن هذه النفايات، لقاء بناء مصنع (للعلكة) الخالية من السكر. تعرفين مدى انتشار مرض السكري عندنا.

- مصنع للعلكة غير المحلّاة؟ معقول؟

- انتصرنا في معركة بناء المصنع الذي يدرّ مئات آلاف الأطنان من العلكة التي توزّع حتى في الدول المجاورة.

- ألم تروا خطر النفايات المشعّة على أهالي القرى البدوية التي دفنت هذه النفايات في منطقتها؟

- هناك الكثير من البلدان تدفن النفايات في أراضيها مقابل مشروعات تنمية.

- كمصنع للعلكة؟ هه؟ لا بدّ وأنكم أيضاً أخذتم بعض هذه المبالغ. أي أضيفت بعض هذه المبالغ إلى حسابكم. أليس كذلك؟ جزء من الصفقة. هه؟

- لماذا تسمّينها صفقة؟ هي عمل تنموي.

- عمل تنموي؟ أنتم جزء من مجموعة متسلّطة مغرورة، تبيع بلدها مقابل حفنة من المال. أتعلم أن أهلي قتلوا بواسطة هذه النفايات. ماذا أقول لكم.

- قتلتهم هذه النفايات؟ أنت تخرّفين يا آنسة.

- كان أخي الكبير يحفر في الأرض بواسطة حفّارة صغيرة، من أجل الوصول إلى الماء، فاندفع سائل ناري أشبه بالطلاء بلون اللهب

لدرجة أنه اعتقده نوعاً من الطلاء. بل وأصرّ على استخدامه في دهن بيته وتلوينه. وخربت الأشعة الجلد والعيون. وبدأت قطع الجسم تتساقط وسط آلام فظيعة. أنت وجماعتك أيها الرجل القبيح قتلتم أهلي بدم بارد.

- هذا خطأ أخيك وليس خطأنا. هه.

قال عارف:

- أسمعت يا سلمان؟ هؤلاء أناس مجرمون.

- بالتأكيد. ولكنّ المهم الآن أن النفايات أصبحت مأمونة، وأن الوباء توقّف. بفضل الدكتورة سلوى.

- يجب أن نعالج الخروقات التي تحدث بين صنّاع القرار عندنا، من السهل أن تشتري ضمائرهم. وتدمّر البلد.

- وماذا باستطاعتنا أن نفعل؟

- نضغط عليهم، البلد تتعرّض لهجمة شرسة من الأوبئة المبرمجة وقوى الظلام التي تريد السيطرة على كل شيء هنا. متناسين أنهم بذلك يدمّرون كلّ شيء، والسيل سيجرفهم في النتيجة.

زفر بحرقة ثمّ قال مغيّراً الحديث:

- طمئنّي يا دكتور سلمان هل أعضاء فريق عملك كلّهم بخير؟

- نعم يا دكتور. الحمد لله. ألن نذهب إلى هناك؟

قال شارداً:

- نعم. بعد أن أنتهي من عمل كنت أؤجل القيام به.

- سأكون هنا بانتظارك.

-٧-

كان عارف قد قرّر أمراً شكّل له هاجساً في الأشهر الأخيرة وقد تلاحقت الأحداث لدرجة أنه لم يستطع القيام به رغم أهميته. وذلك بسبب خطورة هذه الأحداث وكارثيتها. أمسك بسمّاعة الهاتف وبدأت أصابعه تضغط على أرقام معينة، ثم سمع رنين الجرس في الجهة المقابلة. قال بهدوء، مخاطباً من على الطرف الآخر من الخطّ:

- كيف حالك يا سيدي.

- أهلاً بك يا عارف يا بني. ألم أقل لك لا تخاطبني بهذه الكلمة؟

- أنت أستاذي ومعلّمي. وسيدي أيضاً.

- لم تتصل بي منذ أشهر، أعلم أنك تعاني الكثير مع فريق عملك بسبب فداحة الأحداث المتعاقبة. تريد رؤيتي؟

- نعم. بأسرع ما أستطيع.

- أنا بانتظارك في بيتي الصغير.

- حسناً أنا قادم.

كان الشيخ الذي كلّمه عارف يسكن في ضاحية هادئة في المدينة، وتقوم على خدمته ابنته التي ترمّلت منذ زمن بعيد. وصل عارف في سيارته السريعة إلى الساحة المطلّة على بيت أستاذه. ثمّ طرق الباب فوجد الشيخ يقف أمامه مبتسماً:

- أهلاً بك يا بني. تفضّل.

- الحمد لله ما زلت تتمتّع بقوتك.

- تفضّل اجلس. أقلقتني، ليس من عادتك أن تكون متوتّراً إلى هذا الحد. أعتقد أن شيئاً خطيراً يدور ببالك.

- فعلاً يا سيدي.

- ابنتي خرجت في حالة طارئة ستعود بعد قليل. هل تريد أن أعدّ لك الشاي أم القهوة؟

- أريد أن أتكلّم معك فقط الآن. أنا أعاني يا سيدي ويعاني معي فريق العمل العلمي، إنهم يضحّون بالناس، ويبيعونهم من دون أي إحساس. نحن نكتشف حقائق مذهلة كل يوم.

- تكلّم أنا أسمعك.

- نفايات نووية تدفن في مناطق مسكونة بطرق غير سليمة، فيروسات مدجّنة تُلقى خارج المدن، أو تدخل ضمن علب أدوية مستوردة، أو أغذية معلّبة. وفق بوابات خضراء غير خاضعة للتفتيش، بواسطة الرقابة البيئية.

- المهم هو هذه البوابات الخضراء. من الآمر عليها، والمتحكّم بها؟

- المشكلة أن الأمور متداخلة. ولكلٍّ حصته في الغنيمة.

- خدم وأسياد، للخادم الفتات للسيد كلّ شيء.

- وماذا سنفعل يا سيدي؟ أعلم أننا لا نستطيع أن نغيّر الكثير ولكن ماذا سنفعل؟ وصل الهجوم على منطقتنا حدّاً مرعباً، لا نكاد نرتاح من مصيبة حتى تأتينا مصيبة أخرى. آه يا سيدي. كنتَ سندنا والجدار

الذي نتّكئ عليه حين نطلب الأمان، لم نعد نصبر على ما يحدث. نخاف من القادم المجهول.

- آه. يا بني. لا بدّ من الوقوف أمام كلّ هذا السيل الجارف من الكوارث قدركم أن تقفوا وتقاوموا حتى آخر لحظة.

- لماذا لا تعود إلينا يا سيدي؟ قد يعطينا مجيؤك (الترياق) للسموم القادمة إلينا من كل مكان.

- هذا صعب يا بني، إن لم يكن مستحيلاً.

- لماذا يا سيدي؟ أهي القصّة القديمة؟ لا أعرف سوى القليل عن تفاصيلها، ولكن علينا أن ننسى كل شيء في سبيل مقاومة الغدر القادم من كل حدب وصوب.

- عُدْ إلى مركزك وتابع أبحاث جيناتك الوراثية، لديّ مهمّة سأقوم بها ثم آتي لزيارتكم.

- الحمد لله. قد نقنعك بالانضمام إلينا. نرجو أن تعود إلينا. نحن بحاجة إليك.

* * *

تنهّد الشيخ وقال وعيناه تنظران في أفق غير مرئي:

- اجلس يا عارف، يبدو أنني سأحكي قصّتي أخيراً وكنت قد وطّنت نفسي على كتمها كل هذا الزمن. السخّان إلى جانبك يمكنك أن تجهّز لنا قهوة سريعة، أحتاجها لأغرق في ذكريات الأعوام التي كنت فيها أمارس دوري كعالم، وأملك قوتي وحريتي. اسمي لم أستخدمه منذ زمن

بعيد يلقّبونني بالحكيم، وكنتُ مسروراً لذلك، رغم أن هذا اللقب كان يطلق على الأطبّاء وعلى بعض من يمارس الطب.

- ربّما كان هذا اللقب له احترامه عند الناس في ذلك الحين؟

- نعم، اسمي الحقيقي هو (غدير) سمّاني به أبي تيمّناً باسم جدّي، وجدّ جدّي كان اسمه غدير وهكذا. كنتُ الأكبر فعليّ أن أحمل الاسم. على كل حال هو اسم لا بأس به من حيث المعنى. المهم، كنتُ متفوّقاً في دراستي منذ الطفولة، وقد كانت أسرتنا كثيرة العدد نعيش في القرية. كنتُ الأكبر والأقرب لوالدي، وكانت أسرتنا مكوّنة من خمس بنات، وخمسة صبيان. بعض أخواتي دخلن المدرسة وأتممن تعليمهن، وواحدة منهنّ لم تدرس عملت بالخياطة، وأخوتي الأربعة فشلوا في الدراسة فانضموا إلى أبي يعملون في الأرض.

ولا أنسى ذلك اليوم الذي دخل فيه والدي مبتهجاً ينادي أمّي:

- أم غدير أين أنت؟

- أنا هنا. في المطبخ. خير؟

- نجح غدير في الثانوية بدرجة ممتازة، أبلغني مدير المدرسة أنهم يريدونه في العاصمة، يبدو أن تفوّقه أكبر من اللازم.

- ماذا تقصد أكبر من اللازم.

- أعتقد أنه من الأوائل في الثانوية.

كنت مع رفاقي في البساتين المحيطة بالقرية، حين أبلغني أحدهم أنّ مدير مدرستنا كان فرحاً وهو يحضر الجريدة التي نشرت فيها أسماء الناجحين في الثانويّة، ويقول بصوت مرتفع:

- غدير ابن قريتنا هو الأوّل في الجمهوريّة.

شكرتُ رفاقي، وجريتُ مسرعاً لأبلغ أهلي، وحالما دخلتُ اندفعت أمّي نحوي وهي تبكي:

- مبروك يا بنيّ. نجحتَ بالبكالوريا.

ضمّني أبي إليه وهو يقول بفخر:

- قالوا لي أنّك من الأوائل.

قلت بخجل:

- أنا الأول في كل البلاد يا أبي. الأول على الجميع.

- الحمد لله. يعني قد يطلبونك في العاصمة؟

- لا أعرف. لكن ربّما حدث ذلك.

قالت أمّي:

- منى عيني أن تصبح طبيباً له شأنه.

- جهّزي الضيافة يا أمّ غدير سيأتي إلينا الناس ليباركوا نجاح غدير.

- آه يا غدير بيّضت وجهنا لا ريب أن كل أهل القرية سعداء بنتيجتك.

- بالطبع يا امرأة. هرعوا إليّ يقبلونني ويباركون لي.

-٨-

ارتدى أبي أجمل ثيابه وصحبني إلى الناحية المجاورة حيث صعدنا بالقطار المتّجه إلى العاصمة، وركبنا (المترو) في اتجاه العنوان الذي حدّده

مدير المدرسة لوالدي. كان بناء ضخماً! رافقنا لدى دخولنا أحد الموظفين لنستقل المصعد إلى الطابق السادس عشر. همس والدي:

- لا تخف يا بني. سنصل بسرعة.

- السيد رئيس الوزارة مهتم شخصياً بالفتى. وسيقابله لوحده.

- سأكون معه بالطبع؟

توقّف المصعد، ورافقنا الرجل إلى مكتب رئيس الوزارة، قال مدير المكتب:

- السيد رئيس الوزراء بانتظاركم.

قال الموظّف الذي رافقنا:

- وصلنا الموعد بدقّة. خفتُ أن يتأخّر الصبي ووالده لدى حضورهما من القرية.

قال والدي:

- ليس من عادتنا أن نتأخّر عن المواعيد يا سيدي.

- لا بأس.

ضغط على أحد الأزرار أمامه:

- سيدي. الصبي ووالده وصلا.

ثم وقف وهو يبتسم:

- تفضّلا.

وقال للموظّف الذي رافقنا:

- انتظر أنت هنا لاصطحابهما في طريق العودة، قد يطلب منك المعلم أمراً عاجلاً.

وجدتُ نفسي ووالدي في غرفة واسعة مليئة بالمقاعد المزخرفة الفخمة، وجلس رجل أصلع الرأس، كان سميناً بعض الشيء، خلف مكتب فخم. سلّم علينا مبتسماً:

- أهلاً بك يا بنيّ. قمتَ بعملٍ عظيم، أنتَ الأوّل في كل أنحاء الجمهورية، والسيد الرئيس فخور بك، وقد أبلغني أن أهتم بك اهتماماً استثنائياً.

قال والدي:

- شكراً لك يا سيدي.

- نحتاج لصبي نابغة يسافر ليدرس اختصاصه في أحدث الجامعات، ويعود إلينا ليقدّم علومه وخبرته لمخابرنا ومعاملنا. اقترحنا أن تدرس فرعاً له علاقة بالهندسة الوراثية والجينات لأنه عمل يحتاج لعبقرية وأنت تتمتّع بها.

قلت مرتبكاً وقد احمرّ وجهي:

- أنا جاهز لذلك يا سيدي.

- أنت والده، طلب السيد الرئيس منّي أن أقدّم لك مكافأة مالية، تساعدك في حل مشكلاتك المادّية، موسم الأمطار هذا العام لم يكن جيداً. لذلك جفّت الآبار.

- لا بأس يا سيّدي. نحن نصفّي المياه الملوّثة بالفلاتر، لم نعدها إلى الأرض. نستثمرها من جديد. ابني يعتقد أن الأمطار سيخفُّ هطولها لسنوات.

- عظيم. يبدو أن غديراً قد خضع لبعض ما تتداوله وسائل الإعلام وهو ليس دقيقاً. الأمطار أوجدنا لها الحلول التقنية لتستمر بالهطول.

قلت محتجّاً بصوت خافت:

- لم أفهم يا سيدي. أنا لم أقل شيئاً يعبّر عن ثقتي بوسائل الإعلام.

- أقصد أنه قيل لي أن لك آراء مختلفة، بالهندسة الوراثية وأن استخدام الجينات لحل المشكلات، وخاصة الصحّية، أنت لا توافق عليها إلا بعد أن تضبط جيداً. أقصد ضبط العاملين والأجهزة.

- نعم يا سيدي هذا حقيقي، العملية تحتاج لصبر وانتقاء جيد للعاملين، ثم للأجهزة المتطوّرة المأمونة والمُصانة. كيف عرفت عنّي ذلك يا سيّدي؟

ابتسم:

- نحن نعرف كلّ شيء يا بنيّ. تبدو ذكياً.

- ما دمت فتحت هذا الموضوع يا سيدي. سأقول لك شيئاً. لا يمكن إنتاج المطر، إذا لم يكن هناك سحب، يمكن أن تتحكّم بالاستمطار بأن تنزل المطر من سحب مكتومة في أية منطقة ترغب. ولكنك لا تستطيع التحكّم بتشكّل السحب.

- وماذا أيضاً؟

- الذين يعملون في علم الهندسة الوراثية يجب أن يكونوا مؤهّلين للبحث، لذلك يجب أن يُنتقوا من المتفوّقين المؤمنين بوطنهم.

- أنت فعلاً قد تصبح ذا فائدة كبيرة لنا.

ضغط على أحد الأزرار، ليدخل مدير المكتب الذي انحنى أمام رئيس الوزارة:

- أوصل هذا الشاب إلى المركز. سيتولّونه بالرعاية.

- هل أذهب معه؟

- لا. ستراه فيما بعد، ولكن الآن ستعود إلى قريتك ومعك مكافأة مالية، سنتصل بك حين موعد لقائك معه.

- ولكنه يحتاج لملابس وغيرها. لم نحضر شيئاً من القرية.

- سيتكفّلون بكلِّ شيء لا تقلق. وسيصلكم راتبه الشهري إلى القرية.

- مع السلامة يا غدير. مع السلامة يا بني.

ضمّني أبي إلى صدره وهو يبكي بصمت، همست له:

- قبّل أمي وأخوتي، واطلبْ من أمّي الدعاء لي.

قال رئيس الوزراء:

- خذْ هذا الشيك، ستصرفه من السكرتيرة في الخارج.

- الآنسة التي رافقت ابني؟

- لا. تلك التي في المكتب المجاور. كبيرة في السن، شعرها أشيب.

- حسناً. شكراً لك. هل أطمئن على غدير؟

- نعم. هو في مكان آمن لا تقلق عليه.

لم أرَ أهلي بعد ذلك إلا بعد سنوات، كنتُ أراسلهم إلى عنوان المركز ولا أتلقّى ردّاً، ولم أعرف كيف أتصل بهم في الهاتف، فلم يكونوا يملكون هواتف نقّالة أو ثابتة كما كنت أعتقد.

قال عارف:

- رغم أن التقنية وصلت إلى كلّ المدن الصغيرة والقرى حتى تلك البعيدة في الصحراء. كالهواتف النقّالة والهواتف الثابتة. امتلاك الهاتف عملية سهلة. يمكن لأي إنسان أن يمتلكه.

- هذا صحيح، ولكن يبدو أن والدي لم يفكّر بمثل هذا الجهاز المهم. هكذا كنتُ أعتقد.

- ولم يبادر أيٌّ منهم للاتصال بك على الأقل؟

- هذا ما جرى بالضبط. لم أتلقَّ رسالة أو اتصالاً منهم.

- حسناً. درست في جامعة متطوّرة؟

- بل درست في مركز بحوث، به مخابر متطوّرة مذهلة، درست فيه ست سنوات متواصلة لأتخرّج برتبة خبير، وهي رتبة لا تعطى للأجانب أبداً. ثم عدتُ إلى الوطن.

- رأيت أهلك بعد ذلك؟

- نعم. سأحدّثك بالقصّة.

زفر وهو يسترجع ذكريات تلك السنوات:

- لا أدري ما الذي جعل والدتي تعتقد أنني كنتُ ضحيّة صفقة باعني فيها والدي للدولة، التي أخذتني بعيداً، وحرّمت عليّ الاتصال بأهلي وأي فرد من أقربائي.

- يعني لم تصل رسائلك إليهم؟

- نعم. وهذا ما جعل أمي تبدأ مشاجراتها مع والدي حول تلك الصفقة التي اعتقدتُ أنه وقّعها مع المسؤولين في الدولة. وكان والدي يحاول الالتقاء مع أي من المسؤولين في ذلك البناء دون أن يستطيع. لم يكن يعرف الآلية هكذا قيل لي بعد ذلك.

قال لي المسؤول وكان برتبة أمنيّة كبيرة:

- اسمع يا دكتور غدير، أنت الآن خبير استثنائي عندنا، لا نستطيع أن نجعلك تقابل من تشاء، أنت في مركز له علاقة بأمن الدولة.

- وهل سأرى أهلي يا سيدي؟

- بالطبع. وستقول لهم ما سنقوله لك بالضبط. لدينا مشروع مواجهة مع العدو، وأنت بطله الحقيقي. يحاربوننا بالعلم، سنحاربهم بالعلم. عيونهم وجواسيسهم قد يصلون إليك، ونحن إن خسرناك خسرنا الكثير من أساليب المواجهة. لذلك أنت محصّن عندنا بكل التقنيات التي تمتلكها أجهزة الأمن المتطوّرة، حتى لا يصل أحد إليك.

- فهمت يا سيدي. أنا جاهز.

قابلتُ أهلي، والدي المتعب ووالدتي المريضة، وشرحتُ لهم أنني أخدم في الجيش، في أمن الجيش، وأن مهامي شديدة الخطورة وأن قدرتي وإمكانياتي العلمية، تحت تصرّف الوطن. في مواجهة العدو.

- تفهّموا ذلك.

- نعم. ضمّني والدي إليه، ووالدتي كانت تبكي. وطلبت مني أن أتصل بهم كلّ أسبوع مرّة ليطمئنوا عليّ. ودخل أحد أولاد أختي.

- خالي غدير، كنت أحلم أن أراك.

- أهلاً بك يا حبيبي. ستراني دائماً.

- أنا أحاول أن أكون مثلك، قالت لي أمي أنك كنتَ الأول في كلّ البلاد.

- وستكون الأول إن شاء الله.

- وعدتني أن تراني، أعطني رقم هاتفك النقّال، سأتصل أنا بك.

وجاءت أختي وهي تبكي:

- أخي غدير. حمداً لله أنني رأيتك.

- أهلاً بك يا أختي الحبيبة.

- لماذا هذا الغياب الطويل. اشتقنا لرؤيتك، وخفنا أن يكون قد جرى لك شيء، أو تعرّضت لخطر؟

- أنا بخير يا غادة لا تقلقي، كنتُ أدرس في الخارج، وأرسلتُ لكم رسائل كثيرة، يبدو أنها لم تصلكم. أنا أيضاً كنت قلقاً عليكم.

همست أمّي:

- متأكّد من المعلومات التي ذكرتها لنا؟

- نعم يا أمّاه. أقسم بالله إنها الحقيقة.

- الحمد لله، لم تكن صفقة إذن، لم يكن أبوك ظالماً إذن.

قال أبي بحزن:

- أمعقول أن تفكّري أنني بعتُ ابني للدولة؟ هي دولتنا، أرسلته للخارج ليدرس، وهو ذكي ومتفوّق، من الطبيعي أن تستفيد الدولة من قدراته في مجال متطوّر، ضد العدو اللئيم الذي يعتدي علينا.

- الحمد لله، أن كلَّ ما كنتُ أفكّر فيه وأقلقني لم يكن واقعياً.

واستمرّ الدكتور غدير يروي حكايته لعارف، حكى له كيف بدأ في إنشاء مركز متطوّر للهندسة الوراثية، وكيف بدأ يفصل الجينات ويصنع أشكالاً جديدة من الفيروسات.

- أبي كيف حالك؟ آسفة تأخّرت. هه لديك ضيف.

قال عارف، وهو يقف:

- أهلاً بك يا سيدتي.

- ابنتي لينا. الدكتور عارف أحد تلامذتي.

- تشرّفنا. هه. آسفة على تأخّري يا أبي. كان اضطرارياً. الكتاب سيصدر غداً.

- تعجّلت يا لينا، ربّما كان من الأفضل أن نضيف إليه تلك الملاحق.

- سنصدر هذه الملاحق في الجزء الثاني من الكتاب. هكذا قرّرت.

- وفقك الله يا ابنتي.

- سأعدُّ لكم بعض العصير. عن إذنك يا دكتور.

خرجت لينا فسأله عارف:

- ولماذا تركت العمل في المركز؟

- اكتشفت أن بعض القادة في قوى الأمن يستغلّون إنجازاتنا لمصلحتهم، خاصة بعد أن توقّفت الحرب.

- معقول؟

- نعم. سأحكي لك ذلك.

شرد في البعيد وهو يهزّ رأسه:

- في أحد الأيام. حضرت إليّ مسؤولة كبيرة. وقالت لي:

- اسمع يا دكتور. العيّنة التي قدّمتها لنا قبل أسابيع، سُرقت واكتشفنا أنهم يطبّقونها في قرية من قرانا، أتذكر (فيروس العقم)؟

- نعم. نعم. يا إلهي، قيل لي أنه سيرسل إلى أماكن المشوهين في إحدى المناطق حتى لا تستمر ولاداتهم المشوّهة.

- أعلم ذلك، وقد أوقفنا انتشار هذا العقم المخيف، ولكن بعد أن أصاب أكثر من مائتي شخص.

- يا إلهي، مَنْ الذي فعل هذه الجريمة؟

- تعرّفنا إليه، وجئنا إليك لنطلب منك عدم القيام بأي عمل إلا بعد أن يصلك طلب منّا موقّع من عشرة أشخاص مثل هذا الطلب، أفهمت؟ نحن نثق بك.

فكّرت بقلق «يا إلهي، كيف يستخدم هؤلاء نتاجنا ضد أبناء بلدنا، لتصفية حساباتهم»؟

عرفت أن صراع القوى في ذلك العام (٢٠٣٥) كان خطيراً ضد البلد. لذلك قرّرتُ أن أترك العمل وأنا أتظاهر بأنني أصبت بأحد الفيروسات التي تضعف الذاكرة، وعملتُ كما عمل ابن الهيثم حين تظاهر بالهبل، أمام الحاكم بأمر الله الفاطمي، فتركوني أنزوي في هذه المزرعة. وقدّمت تقريراً سرّياً إلى صانع القرار في البلد، فتدخل وأقال العديد من القادة من مناصبهم ووضع أناساً أكثر أمانة. وجاءني من يخبرني:

- بدأ الشمال يرسل إلينا جراثيمه الفتاكة.

قلت:

- مازلت مصمّماً على الابتعاد.

قال عارف برجاء:

- نحتاج إليك يا سيدي، هم لا يتدخّلون بنا أبداً، أعطونا الحرية لتقاوم، ولكن هجوم الشمال علينا، دول الشمال المتطوّرة، ما زال مؤثّراً، نحن دول جنوبية تقريباً، ما زلنا نقاوم.

- خطرت على بالي فكرة سأطرحها على الملأ، وهي أن نعرّي ما يجري ونحكي عن استغلال أولئك الناس للعلم في سبيل محاربتنا والقدوم إلى بلداننا للسيطرة والاستغلال والاستعباد والتحكّم في أراض قاحلة بعد القضاء على سكانها.

- وسنكون معك.

أحضرت لينا العصير وبعض (الكيك) خالي الدسم. قال والدها:

- اجلسي يا لينا، ستعاونينني في طرح أفكارنا على الملأ.

- أنا جاهزة يا أبي، وسعيدة أنك ستخرج من عزلتك.

وحكى الشيخ لعارف وابنته عن الخطّة التي يريد فيها إظهار ما يريده مسؤولو الشمال من مسح دول الجنوب، دون معرفة شعوبهم والعام (٢٠٥٧) يقترب من نهايته.

* * *

«في نبأ عاجل من الجنوب، أن التقرير الذي صدر عن مركز أبحاث إحدى الدول حول ما يقوم به بعض المسؤولين في بلداننا، من إرسال فيروسات مدجّنة، تصيب بالأوبئة وتقتل الناس، قد أحدث ضجّة كبيرة في أوساط اللجان الراعية لحقوق الإنسان. خاصة وأن ذلك التقرير قد أورد العديد من الحقائق».

- أسمعت؟ نرجو أن تكون ردّة الفعل حقيقية، وأن تحدث ثورة على طغيان صنّاع القرار في دول الشمال بقيادة القوة العظمى في الجانب الآخر من المحيط.

- الحمد لله، قد تتوقّف هذه المآسي التي تهدّد البشرية، أخيراً الحكيم كان مذهلاً في تقريره. مازلت مصرّاً على تسميته بالحكيم، رغم أنه يجب أن يناديه طلابه ومريدوه بالدكتور غدير.

- ما تزال لجان التحقيق تتابع تفاصيل تقرير مركز الأبحاث، وقد توصّلت إلى نتائج خطيرة قد تسقط العديد من الحكومات عندنا.

- إن شاء الله يستقر هذا الكوكب أخيراً.

- إن شاء الله.

- وتتوقّف الأحقاد وقتل الناس دون مبرّر.

* * *

خارج دائرة الحياة

-١-

أتعرفون نهر الفرات العظيم، الذي شهدت ضفافه أولى الحضارات البشرية؟ إنه يمتدُّ طويلاً طويلاً بطول يصل إلى ٢٨٠٠ كيلو متر.

طوفاناته المتعاقبة وانحسارها شكّلت جزراً داخله في مناطق عرض قد تصل إلى ألفي متر. هذه الجزر يسمّونها (بالحوايج ومفردها حويجة) في إحدى الحوايج جرت هذه المغامرة.

كان وليد يعمل في صيد السمك، يلتقط رزقة من النهر ويبيعه. وكان لديه زورق ينقل به سكان المنطقة من ضفة إلى ضفة، وأحياناً من قرية إلى قرية. إذا كانت القريتان قريبتين من النهر.

- تأخرت في العودة يا بني.

- ما تزالين ساهرة؟ كنت في رحلة في النهر وقد تأخرت قليلاً في العودة. أحضرت لك هذه السمكات يا أمي.

- سلمت يداك. أنت جائع. سأنظّف السمكات وأقليها.

- لا داعي يا أمّاه، أنا متعب قليلاً. كما أن الوقت متأخّر، سأستيقظ مبكّراً. اتفقت مع بعض خبراء البيئة على جولة في النهر.

- لا بأس. رحم الله والدك، رحل وأنتم صغار. وأنت آخر العنقود، أريد أن أفرح بك.

ما زال الوقت مبكّراً يا أمّاه، يجب أن أجمع مبلغاً كافياً، المهور هذه الأيام مرتفعة. وقد بدأ عملي يتحسّن في الأشهر الأخيرة نتيجة الاهتمام الحالي بالمنطقة هناك سيّاح أجانب، وخبراء في البيئة ووفود علمية مختلفة تؤم المنطقة. أصبح العمل مختلفاً، لدينا دخل جيد.

- الحمد لله. لو سمعت مني لراسلت أزواج أخواتك المنتشرين في الخليج، ليرسلوا بعض المال ليساعدك في الزواج.

- لا يا أمّاه.إنهم مغتربون يحاولون تحسين ظروفهم المعيشية، هل أصبح عبئاً على أخواتي، لا. هذا لن يكون وضعاً صحيحاً.

- كما تشاء يا بني. إن شاء الله سنتوفّق في جمع المهر الملائم لعروسك المقبلة.

- لا بأس يا أمّاه. سأغتسل وأنام.

رجعت الأم ذكرياتها إلى سنوات خلت. توفي زوجها وترك ثلاث بنات وصبي كان هو الأصغر، وقد تعلّق به في أيامه الأخيرة وأوصاه بأمّه كثيراً.

لقد زوجت البنات عندما وصلن لسن الزواج من أبناء أعمامهن بالتالي كان القدر قد كتب لها أن ترتاح من مشكلة المهور. وبعث لها أصهاراً عاملتهم كأبنائها. ولم يبق سوى وليد ريحانة البيت الذي كان يعاملها معاملة شديدة الحساسية، بخوفه عليها وعمله على إسعادها.

وليد الآن في الرابعة والعشرين من عمره. وتعتبر أن هذا العمر متأخرٌ للزواج. فهي من قرية يتزوج فيها الشبّان في سن قد لاتصل إلى العشرين. درس وليد في المدرسة، حتى حصل على الثانوية العامة. وخافت أن ترسله للدراسة في الجامعة وتخسر وجوده إلى جانبها.

وكأنما فهم في سرّه، فرفض إكمال تعليمه وأكمل رحلة والده في الصيد ونقل الناس من ضفّة إلى ضفّة. غفت متأخّرة وهي تشعر بقلق خفي.

استيقظت مع خيوط الفجر الأولى وأيقظت وليداً كما أوصاها. لم يكن مرتاحاً.

- تبدو قلقاً يا وليد.

- لا. أنا بخير يا أمّاه. ربّما ما زلت بحاجة للنوم.

- هل رأيت حلماً مزعجاً؟ أصدقني؟

- لماذا تسألين مثل هذا السؤال؟ قلت لك يا أمّاه أنا بخير.

- حسناً يا بني، انتبه لنفسك.

كان وليد قد رأى حلماً مزعجاً فعلاً، أفعى من نوع **(أناكوندا)** عملاقة تجتاز النهر وتقلب زورقه بركّابه.

قرأ بعض السور في قلبه، وجهّز الزورق، ثم دفعه في النهر وأدار محرّكه وقد وجّهه صوب الضفّة الأخرى وهو يرجو أن يكون من وعدهم قد حضروا.

وفعلاً وجدهم يقفون عن بعد، كانوا ثلاثة رجال وامرأتين، يحملون حقائب على ظهورهم.

- أرجو أن لا أكون تأخّرت كثيراً.

- بضع دقائق لا يهم. هه جهّز نفسك يا سامر.

- أنا جاهز يا دكتور.

- سأساعدك يا أستاذ سامر، هل هذه هي الأجهزة التي ستستخدمونها؟

- نعم، وهذه بعض الحقائب التي تحوي علب الطعام. وعلب عيّنات جمعناها من هنا.

- أترين يا دكتورة سامية؟ الكائنات في هذه العلبة الشفافة تبدو غريبة.

- نعم. نعم. قد تنشط هذه الكائنات كثيراً مع شروق الشمس.

- ربما كانت ترتبط بضوء الشمس مباشرة، فعندما تغلغل الضوء إليها، بدأت تتحرّك. ثم تغيّرت بعض ألوانها.

- هه. نقلنا كل شيء. حتى الأقفاص الصغيرة.

- جاهزون. سأبدأ بإدارة المحرّك.

-٢-

اندفع الزورق نحو الجنوب، كان الخبراء يريدون كما فهم وليد أن يدرسوا البيئات في النهر، بمختلف أشكالها.

وكانت الدكتورة سامية خبيرة في علم النبات. كما كان الدكتور هشام خبيراً في الحياة البرّية. أما الدكتورة سهى فكانت خبيرة في المكوّنات العضوية الحيّة. وسامر كان طالب دكتوراه يدرس في علم الحيوان - المفترسات اللاحمة والمفترسات العضوية.

وكان يرافقهم عالم أنتروبولوجيا من جامعة جورج تاون، كان يتقن العربية وكانوا يدعونه بالمفتاح، لكثرة فضوله، وقد أتى بتوصية خاصة من السلطات العليا.

- لا تتعجّل يا وليد. نريد أن نستكشف النهر جيداً.

- سرعة الزورق ضئيلة، ولكننا نسبح مع التيّار، التيّار يدفعنا يا دكتورة سهى.

- بدأنا نقترب من حويجة صغيرة في الوسط. هل تتوقّعون أن نعثر فيها على شيء جديد؟ ما رأيك يا دكتور هشام؟

- هناك حوايج أخرى أكثر اتساعاً وغنىً.

- سنرى ذلك، جئنا للاستكشاف، لن نهمل شيئاً.

- سأربط الحبل بهذا الفرع الصغير. يمكنكم القفز الآن.

- كأنّه عش بين الدغل هنا. انظر يا دكتور هشام.

- فعلاً هو عش لطير من نوع غريب.

- صغير الرأس كبير المنقار. حجمه في حجم حمامة. أعتقد أنه ينتمي لنوع نادر.

- الطيور النادرة في سورية كانت تعدّ بالمئات من قبل.

- لعلّ هذه الحوايج، ما تزال موطناً لعدد منها.

- انظري يا دكتورة سهى داخل العش هنا، تبدو البيوض ملوّنة أيضاً.

- سألتقط العديد من الصور لها.

- وأنا سأصوّرها - فيديو - بآلة التصوير الصغيرة الخاصة بي.

عثروا على زواحف كثيرة الأرجل، وعلى ديدان مخطّطة، ثم على يربوع ضخم سرعان ما اختفى في إحدى الحفر.

لم تكن الحويجة بمساحة كافية ليقضوا وقتاً في دراسة النباتات والحيوانات فوقها لذلك تحرّك بهم الزورق نحو حويجة جديدة.

سمعوا أصواتاً فوقهم طغت على صوت الزورق، كانت أسراب من الطيور المهاجرة تمرُّ فوقهم متجهة نحو الشمال. وما زال بعضها يرتفع من مكان ما، أمامهم في النهر نحو الجو.

- أتعتقد يا دكتور هشام أنها كانت لبعض الوقت في إحدى حوايج النهر الكبيرة؟

- يمكن يا سامر. على الأقل بعضها كان يندفع نحو الجو من داخل النهر.

- النهر سيضيق قليلاً مع اقترابنا من حويجة (المرداد).

- حويجة (المرداد)؟

- نعم، هي حويجة نطلق عليها نحن الصيادين اسم المرداد لأن أحد رفاقنا مات فيها.

- أذكر أنها كانت قصّة مؤثّرة.

- نعم. كانت مأساة.

- أيمكن أن تحكيها لنا؟

- لا بأس ربما كانت مفيدة لكم، حتى لا تفكّروا بالتوقّف عندها، ومحاولة دراستها.

- إلى هذه الدرجة؟

- تبدو حكاية غريبة يا سهى.

- نعم يا سامية. هه. تفضل يا وليد.

كان جاسم المرداد صياداً شجاعاً، صبوراً، يصيد أحياناً من أسماك النهر وأحياناً من طيور الجوّ المقيمة هنا، أو المهاجرة. وكان كريماً، معطاءً كل من يعرفه يحبّه. كان يحلُّ مشاكل الصيادين ويساعدهم وكانت صلاته جيدة بأصحاب السلطة في المحافظة، وكانوا لا يردّون له طلباً. كانت الحويجة مصدر قلق للسلطات، فقد انتشرت إشاعات عنها، تؤكّد أنها مسكونة بالجن، وأن من يقترب منها قد يعاني كثيراً منهم.

- تبدو قصة غير مقنعة يا وليد. جنّ، وعفاريت؟

- أرجوك يا سهى، دعيه. يتكلّم بكل حريته.

- أنا قلت إن الإشاعات التي انتشرت تقول إنها مسكونة، المهم أن أحمد المرداد تعرّض لموقف دفعه ليقوم بخطوة، لا يقوم بها في الحالة العادية.

-٣-

بدأ يحكي القصّة:

كان الصيادون في قواربهم يجولون في النهر:

- يا ريّس أحمد أهل الأسيوطي قلقون عليه، لم يعد حتى الآن.

- الأسيوطي؟ رأيته البارحة، كان زورقه محمّلاً بالأسماك.

- ذهب مبكّراً اليوم ووعد زوجته أن يعود عند الظهر ونحن الآن على وشك الدخول في الظلام.

- غريب، الذي أعرفه عنه أنه لا يتأخّر في مواعيده. حين يذهب للصيد لا يستطيع البقاء أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات. وهذه إحدى النقاط التي نلومه عليها نحن الصيادين. فالصياد يجب أن يكون صبوراً جلوداً، لا يشعر بالكلل أو الملل.

- المهم أنه لم يعد يا ريّس أحمد. زوجته تكاد تقتل نفسها من القلق. هي خائفة أن يكون قد غامر بدخول الجزيرة المسكونة وحاصره الجان ولم يعد.

- أمر غريب، ولماذا يدخل الجزيرة المسكونة؟ الجميع يتحاشى الاقتراب منها فكيف بالدخول إليها.

هكذا كانت تردّد باكية:

- «أرجوكم أنقذوا زوجي من الموت على يد الجان».

وكنّا نهدّئها محاولين التأكيد أن زوجها سيعود سريعاً. وكانت تقول: «قولوا للريّس أحمد أن زوجة الأسيوطي، ترجوك أن تخلّصه من الموت على يد الجان، الكل يحكي عن شهامتك ونبلك في مساعدة الناس. ساعدها بحقّ الله».

- وكيف اختفى زوجها؟

- لأول مرّة في حياتها معه - كما قالت - يختفي هكذا. فليس من عادته أن يتأخّر أبداً. زوجها رجل نظامي، رغم فوضى عمل الصيادين. سمعت أنه خرج يصطاد الطيور في الجزيرة المسكونة. وهذا ما أقلقها.

حاول الريّس أحمد أن يستفسر من الصيادين الآخرين إن كانوا سمعوا بما جرى للأسيوطي. وهل غامر فعلاً بالدخول إلى الجزيرة المسكونة.

أقسم جميع من رآهم، من الصيادين أنهم لم يروا الأسيوطي، لا أمام الحويجة المسكونة، ولا في أي مكان آخر.

ولكن إصرار زوجة الأسيوطي على أنه غامر بالنزول إلى الحويجة المسكونة، ليصطاد فيها كما أشاع بعض من لم يرهم المرداد فعلاً، جعله يفكر بأن يرسو بزورقه مع اثنين من معاونيه على ضفّة الحويجة. بعد أن دار حولها أكثر من مرّة بالزورق.

أصرّ المعاونان أن يظلاً في الزورق على الضفة ودخل أحمد المرداد مسلّحاً ببندقية قديمة وخنجر مرهف النصل. وبعد نحو نصف ساعة من اختفائه بين أدغال الحويجة، سمع الرجلان طلقات نارية. وصراخاً.

- لا. لا. لن أستسلم لكم أيها الأنذال. آه. أنذال.

وأكمل وليد حكايته وهم ينصتون إليه باهتمام:

وهكذا عاد الرجلان، وأوهما الناس أن المرداد هو من أمرهما بالرحيل، وصوّراه كبطل أسطوري يضرب الجان عن اليمين والشمال، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة.

- ولم يعد المرداد أبداً؟

- نعم. وظل لغز اختفائه سرّاً لم يكتشفه أحد.

- وماذا جرى للأسيوطي؟

- الطريف أن الأسيوطي عاد في صباح اليوم التالي، وهو يعتذر لزوجته عن تأخيره في العودة، لأن واحداً ممن نقلهم من ضفة إلى ضفة أخرى قد مات بالجلطة في زورقه، فاضطر أن يبقى مع أهله حتى وقت متأخّر. وكانت قريتهم في الجانب الآخر من النهر.

- ولماذا لم يتصل؟ لم تكن الاتصالات متوافرة في ذلك الحين؟

- نعم يا دكتور هشام. لم تكن الاتصالات متوافرة.

- وأين هذه الحويجة المسكونة يا وليد؟

- إنها على بعد نحو (٥٠٠) متر أمامنا.

قالت سامية: - ما رأيكم أن نذهب إليها؟

- ماذا يا دكتورة؟ إنها مسكونة، هكذا يقول أهل المنطقة. لا أحد يجرؤ على الدخول فيها.

- لا تقلق يا وليد، نحن نعمل بالعلم، ولا نخاف. لكل قضية شائكة تفسيرها العلمي.

وأكمل سامر: - ولدينا الأسلحة المناسبة، من مواد طيّارة مخدّرة. وحقن منوّمة، وأذهان تعرف كيف تستكشف.

- أحسنت يا سامر. نحن في القرن الحادي والعشرين يا وليد. أثرتَ فضولنا بقصتك. وستكون الحويجة التي تسمّونها مسكونة محطّتنا القادمة؟

وهكذا اتجه وليد بزورقه وقلبه ينبض بعنف نحو الحويجة التي بدت عن بعد والزورق يقترب منها أشبه بدغل وسط المياه. حاول سامر طالب الدكتوراه، أن يشجّع وليد وقد رآه خائفاً متردّداً.

وظلّ وجه وليد ينطق بخوفه رغم تطمينات سامر. وهكذا اقترب الزورق من ضفة الحويجة، ودخل وليد بزورقه في فتحة أشبه بمرفأ صغير.

- هيّا يا جماعة، لنصطحب الضروري من متاعنا. سنحتفظ بالقليل من المتاع هنا، ويذهب وليد معنا بعد أن يثبّت زورقه جيداً وسط هذه الفُرجة الصغيرة الشبيهة بالمرفأ الصغير.

المنطقة آمنة هنا. لا تخف يا رجل ليس هناك هذا الرعب الذي تتخيّلونه. هيّا بنا، ستكتشف أن العملية كلّها كذبة كبيرة.

بعد أن اطمأن وليد على ثبات الزورق، حمل بعض الأمتعة واتجه مع المجموعة داخل الدغل المتكاثف.

كانت الطيور تزقزق. وتنفلت طائرة من أعشاشها أحياناً. وكان المشهد بديعاً، وقد شعرت المجموعة بأنها تدخل في أرض شبه بكر لم تعبث بها أيادي البشر.

- هذا مكان نادر. لم تمسّه تدخّلات البشر منذ زمن بعيد.

سألت سامية: - منذ متى اختفى المرداد هذا يا وليد؟

- آه. منذ أكثر من خمسين عاماً كما يذكر الناس هنا.

- غريب. ولم يفكر أحد بالولوج إليها كل هذا الوقت؟

- هناك الكثير من الأماكن ما زالت مجهولة في هذه المناطق. طبيعة الناس هنا يا دكتورة سامية، طبيعة هادئة، غير مغامرة.

- هادئة أكثر من اللازم. حتى المنظمات البيئية لم تخترق مثل هذه المناطق. هذا غريب فعلاً.

- يعقدون المؤتمرات والندوات وورشات العمل في المدن الرئيسة هنا، ولكن دون أن يزوروا ويستكشفوا المناطق المحيطة بالمدن.

وفجأة صرخ (المفتاح) بلغته الركيكة: - هذا عجيب.

- ماذا هناك يا دكتور؟

- حيوان زاحف من نوع لم أره من قبل.

- لم تر مثل هذا النوع من قبل؟ ما رأيك يا دكتورة سهى؟

- أعتقد أنه من نوع العظاءة العادية، ولكن جسمه متطاول برأس صغير وألوان شبيهة بالتربة والنبات الأخضر.

وصلتهم أصوات صرخات. كأن أحدهم يصرخ. وكان الصوت يأتي من داخل الدغل. لم يكن يبدو صراخاً بشرياً.

ردّد وليد بخوف: - إنهم الجان. انزعجوا من مجيئنا.

همس هشام مهدّئاً: - لا تخف يا بني، سنرى من الذي يصرخ.

كان شيخاً متقدّماً في السن، حوله الكثير من النفايات، كأنه مقعد.

ظهر الشيخ بلحيته وشعره الطويلين ولباسه الممزّق، في مكان بين نباتات الدغل، كان المكان يشبه كهفاً صغيراً واطئاً.

كان اكتشافه أولى اكتشافات الحويجة البكر، التي عدّتها الجماعة إضافة مهمّة للبيئة الحيّة داخل نهر الفرات.

كانت لحية الشيخ البيضاء وشعره الطويل، ولباسه الممزّق بين نباتات الدغل أشبه بكائن أسطوري أشبه بشجرة حيّة. كان ينظر إليهم ببلاهة وخوف، وهم يحادثونه.

- انظروا إليه كأنه فوجئ بنا.

- يا إلهي. إنه يعيش وسط جو قذر، لا أرى سوى الفضلات.

- حاول أن تسحبه يا وليد. ساعده يا سامر.

كان يشعر بالغثيان وهو يسحبه مع سامر.

- إنه خائف منّا. ماذا سنفعل؟

- لا يهم، يجب أن نسحبه، من كهفه الواطئ، أو حفرته.

- ليست حفرة، إنه كهف عميق فعلاً.

- انظري يا سهى، إنه مصاب، كأن الدم يسيل من فخذه.

- لذلك يبدو عاجزاً عن الحركة.

نجحوا في سحبه، وتطوّع سامر ووليد لغسله بالماء، وهو ساكن صامت، مرعوب، ينظر ببلاهة، كأن ما يفعلونه به لا يعنيه.

ألبسه الدكتور هشام ثياباً من حقيبته. بعدما ضمّدوا له الجرح، الذي بدا كأنه أصيب به نتيجة وقوعه على نبات حادّ.

- انظر يا دكتور هشام، كأنه لا يستطيع المشي.

- فعلاً، رجلاه شديدتا الرخاوة. نحيفتان أكثر من اللازم. أعتقد أنه يزحف في تنقّلاته. هه سنسأل صديقنا المفتاح. ما رأيك يا دكتور؟

- إنه منعزل، يعيش بعيداً عن الحضارة. لم أرَ مثل هذه الهالة من قبل.

- لنطعمه بعض طعامنا.

- معك حق يا سامية، يبدو جائعاً.

أكل الشيخ بعض الطعام، وهو يرمقهم ببلاهة، وفجأة بدأ يبكي.

- آه. ليتني لا أحلم. ليتكم حقيقيون.

- نحن حقيقيون. أنت لا تحلم.

- منذ أربعين سنة، وأنا لا أحلم سوى بالبشر. ولكني أصحو على الأوهام.

قال وليد بخوف: - ربما كان جنّياً يتقمّص شخصية بشرية.

ربتت سهى على كتفه: - معقول يا وليد؟ ألا أحد يقترب من هذه الحويجة؟

- لا يا دكتورة. الناس يخافونها.

- ولكننا لم نرَ أحداً سوى هذا البائس. وبالتأكيد له قصّة طويلة.

غمغم هشام: - نعم يا سهى بالتأكيد قصته مؤثرة. لا ندري كم من الزمن مرّ عليه هنا. هل هو هارب؟ أم هو مصاب أرغمته الظروف على المجيء هنا. ثم لم يستطع أن يغادر الحويجة بعد ذلك.

- آه. لا أصدق أنكم هنا. جاء من ينقذني من كوابيسي.

- أرأيت يا وليد؟ لا يبدو جنّياً؟

- إنه رجل بائس فعلاً. أمعقول أن تعتقد بوجود الجن هنا يا وليد؟

- آسف. هكذا يقول الناس عن هذه الحويجة.

- ويبدو أن هذه الإشاعات هي من طردت هذا الرجل من دائرة حياته. لا بدّ وأن له قصّة مؤثّرة بائسة.

وبعد نحو الساعة والجميع يلتفّون حوله بدا وكأنه يستعيد وعيه الكامل. ثمّ أخذ بالكلام:

- مرّنتُ نفسي كثيراً حتى أعتاد على هذه الحياة البائسة. معزولاً عن العالم وحولي الحركة والحياة. أصبحت صديقاً للطيور والزواحف، وبعض الحيوانات المفترسة. أصبح ذلك عالمي. عالمي الذي أجبرت على الحياة فيه.

- اسأليه ثانية يا سامية، يكاد قلبي ينفطر عليه. لا أستطيع إجراء حوار معه.

- سأفعل يا سهى. هه. قل لي يا عم، من أنت؟ ولماذا أنت هنا؟ إن كنت ما تزال تذكر اسمك وحياتك، وكيف صرت إلى هذا الوضع؟

- لا أكاد أصدّق أنكم هنا، قرصتُ جسمي كثيراً، وخزتُ يدي بالشوك حتى أُشعر نفسي أنني خارج إطار الحلم. آه. يا لهذه السنوات الطويلة التي مرّت عليّ، والتي أعتقد أنها تزيد عن الأربعين عاماً.

- منذ أربعين عاماً وأنت هنا، تعيش منعزلاً؟

- نعم. كنت أعدّ فصول البرد والحر وأعرف أنه مرّ عام بعد كل فصل حار وآخر بارد. كانت الطيور المهاجرة هي التي تعرفني على مرور عام أيضاً. آه يا إلهي. ماذا أفعل الآن؟ كيف سأجد أهلي وأولادي؟ كيف سأعيش من جديد؟

- يا عم، احكِ لنا القصّة. تبدو كأنك خارج إطار الحياة.

كانت حالته تقطع القلب، شديد الضعف، وجهه متعب، مسمّر من شدّة حرارة الشمس، أسنانه شبه سوداء مصفرّة، حافي القدمين النحيلتين الضعيفتين. شجّعه الدكتور هشام على الكلام، وهو ينظر إليه بإشفاق.

- هيا يا عم، عرّفنا على حكايتك، قد نستطيع مساعدتك، نحن مجموعة من الباحثين ندرس النبات والحيوان في الحوايج، ندرس تأثيراتها البيئية. نطل على عالمها الصغير.

- لقد كنتُ في وضع غير طبيعي، لا أستطيع أن أجمّع أفكاري جيداً ولكن لا بأس. كانوا يقولون عن هذا المكان إنه مسكون بالجن وحين حطّت رجلي على ضفته، لأول مرّة وكنت أبحث عن شخص مفقود قيل إنه لجأ إلى هنا للصيد، ورغم كل من رأيته في طريقي إلى هنا، قد أكد أنه مستحيل أن يجرؤ أحد على المجيء إلى هنا. ولكني لوعد قطعته لزوجة ذلك الشخص إنني سأبحث عنه هنا، قدمت مع رجلين في زورق صيدنا إلى هنا.

-٤-

- هه يا معلم، بدأنا نقترب من ضفة الحويجة.

كانا خائفين يردّدان بخوف: - يا معلّمي قد يهاجمنا جنّي شرير.

- الله معنا، لماذا أنتما قلقان؟

- لا أحد يجرؤ من الصيادين على المجيء إلى هذه الحويجة المسكونة. سألنا كل من صادفناه يا معلّمي عنه، لم يقل أحد إنه اتجه إلى هذا المكان.

- لا بأس، اقتربا بالزورق، وانتظراني هنا.

هه. وصلنا. لا تنسى أن تصطحب يا معلّمي.

اصطحبت بندقيتي ومديتي الطويلة، التي لا تفارقني. وقد رأيت مدى خوفهما.

دخلت المنطقة، كانت كثيفة الشجر والنبات، ثم أصبحت فجأة في فسحة، رأيت فيه غزلان ترعى مسلّحة بقرونها المشحوذة، بدأت أصرخ:

- يا سيوطي، يا سيوطي. أين أنت؟

ردّد وليد وهو يرتجف: «يا إلهي إنه أحمد المرداد».

- لم يجبني أحد، ولكن فجأة خرج لي من الدغل حيوان بشكل مرعب، واتجه نحوي مهاجماً، فأطلقت النار عليه، فأرديته قتيلاً.

- شكله كان مرعباً، كيف؟

- أشبه بخنزير بري ولكن بذيل طويل أشبه بذيل الزواحف.

- إنه نوع من الخنازير التي تعيش قرب المياه، وماذا حدث لك بعد ذلك؟

- عدت أصرخ منادياً السيوطي، ثم سرت من جديد أقطع بعض النباتات المتكاثفة، كانت الحويجة كبيرة بشكل لم أتوقّعها. وكان من الواجب أن أبحث فيها عن الرجل المفقود في كل بقعة منها. تعبت من السير في منطقة وعرة، فجلست أستريح محاذراً أن أتعرّض لهجوم من حيوان جديد.

وبدأت أسمع أصواتاً. أمعقول أن تكون من الجنّ؟ نحن في منتصف النهار، أمعقول أن تظهر هذه المخلوقات المرعبة في النهار؟ ثمّ سمعت حوارات بين مجموعة من الناس تقترب من مكان وجودي ولكن من جهة أخرى من الحويجة. فاختبأت داخل أجمة كثيفة وأنا أرتجف من الرعب.

- سندفنها هنا كالعادة. هيا نحفر قرب هذه الشجرة.

- لست مطمئناً إلى هذا الدفن هنا، قد ينبشها أحد.

- ومن يمكنه أن يأتي؟ الجميع يعتقد أنها حويجة مسكونة بالجن والعفاريت.

- أين شهناز؟ لماذا تأخّرت؟

- تطمئن على إخفاء الزورق في المنطقة الكثيفة بالشجر. وجاءت المرأة كانت في نحو الثلاثين من عمرها تبدو ذات حظوة بينهم.

- كل شيء على ما يرام؟ ألم تنتهيا من الحفر بعد؟ التربة هشّة.

- ساعدينا يا شهناز.

- سأساعدكما في طمر الكيس، هل أحطتماه جيداً بالنايلون؟

- نعم. لا يمكن أن تنفذ إليه المياه. إنها غنيمة كبيرة سندفنها لعدّة أشهر حتى تنساها السلطات.

- لم أتوقّع أن يكون المحاسب بهذه الصفات، إنه شديد الخوف، يحاول أن يبدو شديد الحرص، ولا يستطيع لضعف قوته.

- هه. الآن نحن جاهزان.

- وأنا سأطمره بالتراب. هه ما هذا؟ كأنه صوت حيوان.

كانت مجموعة من الخنازير البريّة تتحرّك غير بعيدة عنهم.

- خنازير؟ إنّها شديدة الخطر.

- لا تخافوا. لدينا بنادق.

- قد تنبّه الناس أصوات هذه البنادق وعياراتها النارية.

- لا يهمّ الجميع مقتنع أن الحويجة مسكونة.

- قد تأتي الشرطة؟

- لا تقلقوا، لا وجود للشرطة داخل النهر.

ولكنّ الخنازير البرية، اتجهت نحوهم فبدؤوا يطلقون النار عليها.

- كأن الرصاص لا يؤثّر فيهما. لا ريب وأنها من الجان.

وبدأت أسمع الصرخات: - هيّا نهرب من هنا، إنها تهاجمني آه. لقد عضّتني.

وحكى الشيخ عن رعبه الشديد وهو يرى الخنازير البرّية طويلة الذيول تهاجم المرأة والرجلين، بعنف، ووحشية.

- كانت أنيابها الظاهرة جاهزة لتمزيق أجسادهم. رغم محاولتهم الفرار، ظلّت الخنازير خلفهم، وخفت أن أظهر نفسي فتهاجمني الخنازير، وبعد أن اختفى الرجلان والمرأة سمعت صراخاً وأنيناً ثم همد كل شيء. بالطبع نهضت من مكمني أبحث عن آثارهم، ورأيت مشهداً لم أنسه في حياتي، الأجساد الثلاثة ممزّقة والخنازير البرّية تدور حولها وتنهشها.

- غريب، أمعقول أن توجد خنازير برية فوق سطح بعض هذه الحوايج يبدو الأمر غير منطقي؟

- ما زالت بعض جماعاتها هنا، يمكنكم رؤيتها وفحصها. ودراستها.

- وكيف لم تهاجمك تلك الخنازير؟

- أمر غريب فعلاً، اكتشفته بعد وقت قصير من قدومي إلى هنا، كنت أختبئ داخل أغصان إحدى الأشجار، ثم أدور بين الوحوش فلا يهاجمني

أي منها. واكتشفت أن السر يعود إلى رائحة الشجرة، التي تطرد عن الضحايا والمصابين كل أنواع الوحوش والزواحف.

قالت سهى بحماس: - سندرس هذه الشجرة، دلّني عليها. قد تكون اكتشافاً مذهلاً.

اعترض هشام: - هذا ليس وقته، اتركينا نسمع قصته الآن يا دكتورة سهى. أرجوك.

- آسفة. معك حق.

- أخذت أراجع ما جرى لي وقد فوجئت بما جرى لأولئك الناس أيضاً. كان منظرهم الفظيع يتردّد في مخيلتي فانطوي مرعوباً يائساً. ثم نهضت محاولاً العودة إلى مكان انتظار معاوني، فلم أرَ أحداً. اعتقدتُ أنني أخطأتُ المكان فسرتُ على ضفة الحويجة وأنا أصرخ.

تدخّل وليد وكان ينصت باهتمام بالغ: - ولم تر أحداً، قال تابعاك عنك إنك قتلت من قبل الجان، بعدما أطلقت النار عليهم، وهربا بعيداً. وقد روّجا للناس أنك متّ بين أدغال الحويجة.

- عني أنا؟ أتعرف من أنا يا بني.

- ألست أحمد المرداد؟ هذه الحويجة تسمّى باسمك، إضافة لتسميتها بحويجة الجان أو الحويجة المسكونة.

- آه. يا إلهي الناس يعتقدون أنني متُّ. معهم حق أنا شبه ميّت. حاولت كثيراً وأنا أدور على الضفة أصرخ وأنادي لعلّ أحداً يراني فيتلقّفني. ويخلّصني مما أنا فيه. ولم تنجح محاولاتي فعدتُ أجترُّ تعاستي إلى أجمة صغيرة فيها شجر قليل الكثافة. ولم أعرف كيف غفوت.

يا إلهي كأن شيئاً يضغط على صدري، أنا أموت، لا أرى سوى الأشباح والأشكال المشوّهة، آه. إنهم يضغطون على صدري أنا أختنق. ها. ها.

استيقظتُ لأرى أفعى ضخمة تقفز من على صدري هاربة، أخذت أبكي حظّي، وأنا آمل أن لا تطول فترة إقامتي هنا. نهضتُ أبحث عن شيء أُسكِتُ به جوعي. فوجدتُ بعض ثمار (حب الآس) فتناولت منها ما أشعرني بالشبع. وخيّم الليل، ووصلتني أصوات الوحوش وأصوات غريبة مرعبة وسط ليل معتم. خفتُ أن أُفاجَأ بحيوان ينقضُّ عليَّ، فأحكمتُ استنادي إلى جذع الشجرة وقضيتُ ليلة ليلاء لم أرَ مثلها في حياتي. غفوتُ متأخّراً للحظات، ونهضتُ مع خيوط الفجر الأولى.

- وكيف وصلت إلى هذا الكهف؟

- رأيت هذه الهضبة وهي أعلى مكان هنا، كان هناك وكر لحيوان يشبه الجرذ، طردته، وأخذت أحفر فيه حتى وسعته ولجأت إليه أتّقي فيه ضوء الشمس والبرد الذي أخذ يتسلّل في الليل إلى الحويجة.

- وكيف أصبت وأصبحت شبه مقعد.

- بعد فصل البرد أتى فصل الحر ثم فصل البرد. ويبدو أنني أصبتُ بمرض أثّر على مفاصلي. وازداد حتى لم أستطع المشي جيداً، فتعوّدتُ على الزحف، وحمتني روائح الشجرة من الحيوانات المفترسة. حتى أصبحت جزءاً من حياتي.

- وحين كنت تجوع، ألم تتعرّف على النار؟

- كانت لديّ علبة كبريت، استفدتُ منها كثيراً، محاولاً أن تظلّ النار مشتعلة، ولكن مع الأسف، لم أستطع أن أحافظ عليها، تعوّدتُ

على أكل النبات والثمار. ولم أستطع تقبّل قتل غزال أو حيوان قابل للأكل. آه. سنوات وسنوات، والقهر أدماني واليأس حطّ عليّ. كم رغبت بالموت، ولكن الأمل كان ينبت من بين ظلمة اليأس.

- المهم أنك مازلت محافظاً على عقلك. غريب أنك لم تجن أو لم تصب بلوثة في عقلك. ولكن ماذا كنت تفعل يا عم حتى حافظت على عقلك؟ ورباطة جأشك وحولك الموت والظلمة والخوف؟

- لا أدري. لو كان لديّ ورق وقلم لكتبت الكثير. الكثير

عايشت كل أنواع الزواحف والطيور والحيوانات المجترّة البرّية والمفترسات ورأيت شجارها، عراكها من أجل الحياة، وكان بعضها ينتبه لي ثم يتجنّبني.

- بسبب روائح تلك الشجرة؟

- نعم. سأدلّك عليها أنت وهؤلاء الناس.

-٥-

تركهم وليد في الحويجة، وعاد بالمرداد وقد ساعده في الوصول إلى الزورق، واتجه نحو قريته وهو يشعر أنه ينقل كنزاً ثميناً إليهم.

وجهه المرداد، حتى وصلا إلى ضفّة جنوبية بعيدة عن الحويجة المسكونة. وطلب من وليد مرافقته.

- أنا لا أستطيع السير إلا بالمساعدة، بيتنا كان قريباً من الضفة. ولكن كل شيء تغيّر تقريباً.

رَأَيا صبيّاً صغيراً في الدرب الضيّق داخل القرية سأله وليد: - هل تعرف بيت المرداد؟

- بيت مصطفى المرداد هناك يا عم.

- مصطفى المرداد؟

- وهناك بيت شاهين المرداد إنه قريب من هنا على بعد أمتار أمامك.

همس له: - أتعرف مصطفى أو شاهين؟

- مصطفى هو ابني الأصغر. يا إلهي ساعدني.

بدا متوتّراً قلقاً:

- تماسك جيداً يا عم. سأرافقك إلى هناك.

طرق وليد الباب ففتحت له صبيّة في عمر الورد.

- نعم. ماذا تريد؟

- هل أنت ابنة مصطفى المرداد؟

- نعم أنا ابنته. من أنتما؟

بدأ الشيخ يبكي وهو ينظر للصبيّة بحبّ. سألت وليداً:

- ولماذا يبكي هذا الشيخ؟

قال الشيخ وهو يجهش: - أنا جدّك يا ابنتي، أنا أحمد المرداد؟

- جدي؟ ماذا تقول؟

وخرج كهل من داخل البيت يهرول مستطلعاً:

- خير يا ابنتي. من هؤلاء؟.

- يقول إنه جدّي أحمد المرداد.

- أحمد المرداد؟ يا إلهي معقول؟ مستحيل.

قال وليد بهدوء: - سأحكي لك يا سيّد مصطفى.

بالطبع كانت قصّة شغلت المنطقة لفترة طويلة، أما البعثة العلمية فدرست تلك الحويجة شبه البكر، واكتشفت الكثير من البيئات الفراتية الجديدة.

* * *

نزيف الفقراء

-١-

كانت تشعر بالقلق وقد تأخّر ولدها الوحيد عن العودة إلى البيت، وجوّاله خارج التغطية. لم تترك رفيقاً له إلاّ واتصلت به، وكلّهم أكّدوا لها أنهم لم يروه هذا اليوم.

تأخّر الوقت والساعة قاربت التاسعة مساءً، كان يجب أن يعود في الثالثة ظهراً ولكنه تأخّر ست ساعات متواصلة.

دعت الله في سرّها أن يكون ابنها بخير، فإن حدث له شيء، قد تموت كمداً وحسرة. بدأت تبكي بحرقة والقلق يأخذ بها، حين رنّ جرس الهاتف الأرضي، رفعت السماعة بلهفة:

- آلو. نعم. رجاء. كيف حالك يا ابنتي.

- أنت تبكين يا خالتي، خير؟

- وعدني ابني نور أن يعود مبكّراً، أعددتُ له الطعام على أن يصل الساعة الثالثة، إنها التاسعة الآن، وجوّاله خارج التغطية وكلُّ رفاقه الذين أعرفهم لم يروه اليوم.

- اهدئي يا أمّ نور، إن شاء الله يكون بخير.

- أكاد أجنّ يا ابنتي. أين ذهب نور؟ لماذا لم يتصل بي؟ لم يفعلها من قبل.

- ربّما انتهى شحن جوّاله ولم يستطع الاتصال بك، قد يكون عند أحد أصحابه وشغله أمر مهم مع صاحبه أو...

قاطعتها وقد زاد صوت بكائها:

- ليس من عادته ألّا يتصل بي، إن كان سيتأخّر.

- أتريدين مني أن آتي إليك؟ عسى أن نحاول معاً الوصول إلى معرفة مكانه.

- لا بأس. أكاد أجنّ. أنا أنتظرك.

أغلقت السّماعة، وهي تفكّر:

- ربّما كان في استطاعتها الاتصال بأناس آخرين، رجاء كانت صديقته ورقص كثيراً في عرسها.

* * *

أشعرها اتصالها بأمّ نور، بالقلق على نور فعلاً، فتأخيره يثير التوتّر، لأنّ كلّ طرق الاتصال بأصحابه ومعارفه قد فشلت - كما تقول أمّه - فما الذي جرى له، أين هو الآن؟ ارتدت ثيابها السميكة فالطقس بارد جداً. كان زوجها مناوباً في الثكنة، وطفلتها نائمة، وأمّها أمام التلفاز تتابع مسلسلاً تركيّاً. سألتها أمّها:

- خير؟ إلى أين أنت ذاهبة؟

- نور لا يجيب على هاتفه الجوّال - لأنه كما يبدو غير مشحون - ومنذ الساعة الثالثة لم يعد إلى البيت.

- ماذا تقولين؟

- أمّه تشعر بقلق شديد يا أمّي، عسى أن أهدّئها، كانت تبكي طوال الوقت.

- تُرى أين هو؟ ولماذا تأخّر؟ ابنتك رزان نائمة، يمكنك الذهاب، هذه المحطّة البائسة تعرض المسلسلات التركية، هذه المسلسلات الميلودراميّة التافهة، يمكن أن تمطَّ الحدث الواحد لعدّة حلقات، هي مملّة جدّاً. أطفئي التلفاز.

أطفأت رجاء التلفاز وهي تقول:

- انتبهي لرزان النائمة يا أمّي سأحاول أن أعود بسرعة.

- لا تقلقي على رزان، أحزنتِني على أمّ نور، مسكينة، كلّ حياتها متعلّقة بابنها، هي في دوّامة وخوف بالتأكيد.

وهي في طريقها نحو باب الخروج، رنّ الهاتف الأرضي، فرفعت السمّاعة:

- آلو. نعم. أنا رجاء.

- أنا أتكلّم من المستشفى المركزي، هناك عجوز مريضة طلبت أن تتكلّم معك. تفضّلي:

سمعت صوت العجوز المتهدّج، كان التعب واضحاً في صوتها:

«رجاء يا ابنتي، أنا أم سعد، أنت لا تعرفيني، ولكنّي صديقة أمّك. لا أريد أن أزعجها، أنا في وضع صحي حرج. قد لا أعيش حتى صباح اليوم التالي»، توقّفت لبعض الوقت وهي تسعل ثمّ استردّت بعض قوّتها، وتابعت تقول:

«لديّ سرّ يؤرقني، أريد أن تأتي إليّ، لا أحد حولي من أقربائي، أو من معارفي، ليس سواي. تعالي إليّ أرجوك».

وضعت السّماعة مستغربة سألتها أمّها:

- من كان المتّصل؟

قالت بارتباك:

- أم نور، تريد منّي أن آتي إليها بسرعة.

- عجّلي يا ابنتي، هي بحاجة لكِ بالتأكيد.

- سأحاول ألّا أتأخّر يا أمي.

انتابها التوتّر والقلق لم ترغب بسؤال أمّها عن أم سعد، إذ خشيت أن تتأخّر في الذهاب إليها في المستشفى وهي - كما قالت - بين الموت والحياة. ثمّ كيف ستترك أم نور في هذه المحنة؟

تردّدت قليلاً ولكنها حسمت أمرها بالذهاب إلى أمّ نورأولاً. انطلقت بسيارتها الصغيرة نحو بيت - أم نور - الذي لم يكن يبعد كثيراً عن بيتها، فهو في الحي المجاور، ولكنه حيّ متوسّط، يعيش فيه الموظفون، وصغار الكسبة.

«ليست ليلة مريحة، ماذا أفعل؟ قد أتأخّر على أم سعد المسكينة، الشوارع شبه مقفرة، فالبرد شديد والناس لجؤوا إلى بيوتهم يلتمسون الدفء، والكهرباء تنقطع بشكل متواتر، والناس يشتكون من نقص في الغاز والمازوت. ترى أين ذهب نور؟».

وصلت إلى الحيّ المجاور، وتوقّفت أمام البناء الذي تشغله أم نور، كان بناءً صغيراً بمساحة تقل عن /١٠٠/ متر. وقد حاولت أم نور الاستفادة من حديقة بيتها الأرضي الصغيرة فزرعت بعض البصل والبقدونس والنعنع في شتلات تقطف منها حاجتها. فتحت لها أم نور الباب وهي تبكي:

- لم يعد نور بعد يا ابنتي، قلبي يأكله الخوف عليه.

- اهدئي يا خالتي، هو بالغ راشد في العشرين من عمره، سيعود إن شاء الله.

- لو كان جوّاله يعمل لطمأنني على حاله.

- ربّما انتهى شحنه. هذه تتكرّر معنا دائماً.

- كان يشتكي دائماً من سرعة نفاذ بطارية جوّاله.

- إذن لماذا القلق؟

وفجأة رنّ جرس الهاتف فاندفعت ترفع السّماعة ملهوفة:

- آلو. نور حبيبي.

انفجرت تبكي معاتبة:

- أين أنت؟

- أنا بخير يا أمّي، أحد رفاقي توفّي والده بجلطة، أنا معه في المستشفى، لا تقلقي. قالت وهي تضع السّماعة:

- موجود مع أحد رفاقه في المستشفى، والد رفيقه مصاب باحتشاء قلبي هو معه. ولكنّه أغلق السماعة بسرعة.

- الحمد لله.

فكّرت رجاء مستغربة:

«الرقم لم يظهر على الكاشف» ثمّ قالت مخفّفة عن الأم:

- المهم هو بخير، قد يكون والد رفيقه بحالة حرجة. وتعرفين كم هو عاطفي؟

- معك حق. ولكن لهجته لم تكن مريحة.

- ربّما والد رفيقه بوضع حرج كما قلت لكِ، وربّما مات.

- معك حق، ليته ذكر لي اسم المستشفى حتى أطمئن أكثر.

قالت رجاء:

- لديّ زيارة سريعة لصديقة لي، ثم أعود إليك إن رغبت.

- لا أريد أن أشغلك يا ابنتي، المهم تكلّم نور أخيراً، أرجو أن لا يتأخّر أكثر، لن أهدأ حتى أراه أمامي.

-٢-

الذي جرى للشاب نور، لم يكن عادياً، كان شاباً متفوّقاً، يدرس في السنة الثالثة من كلية الطب، وقد عُرف بأخلاقه وذكائه بين طلبة صفّه وأساتذته.

في ذلك اليوم خرج مع رفاقه في نحو الثانية والنصف من الكلية، ليجلسوا في أحد المقاهي المجاورة للجامعة، على أن يعودوا بعد نحو الساعة للالتحاق بدرس عمليّ.

وهو في جلسته بين رفاقه اقترب منه رجل غريب مفتول العضلات، ثم همس في أذنه:

- أستاذ نور هناك صبية في الخارج تطلب منك الحضور إليها، يبدو أن لديها مشكلة.

- ومَنْ أنت؟

- أنا سائق سيارة خاصة أتبع لمكتب خاص للسيارات، وهي زبونتنا.

- مَنْ هي هذه الصبية؟

- هي زميلتك في الكلية، اسمها (رنا).

- رنا؟ ماذا تريد؟

- لا أدري. تفضّل.

استأذن من رفاقه:

- عن إذنكم يا جماعة، سأترك حقيبتي هنا!

همس في أذن صديقه عارف:

- رنا تريدني ولا أدري لماذا؟

- تلك الفتاة المترفّعة المغرورة، ماذا تريد منك؟

- لا أدري. سأعود سريعاً.

كانت في سيارة دفع رباعي ضخمة مفيّمة، وقد أنزلت زجاج السيارة:

- خير يا رنا؟

- اصعد يا نور، أنا أحتاجك.

- خير؟ تعرفين أن لدينا جلسة (عملي جنين) وهي جلسة مهمّة.

- لن أؤخركَ، سنعود بسرعة.

- لم أفهم لماذا؟ اشرحي لي.

- لا وقت للشرح، هيّا، سأعيدك بسرعة قبل أن تبدأ جلسة العملي.

- طيب.

صعد في المقعد الخلفي إلى جانبها، سألته:

- هل قلت لأحد أنني أنتظرك في الخارج؟

استغرب «لماذا تسأل هذا السؤال؟» ثمّ قال:

- لا لمْ أذكر اسمك.

- عظيم. تفضّل.

انطلق السيّارة مسرعة. سألها من جديد:

- أنا أنتظر شروحاتك. لماذا طلبتني؟ وما الذي تريدينه منّي؟

- لديّ مشروع يدرّ عليك دخلاً كبيراً.

- مشروع؟ أنا في السنة الثالثة في الكلية، وليس من مشروع مناسب لي.

- لا. هناك مشروعات مناسبة، سترى بنفسك.

لم يكن يعرف إلى أين تأخذه تلك الفتاة الثريّة المترفّعة ابنة أحد الأثرياء المعروفين في البلد. وخلال دقائق وهي تتصنّع اللامبالاة، دخلت السيارة في الباب الخارجي لمستشفى شهير. كان في انتظارها رجل كهل. هبطت إليه من السيارة. وتكلّما معاً بصوت منخفض:

- أحضرتُه يا أبي.

- متأكّدة من التحليل؟

- مئة بالمئة، لا تقلق.

أشارت لنور أن يهبط من السيّارة، ثمّ قدّمته للرجل الكهل:

- هذا والدي. إنه نور زميلي يا أبي.

- أهلاً بك يا أستاذ نور. تفضّل يا بني، رافقينا يا رنا.

همس لها راجياً:

- أرجوك يا رنا، لا أريد أن أتأخّر على جلسة العملي.

- لن تتأخّر، أؤكّد لك. ربع ساعة فقط، وتعود.

- حسناً، ماذا تريدين مني؟ وما هو التحليل الذي ذكره والدك؟

- تحليل أنا أجريته، لا دخل لك به.

دخلوا إلى غرفة كان فيها طبيب وطبيبة أخصّائيّة في التخدير، وفنّي وممرّضة، وشوش الكهل، والد رنا، الطبيب:

- الشاب أمامك، يمكنك تخديره.

أشار الطبيب لأخصائيّة التخدير:

- هيا يا نجلاء، ضعي المخدّر على أنفه.

انتفض نور محاولاً المقاومة وقد فوجئ بها:

- ماذا تفعلين؟ لا. لا.

- لا تقاوم هه. لن تحسّ بشيء. هه. إنه يستسلم هه. غاب عن الوعي.

قال الطبيب للفنّي والممرّضة:

- انقلاه إلى غرفة العمليات. بعد أن تتأكّدا من انطباق التحليل مع تحليل السيدة.

- حاضر يا دكتور. ستكون عملية النقل ناجحة.

- بعد التأكّد من التطابق النسيجي؟

- لا تقلق. هه ادفعيه فوق السرير نحو غرفة العمليات، سأرسل من يساعدك.

غاص في أحلامه المتداخلة، وهو يرى رنا تضحك بلا صوت ووالدها ينظر إليه بعينين ينطلق منهما الشرر. والممرّضة والطبيب يبتسمان.

رأى وجه أمّه الباكي، ثم رأى وجه ابنة خالته رجاء. ثمّ تداخلت الصور وغاب تماماً عن الوعي.

-٣-

عندما طالت غيبة نور، شعر عارف بالقلق. لأن جلسة العملي قد بدأت ونور غير موجود. ما الذي أرادته رنا من نور؟ ولماذا استدعته؟

شعر أستاذ العملي بغياب نور، فسأل عارف:

- ليس من عادة نور أن يتأخّر؟

- نعم يا أستاذ، إن شاء الله يحضر بعد دقائق.

- هل هو مريض؟

- لا. هو بخير، ربّما أخّره أمر ما، أرجو أن يحضر سريعاً.

- هيّا إلى مجهرك الضوئي، بدأت الجلسة. لديكم عيّنات على كلّ منضدة المطلوب منكم تحليلها ووضع مكوّناتها بوضوح. وسأسمح له بالتأخّر يا عارف، ولو ساعة. نور طالب عبقري وأنا أقدّره.

- معك حق يا أستاذ.

عاد يسأل نفسه:

- لماذا تأخّر، وماذا تريد منه رنا؟ لست مرتاحاً لذلك أبداً.

* * *

غاص نور في أحلامه الكابوسيّة، وهو يشعر أنهم ينتهكون جسده، ويجرون عليه عمليات غير مفهومة، وطبيب كهل وجهه قبيح. يبتسم في وجهه فتظهر أنيابه المرعبة.

شعر أنه يغوص في عوالم أخرى، عوالم غير مفهومة من جديد، قبل أن يدخل في ظلام دامس، ويختفي إحساسه بالحياة.

* * *

انتهى درس العملي. ولم يحضر نور، وما زالت حقيبته مع عارف، هو لم يتعرّف على منزل نور من قبل ولا يعرف سوى أنه يعيش وحيداً مع أمّه بعد أن توفي والده باحتشاء في منتصف عقده الرابع.

يجب أن يرى رنا وأن يعرف منها ما جرى، وأين نور لماذا لم يعد؟ وبالصدفة لم تحضر رنا جلسة العملي، ولم يرها أحد في الكلية. اقتربت منه سهير إحدى زميلاته، وكان نور يستلطفها:

- ما بك يا عارف؟ تبدو مهموماً.

- كنّا في المقهى وذهب نور ولم يعد.

لم يرغب أن يخبرها بذهاب نور مع رنا، قد تغضب. سألته:

- أين ذهب؟

- لا أدري، قال إنه سيغيب لدقائق ثم يعود، ولأوّل مرّة سيغيب عن محاضرة الساعة الرابعة والنصف أيضاً. ولم يحضر جلسة عملي الجنين أيضاً.

- أمر غريب.

- أتعرفين أين يسكن؟ وما رقم هاتف منزلهم - أقصد الهاتف الأرضي؟

تنهّدت ثمّ قالت بعد لحظات:

- لا أعرف المنزل الذي يسكن فيه، ولا رقم هاتفهم الأرضي. صحيح أننا نشاهد معاً دائماً، ولكن ليست هناك علاقة بيننا.

- ماذا تقولين؟ الذي أعرفه أنه معجب بك.

- اسمع يا عارف، أنا احترم نور كثيراً، وبصراحة أعرف أنه يحبّني ولكن المشكلة أن أهلي من المستحيل أن يقبلوا به زوجاً لي.

قال بغضب:

- لماذا؟ لأنه فقير؟ أتعلمين سيصبح أهم طبيب اختصاصي فهو عبقري في كلّ شيء، والأساتذة معجبون بتفوّقه وذكائه.

- أهلي، أقصد أبي وأمي، شديدان في هذه الناحية.

- ما زالت هناك سنوات لأخذ مثل هذا القرار.

- معك حق. ولكني استبق الأحداث، لأني أعرف قسوة أبي وتشدّده في أمر زواجي وأنا وحيدته. عن إذنك.

«مسكين يا نور. حتى الفتاة التي تحبّها يبدو أنها لا تكترث لك. يا إلهي أين ذهب نور، ولماذا أخذته رنا؟ وإلى أين»؟

* * *

قال الكهل والد رنا وهو يتحادث مع الطبيب:

- كم يبدو جسمه ضعيفاً؟

- ولكنّ كليته جيّدة جدّاً، كيف عثرتم عليه؟

- هو شاب فقير، مقطوع، وليس سوى والدته. المهم أننا قمنا بالعملية، على أساس إعلاناتنا عن متبرّع وأن المتبرّع حضر.

- كلّ هذا يبدو منطقيّاً.

- وأنت يا دكتور فؤاد الطبيب النابغة صديق العائلة، قمت بكلّ ما يلزم، مع أخصائية التخدير (نجلاء)، لم توقظوه؟

- بالتأكيد لا هذا ما طلبته منّي، وطلبته من الدكتورة نجلاء.

- عظيم يعني أنّ وضعه سيكون دقيقاً.

- كلّ شيء جرى بهدوء يا ثابت بيك.

- نعم. والمهم أن زوجتي بخير.

- نعم. لا تقلق العمليّة ناجحة مئة بالمئة. والشاب سيتولّى رجالك أمره، كما أخبرتني.

- لا تقلق من هذه الناحية.

- المهم جرى الموضوع بسلاسة وهدوء.

كانت رنا تبدو سعيدة وقد أنقذت أمّها أخيراً، ورغم الإعلانات عن الحاجة لمتبرّع وكثرة الفقراء الذين أتوا للفحص النسيجي، فلقد جاء الفرج أخيراً مع هذا الشاب الذي كانت تكره ثقته بنفسه وحبّ الأساتذة والطلاب له وهو من طبقة فقيرة، يتعامل مع الجميع بعزّة نفس كأنّه لا يعاني من فقره، سألها والدها:

- ولا يعرف أحد أنك من صحبته إلى هنا؟

- بالتأكيد يا أبي. المهم أن (ماما) بخير كما أكّد لنا الدكتور فؤاد.

-٤-

لم يطلب الدكتور فؤاد من طبيبة التخدير إيقاظ نور، كما طلب منه الكهل الثريّ ثابت بيك، من أجل مساعدة الرجلين ليتخلّصا منه بسرعة، نقله الرجلان على كرسي نقّال وقد بدا غائباً عن الوعي، ثمّ أحضرا السيّارة ومدّداه في مقعدها الخلفي وانطلقا بها من المستشفى في الطريق إلى خارج المدينة، كان الرجلان يتحادثان:

- كأنه ميّت، أمعقول؟

- ممكن، لا يعلم سوى الله ما فعلوا به.

- المهم أننا سنلقي به في المكان الذي اخترناه لموته.

- بعد أن نطلق عليه رصاصة الرحمة.

- قد لا نحتاج لا داعي لذلك، سيلقى من علٍ في وادٍ سحيق، والباقي تتكفّل به الطبيعة فإذا لم يكن قد مات، فسقوطه في الوادي سيقتله تماماً.

- معك حق. لدى كلّ منّا مبلغ كافٍ لابتعادنا عن البلد، وقد وعدنا ثابت بيك، بوضع مبالغ أخرى في رصيد كلّ منّا في الخارج.

تأوّه نور وكأنّما بدأ يستيقظ من المخدّر، قال أحد الرجلين:

- أسمعت؟ إنه لم يمت بعد.

- نحن نقترب من مكان الوادي، لا تقلق. المهم حافظ على هدوئك.

- الطقس شديد البرودة، وإن لم يمت من السقطة، سيموت من البرد.

- لا سيارات في الطريق، هذا جيّد لنا، سنقوم بعملنا بهدوء ودون قلق أو خوف. اسمع، سنقف هناك، ونلقي بالشاب. تأكّد أن ليس حولنا من أحد.

أوقف أحدهما السيّارة، قال الآخر:

- لا تقلق، في هذا الطقس البارد والظلام يخيّم الآن. لا وجود لأحد. هيّا بسرعة. سنحمله معاً. مكان المنحدر المطلّ عل الوادي قريب منّا.

- لا بأس، وأنا أيضاً أعرف المكان، لنضعه هنا.

- لماذا؟ ما الذي ستفعله؟

- سأضغط زرّ مفتاح المصباح الكهربائي الصغير، لنرى مكان إلقائه في الوادي.

- طيب. هيّا بسرعة إذن، كأني أسمع أصواتاً قادمة.

ألقياه بكلّ قوّة باتجاه الوادي، واتجها نحو السيّارة بسرعة، وقد لمحا تجمّعاً لأناس قادمين:

- أدر السيارة بسرعة. كأنّ هناك بعض سكان المنطقة.

- المهم أنهم لم يرونا. هيّا نبتعد.

- الآن هو ميّت بالتأكيد.

- شبع موتاً، لو أطلقنا عليه النار لكانت هناك مشكلة مع هؤلاء الناس؟

- معك حقّ، المهمّ لم يرنا أحد.

- أعتقد ذلك، زدْ من سرعة السيّارة.

مرّت السيّارة المسرعة قرب المجموعة القادمة من الناس، وكانوا من سكّان المنطقة يعودون إلى بيوتهم بعد أن أنهوا أعمالهم في أراضيهم، قال أحدهم وكأنّما لم تعجبه انطلاق السيّارة السريع:

- أرأيتم ما قامت به السيارة؟ كأنها ابتعدت بسرعة. لا بدّ وأن من فيها قد ارتكبوا شيئاً غير قانوني.

- معك حق. ارتبكوا حينما سمعوا أصواتنا.

- كأنّما كانوا يقومون بعمل غير قانوني.

- لنسرع قد نرى شيئاً من آثار ما تركاه.

كانت حركة العجلات واضحة على الجانب الترابي من الطريق:

- سلّط ضوء المصباح هنا، أترى آثار جرّ جسم على التراب، تنتهي الآثار هنا، عند الحافّة، يا إلهي ربما ألقوا جثّة في الوادي.

- لو استطعنا التقاط رقم السيارة.

- انطلقوا بسرعة، ربما كانوا أكثر من اثنين.

- معكم حق. وماذا نستطيع أن نفعل، البرد شديد يجب أن نذهب إلى بيوتنا، لا نستطيع معرفة ما فعله من في السيّارة، بالتأكيد هناك سرّ، ما رأيكم أن نفحص المكان غداً على ضوء النهار؟

- ربّما سقط المطر، وأزال كلّ أثر، ولكن لا مفرّ لنا من الذهاب الآن. بالتأكيد هناك سرّ، ولكننا عاجزون عن كشفه. وليس لدينا معطيات لأي معلومة.

- معك حق.

-٥-

كانت «زينة» العجوز في كوخها الصغير قرب مكان تجمّع المياه في الوادي، كانت قد أشعلت الحطب وقد نقلت كلَّ أغراضها إلى الكهف المجاور، خائفة من هطول المطر، وأن يصيب البلل كلّ ما في كوخها المزرى.

تعيش «زينة» في المنطقة منذ سنوات طويلة، بعدما هاجر أولادها إلى خارج البلد، وكانت تستلم رسائل من ابنتها الوحيدة، ومن أبنائها الثلاثة الموزّعين ما بين كندا وأستراليا وهنغاريا. بينما ابنتها الوحيدة كانت في تركيا، ولم تعد ترسل لها رسائل.

لم تترك زينة وسيلة من الوسائل إلّا وحاولت أن تعيد التواصل مع أولادها دون نتيجة وكان أخوها حمدان يردّد دائماً:

«عندما يغيّر الإنسان جلده وتأخذه الحياة، تنطفئ ذاكرته. أولادك نسوك يا زينة، ولن يتذكّروك فجأة».

دبّرت أمور إقامتها وقد انهار بيتها الطيني الضخم بعد أن جرفه السيل، الذي اجتاح الوادي لأوّل مرّة منذ خمسين عاماً.

أشفق على وضعها أهالي القرية المجاورة، وساعدها بعضهم ولكن انزواءها في منطقة بعيدة عنهم قليلاً في الوادي، جعلهم لا يتذكّرونها إلّا لماماً.

قدّم لها انزواءها وعزلتها بعض القوى الخفيّة التي بدأت تتمتّع بها فهي لم تخف من الحيوانات أو وحوش الغابة، بل وأصبحت الحيوانات تتعايش معها حتى الذئاب. وهي في جلستها قرب باب الكهف سمعت صوت سقوط جسم في ماء، ذعرت قليلاً:

«بالتأكيد ليس حجرة ضخمة. سأذهب لأرى»، اتجهت نحو المكان الذي خمّنت فيه سقوط الجسم، كان الظلام شديداً، أشعلت خشبة لترى المكان. ظهر لها جسم بشري طافٍ على الماء. فصرخت بصوت حاولت كتمه:

«يا ويلك يا زينة. إنه شاب، البرد شديد. سأحاول سحبه بالعصا الطويلة. إنه ينتفض ما زال حيّاً، يا إلهي».

تمكّنت بصعوبة من سحب الجسم، بدا لها شاباً صغيراً، مصفرّ الوجه، يختلج، وهناك شرشف ملفوف حوله، بدأ ينحسر، لترى على ضوء الخشبة المشتعلة آثار جراح على جسمه.

«مسكين. من فعل بك هذا؟ أي مجرم ألقاك هنا، وأنت بين الموت والحياة لتسقط في هذا التجمّع المائي، هذه المياه المتجمّعة هي التي أنقذتك من الموت، لماذا كانوا يريدون قتلك».

* * *

وصلت رجاء إلى المستشفى المركزي، وسألت عن عجوز في العناية المشدّدة اسمها أم سعد. كان هناك رجل يجلس أمام العناية المركّزة:

- أنت السيدة رجاء؟

- نعم. أين السيدة أم سعد؟

- هي متعبة كثيراً. انتبهي وأنت تقابلينها، لا أدري ما هو السر الذي تريد أن تحكيه لك. وضعها صعب يا سيدة رجاء.

- لا تقلق، أنت قريب لها؟

- لا. أنا ابن جارتها الأشد قرباً منها.

- أيمكن أن أدخل؟

- سنأخذ إذناً من طبيب العناية المشدّدة وتدخلين وحدك.

- أنا أنتظر.

«ترى ما هو السرّ الذي يشغل أم سعد صديقة أمّي وتريد أن تبوح به لي؟» جاء طبيب العناية المشدّدة مع الرجل، قال لها بهدوء:

- أرجوك انتبهي لها. سيدة رجاء، هي في وضع حرج.

- لا بأس، سأكون شديدة الانتباه.

أدخلها الطبيب حتّى أوصلها إلى سرير أم سعد، وشدّ على يدها منبّهاً ثمّ خرج، فتحت أم سعد عينيها، كانت فعلاً في وضع صعب تشدّدت قليلاً وهي تقول:

- أنا سعيدة بحضورك إلى هنا، لتسمعيني، وأبوح لك بالسر الذي يؤرقنيّ، وأرجو أن تنفّذي ما سأقوله لك، عديني بذلك.

- أعدك يا خالتي أم سعد.

تنهّدت متشدّدة، مكابرة على آلامها:

- اسمعي يا ابنتي، أولادي يأتون إليّ في العطل والأعياد، وبعضهم تشغلهم حياته، ولكنّي ظلمتُ أختي في حياتي ظلماً شديداً. وأريدُ أن أحكي لكِ سرّ هذا الظلم. آه يا ابنتي. كنتُ صبية صغيرة وأختي كانت أكبر منّي بسنتين واسمها زينة، آه لو تعثرين عليها، وأرجو أن تكون ما زالت حيّة.

- ما قصتك معها؟ وهل هي بعيدة عنك أم لم تريها منذ زمن طويل؟

- جاء شاب لخطبة زينة، ولكنّي دخلت على الخطّ وجعلته يكرهها ويبدلني بها. سأحكي القصّة:

* * *

«انفردت بالشاب»، قلت له:

- أنا آسفة يا سالم، زينة مصابة بمرض نفسي، فهي تكره الرجال وربّما لكراهيتها قد تدسّ لك السمّ أو تقتلك.

- ماذا تقولين، رأيتها عدّة مرّات لم أسمع منها أية كلمة تدلُّ على أنها مصابة بمرض نفسي. زينة إنسانة راقية مثقّفة.

- سوف أجعلك تراها في وضعها الحقيقي وتحكم بنفسك.

سألتها رجاء، لتجعلها تستردّ بعضاً من نفسها المتقطّع:

- وماذا فعلت لإقناعه؟

- سكبت حبراً ملوّناً على فستان خروجها، ورأتني أفعل ذلك فسألتني بهدوء:

«لماذا تفعلين ذلك؟» قلت لها «لأري الناس جنونك» سألتها رجاء:

- لماذا فعلت ذلك؟

- كانت أجمل منّي وأكثر ثقافة مني، وكنتُ المدلّلة الصغيرة التافهة، ولم أكن - كما قال والدي- جذّابة لأي شاب ليتقدّم لخطبتي. فعلاً عشتُ مراهقتي بشكل سيّء، وقد كانت غيرتي من زينة أختي، قاتلة، أكثرت من عمل المقالب لها وهي تستوعبني حتى خرجت عن طورها يوماً. وكان سالم قريباً منها فصدّق ما كنت أقوله عنها. وابتعد عنها، ثمّ أغرقته بإثارتي حتى إنه كان يلتقي بي خلسة - بتشجيع منّي- حتى حدث ما حدث وقلتُ له إني حامل. فخطبني وتزوّجنا. وساهمت في تخريب سمعة أختي بشكل بشع حتى لا أبدو كاذبة أمام سالم زوجي.

- إلى هذه الدرجة؟

- نعم يا ابنتي، هربت زينة من جوّ البيت وتزوّجت معلّم مدرسة فقير وابتعدت عنّا، وسط نحيب أمّي وبكائها. وبالتدريج عرفت أمّي ما فعلته معها من مقالب فحاولت ترميم العلاقة مع ابنتها ولكنّ زينة ابتعدت عنّا نهائيّاً، ولم نعرف عنها شيئاً. وبعد وفاة والدي ثم والدتي التي غضبت عليّ طوال حياتها لأني ظلمت أختي

(زينة) ظلماً شديداً. ووالدي كان مصاباً بالزهايمر في أواخر حياته. لزينة تركة كبيرة مكتوبة باسمها، ولا نعرف أين هي.

- جئت بي إلى هنا يا خالة لتطلبي مني البحث عنها؟ معقول؟

- لا. ليس لهذا الموضوع، هو سرّ عليّ أن أبوح به لشخص ولم أجد سواك يا رجاء، أنت مازلت صبية، وزوجك في الجيش، ضابط كبير قد يستطيع العثور على أختي زينة التي أرجو من ربّي أن يسامحني على ظلمي الشديد لها. والله يا ابنتي لم أعش لحظة سعادة بعد رحيلها، رغم المال والجاه، وكان سالم جيداً معي، وعرف أن في داخلي شيئاً عن أختي، كان غامضاً، وغير معروف بالنسبة له.

- ولم تتحدّثي عنه لأحد غيري، حتى لأولادك؟

- الحياة تمرُّ بسرعة، لم أرد أن أخرّب صورتي الجميلة أمام أولادي.

- ولكن ما فعلته يا خالة أم سعد غير منطقي؟ بعد كلّ هذه السنوات تريدين منّي البحث عنها؟

أجهشت بالبكاء، وكاد نَفَسُها أن ينقطع، نهضت رجاء لتحضر الطبيب، لكنّ العجوز أشارت إليها رافضة، عادت تجلس قربها وانتظرت حتّى تمالكت نفسها وتابعت الحديث:

- رجاء، أرجوك يا ابنتي، أنا سألقى وجه ربي، أريد أن أحقّق شيئاً من الخير قبل مماتي بالعثور على أختي.

- ولا تعرفين عن أحوالها شيئاً، أين هي؟ أين تقيم وفي أيّة مدينة؟ هل في بلدنا أم في الخارج؟

- زوجها كان شديد الفقر، ولكنه كان عصامياً، أحبّها كثيراً لوعيها وثقافتها واكتشف إساءتي إليها، فأبعدها عنّا وبدأ معها مرحلة كفاح، ولم نسمع عنهما شيئاً. أستطيع أن أعطيك كلّ الأسماء التي ترغبين، ولكنّ عِدِيني بالعثور عليهما، قد أستطيع رؤية (زينة) قبل موتي، وإن لم أرَها، على الأقل ستأخذ تركتها المحفوظة حتى الآن.

«يا إلهي إنه طلب غريب وصعب. ولكنّ العجوز نادمة ندماً شديداً على إساءتها لأختها، وتريد قبل أن تموت، أن تلقى وجه ربّها نادمة تائبة».

- كيف سأعثر عليها وعلى زوجها يا خالة أم سعد؟

- هذا هو رجائي منكِ يا ابنتي، ابحثي عن أختي المظلومة، لتستعيد تركتها وأموالها. واعتذري منها بالنيابة عنّي، تعرفين الآن ما أعانيه وأنا في سبيلي للقاء وجه ربي.

- سأحاول جهدي يا خالة أم سعد، أعدك.

دخل الطبيب:

- المرأة العجوز وضعها صعب، أرجوكِ، يكفي إرهاقاً لها.

همست له:

- جئت بناء على دعوتها لي، أفضت لي ببعض الأسرار والتوصيات لأنفّذها لها وهي في حالتها الحرجة.

قال بصوت عال مخاطباً العجوز:

- أتريدين شيئاً من الصبيّة؟ يجب أن تخرج.

قالت بصوت متهدّج:

- فقط عديني يا ابنتي أن تنفّذي ما أوصيتك به.

- أعدكِ يا خالتي. بعون الله سأنفّذ لك وصيتك.

غمغمت وهي ترمش بعينيها:

- بالسلامة يا ابنتي، قلبي مرتاح الآن، أستطيع أن أموت بسلام.

قبّلت رجاء جبينها، وشكرتْ الطبيب وأوصته بها ثمّ خرجت.

-٦-

تذكّرت رجاء أن نوراً طمأن والدته أنه في المستشفى مع رفيقه الذي أصاب والده احتشاء قلبي. فقالت في سرّها:

«أيمكن أن يكون المستشفى نفسه الذي تكلّم منها نور إلى والدته»؟

دخلت إلى قسم القبول، سألت الممرّضة المناوبة:

- عفواً يا آنسة أهناك مريض أُحضر إلى هنا باحتشاء قلبي.

- في أي وقت؟

- في النهار عند الظهر، له ابن يدرس في كلية الطب. أرجوك ابحثي في السجل.

بدأت تعبث بأزرار الحاسوب أمامها ثمّ قالت:

- أكثر من عشرة دخلوا المشفى باحتشاء قلبي، ولكن لدينا حالة سيّدة ابنتها في كلّية الطب، كما في السجّل جرت عملية نقل كلية لها من شاب زميل ابنتها عند الظهر والعملية ناجحة. وقد أخذ والد الفتاة، الشاب المتبرّع إلى مشفى آخر لمراقبته حتى يعود إلى قوّته.

- سجلتم شيئاً عن الشاب المتبرّع؟

- سجّلنا اسم الشاب فقط، بناء على طلب زميلته، لم ترغب بوضع الكثير من المعلومات عنه - كما قالت - لأنه تبرّع لوالدتها بكليته لحاجته للمال.

- ما اسم الشاب؟

- يبدو أنك مهتمة بالشاب، اسمه (نور الشامي).

- ماذا تقولين؟

- الاسم مدوّن هنا. ولكنّ الشاب خرج فور انتهاء العملية، كما قلتُ لك أخذه والدها لمستشفى خاص.

- اسم الفتاة أو اسم والدها من فضلك؟

- اسمعي يا سيدتي، هذه أسرار، والبوح بها يجلب لي عقوبة قاسية.

- سأرضيك، هه، خذي هذا المبلغ، ليس كثيراً عليك.

ابتسمت الممرّضة، ثمّ قالت متصنّعة الخجل:

- الحالة صعبة، ولولا هذا لما أخذت هذا المال منك. لكن أرجوك ليكن هذا الأمر سرّاً بيننا.

- لا تقلقي، أعدكِ بذلك. وأعدكِ ألّا أشير إلى مصدر المعلومات، مهما كانت الضغوط عليّ.

- لا بأس. اكتبي المعلومات على هذه الورقة.

كتبت رجاء اسم السيدة التي نقلت لها الكلية، واسم زوجها وابنتها. وشدّت على يد الممرّضة شاكرة وخرجت وهي في أشدّ الحيرة والقلق.

«تبرّع نور بكليته إلى والدة زميلته مقابل مبلغ من المال. معقول؟ أمعقول أن يبيع نور كليته. ومن أجل المال؟ مستحيل، هذا لا يمكن أن يفعله نور. والدته عانت كثيراً لتؤمّن له ما يحتاجه. فهل أراد المزيد من المال؟ قلبي يحدّثني أن شيئاً خطيراً وراء كلّ ما يحدث».

حالة المسكينة أمّ سعد الماديّة ممتازة والمستشفى من أكبر مشافي العاصمة، وحالة زوج المرأة التي أخذت كلية نور أيضاً ممتازة، فهو من أكبر رجال الأعمال، وأوسعهم نفوذاً. من الطبيعي أن ينقل لزوجته كلية متبرّع، كما زعموا، في هذه المستشفى المشهورة.

بالصدفة اكتشفت العملية، ومعها الآن أسماء من قاموا بالعمليّة، كيف لها أن تخبر والدة نور بأن نور تبرّع بكليتِه إلى زوج ذلك الشخص الذي رغب وضعه في مشفى خاص. وأين هو ذلك المشفى الخاص؟

ماذا ستفعل الآن؟ والدة نور في حزن دائم، وإذا سمعت أن ولدها تبرّع بكلية لقاء المال، ستموت كمداً. هو كلّ حياتها وقد ضحّت بكلّ شيء لأجله هل من المعقول أن يبيع كليته؟

تكاد تجنّ، ماذا تفعل الآن؟ لا بدّ وأن تحكي لزوجها كلّ شيء، قد يساعدها في الموضوع، فهو يحترم خالتها أم نور كثيراً.

* * *

أدخلت زينة الشاب مصفرَّ الوجه، الذي يختلج إلى كهفها الصغير، وأشعلت النار قربه، وبدأت تفرك له وجهه وصدره. ثمّ أحضرت منقوعاً للأعشاب أسندت رأسه إلى كتفها وصبّت في فمه عدّة جرعات، انتفض يتقيؤها.

إنه شاب فتيّ، ما سرّ هذه الجراح في جسمه؟ ولماذا ألقوه من هذا العلو؟ هل رغبوا بموته؟ أولئك الأنذال. يبدو وجهه بريئاً، لماذا قتلوه؟ وما هذه الجراح هنا في البطن إلى اليمين، وآخر، وآخر. ؟ ماذا فعلوا له؟

«ويلي عليك يا بنيّ، أنتَ أحد ضحاياهم أيضاً، بالتأكيد أنت فقير، واستغلّوا فقرك لسرقة أعضاء من جسمك. يبدو أنه يستجيب لما أقوم به من دلك في أطرافه وصدره ورأسه» سمعت صوته المختلج:

- ماذا جرى لي؟ أشعر أنني أموت.

قالت بحنان، وهي تحتضنه:

- كافح الموت يا بنيّ، لا تستسلم. أنا معك.

تأوّه وهو يبكي:

- أمّي. أمّي. ما دمتُ بين يديك أنا لا أخاف.

بكت متأثّرة وقد رأت فيه شاباً مظلوماً تخيّلها أمّه:

«أنا سأكون أمّك ولن أستسلم حتى أعيد لك الحياة التي حاولوا سلبها منك يا بنيّ. كم هو بريء هذا الشاب الصغير، قاتلهم الله»؟

* * *

شعر عارف زميل نور بالقلق، فلا أحد سأل عن حقيبة نور، كأن نوراً قد ذهب مع رنا التي خدعته، ليشاركها دون أن يدري، في أحد مشاويرها

الخبيثة، ولكن نوراً لا يمكن أن يُقْدِم على شيء غير أخلاقي وهو لا يدخّن ولا يشرب إلاّ في المناسبات، ومشروب غير كحولي. وعد أمّه أن يبتعد عن هذه المغريات وينفّذ وعده.

بحث في حقيبة نور، كان هناك جوّاله ولكن عارفاً كان يميل إلى الذهاب إلى بيت نور، ليسأل عنه، فبالتأكيد نور مطمئنّ على ما في حقيبته وأنها بيدٍ أمينة، هي يد صديق عمره عارف. وكان الجوّال مطفأً، كأنّه يحتاج لشحن سريع. ربّما لو شحنه لعرف شيئاً عن أرقام أقربائه، ورقم أمه بالتحديد. ذهب إلى البيت، كانت أخته تنتظره. وقد عادت من جامعتها:

- الطعام جاهز يا عارف.

- كيف كان يومك؟

- لا بأس. وأنت؟

- قلق على نور صديقي، ذهب عند الظهر ولم يحضر محاضرة العملي ولا محاضرة النظري، لأوّل مرّة يفعلها.

- ربّما انشغل بأمر ما.

- حقيبته معي، وفيها جوّاله غير المشحون، لا بدّ وأنه والدته قلقة عليه كثيراً. هو وحيد والدته الأرملة كما تعلمين.

- ضعْ جوّاله في الشحن، وقمْ بعملك في الاتصال بأهله.

- معك حق.

- اتصل والدي سيعود وأمي غداً بعد الانتهاء من التعزية.

- الحمد لله، ستتفرّغين بعدها لدروسك، أنت بحاجة لذلك.

- معكَ حق يا عارف.

* * *

كانت رنا قرب سرير أمّها:

- حمداً لله على سلامتك يا أمي.

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

- نعم. الكلية الجديدة تعمل جيداً.

دخل والدها وهو يبتسم وقد رأى زوجته تتحرّك:

- انظري إلى وجه أمّك يا ابنتي، عادت إليه الحياة. أنت بخير، كثير من الزوّار جاؤوا يطمئنّون عليك. وأكاليل الورد تعبّئ الصالة القريبة.

- عالجتم مشكلة الشاب؟

قال بثقة وهو يسرح في البعيد وعلى وجهه شبه ابتسامة خبيثة:

- على أتمّ وجه، كلفتنا العمليّة قليلاً، ولكنّ كلّ ذلك لا قيمة له أمام سلامتك. تستطيعين بعد فترة قصيرة أن تشرفي على شركاتك ومعاملك.

قالت رنا هامسة:

- أريدُ منك هدية قيّمة على ما فاجأتك به من إحضار ذلك الشاب.

همس مجارياً لها:

- سيارة من أحدث طراز كما ترغبين. وكلّ ما تريدينه سينفّذ فوراً يا حبيبتي.

قالت الأمّ:

- لماذا تتهامسان؟ هل هناك شيء لا أعرفه.

- تسأل عن المتبرّع؟ قلتُ لها إنه بصحّة جيدة، وقد حوّلت له المبلغ الذي طلبه.

- ومن هو؟

- شاب فقير، وافق على إعلاننا ببيع كليته لقاء المال.

- المهم هو بخير. وقبض منك المبلغ.

- لا تقلقي يا أم رنا، بل زدتُّ له المبلغ قليلاً، المهم أنت بخير. وستعودين إلى نشاطاتك، كسيّدة صالونات، وسيّدة أعمال مشهورة في البلد.

- يحتاج ذلك لبعض الوقت؟

- تقريباً. خلال أسبوعين أو ثلاثة، وعلى الأكثر شهر كما يقول الدكتور فؤاد. هه أطلّ الدكتور العزيز.

كان فؤاد قد أصبح فوق رأس المريضة:

- كيف حال المريضة السعيدة؟

- الحمد لله يا دكتور فؤاد.

قال الدكتور فؤاد:

- هذا الجناح لا يدخله سوى كبار القوم. هيّأناه لكِ. لترتاحي خلال فترة النقاهة.

- نقاهة؟ هل هي طويلة؟

- كما قال ثابت بيك، أسبوعان أو ثلاثة إن شاء الله. جئت لأسأل إن كنت مستعدّة لاستقبال بعض زوجات السفراء الذي يعملون هنا، وهنّ صديقاتك كما أعرف.

- الأمر يعود لك أنت الطبيب الذي يقرّر.

- أعطيتهن موعداً بعد يومين، تكون حالتك أفضل. ولا يدخل إلى غرفتك أحد - حتى أقرب الناس إليك - دون كمّامة، كما تقتضي الشروط الطبية لمن هم في مثل حالتك الدقيقة.

- شكراً لك يا دكتور فؤاد. القسم الخاص في هذه المستشفى فاخر والعناية بمرضاه، متميّزة بشكل واضح.

قال الطبيب:

- فكيف إن كان أحد مرضاه، مريضتنا السعيدة؟

- بارك الله بك.

-٧-

ما إن تمّ شحن جوّال نور قليلاً حتّى فتحه عارف، واستعرض الأسماء، كان هناك اسم ماما، لا بدّ وأنّه رقم والدته، ضغط على الرقم، سمع صوتاً متهدّجاً باكياً:

- آلو. نور حبيبي أين أنت؟

- أنا صديق نور يا خالة.

- لماذا لم يعد؟ ولماذا تحمل جوّاله؟

- لم يكن مشحوناً. لم يعد نور بعد؟

- لم يعد؟ من أين؟ قال لي جملة واحدة في نحو التاسعة، أنا في المستشفى أزور والد أحد زملائي الذي أصيب باحتشاء قلبي.

- هو قال لك ذلك؟ ولم يعد حتى الآن، إنها الحادية عشرة حقيبته معي، وتحوي كتبه وأغراضه.

انفجرت تبكي:

- وأين ذهب؟ كيف ترك أغراضه لديك ولم يقل لك أين هو ذاهب؟ لم يقل لك أنه ذاهب للاطمئنان على والد زميلكم المصاب باحتشاء؟

- لا يا خالة.

فكّر مصعوقاً:

«الأمر غير مفهوم. ما الذي جرى للشاب؟ ولماذا هو، كما قال، في المستشفى»؟

- أرجوك يا بنيّ، أنا أكاد أموت من القلق عليه.

- أعطني عنوان البيت يا خالة، سآتي لأزوركم.

- لا بأس يا بني.

* * *

لم تدرِ رجاء كيف تتصرّف، وموضوع نور ابن خالتها يتعقّد. فاتصلت بزوجها الضابط الذي كان يناوب في ثكنته.

حكت له القصّة بالتفصيل، وأبدت له قلقها الشديد على حياة نور المختفي وكما قالوا لها، وضعه والد زميلته في مشفى خاص للعناية بصحته. قال لها بعد قليل:

- اسمعي يا رجاء، الموضوع ليس سهلاً، إن كان نور قد تبرّع بكليته، لقاء المال، فلا نستطيع أن نفعل شيئاً، وثابت بيك وزوجته وأهلها ليسوا سوى ملوك المال في البلد. نفوذهم يفوق الوصف.

- إذن ماذا سنفعل، هو الابن الوحيد لخالتي ولو حدث له شيء ستموت أمه. العمليّة برمّتها غير منطقيّة. لا يمكن لنور الشاب الواعي المحبّ لأمّه، أن يبيع كليته لقاء المال، دون أن يعرف أحد بذلك. هو صديقي وأنا في مقام أخته، لا يمكن أن يقدم على عمل خطير، دون استشارتي.

- اسمعي يا رجاء، سأترك مساعدي أن يبحث في المشافي عن اسم نور، كلّ المشافي الخاصة، قد نعثر عليه ونفهم منه الحقيقة.

قالت ترجوه وهي تبكي منفعلة:

- أرجوكم يا حسن. وضع خالتي غير مطمئن تكاد تقتل نفسها من القلق.

- إن شاء الله يا رجاء. سأحاول ما في استطاعتي البحث عنه والوصول إلى مكانه، تعرفين كم هو أثير إلى قلبي، بذكائه وثقافته ووعيه.

- ولا يمكن لشاب مثله أن يقوم بمثل هذا العمل؟ أنا مليئة بالشكوك حول ذلك، هناك شيء غامض، غير مفهوم.

- معك حق. هناك شيء غامض غير مفهوم.

*   *   *

وضعت (زينة) مراهمها وأعشابها فوق الجروح، وأجبرت الشاب على تناول بعض منقوع الأعشاب. وأدفأته جيداً، حتى شعرت أن الحياة بدأت تعود إليه. وقد غفا بعمق.

بدأت تبكي بصمت وهي تراقبه وترى وجهه البريء الذي ذكّرها بأولادها، ما قصّة هذا الشاب؟ ولماذا ألقوه في عمق الوادي لقتله، بعدما أخذوا من جسمه أجهزة لزرعها في مرضى، كقطع بديلة عن أجهزة تالفة؟

هل له أهل؟ ولماذا اختاروه لسحب بعض أعضائه، ثم لقتله؟ من هؤلاء الناس؟ لا بدّ وأن يكونوا من المتنفّذين، بلا قلوب، ولا أحاسيس إنسانية؟

سمعت هرير حيوان خارج الكهف فخرجت لترى ذئباً من الذئاب التي تعيش في المنطقة يلقي أمام الكهف لباساً مكوّماً في كيس من النايلون. ثم هزّ ذيله وابتعد، كأنه شعر أن الكيس يحوي أشياء مهمّة.

*　　*　　*

رنّ الجوال قربها، فتحت الجوّال:

- الخالة أم نور؟

بكت حين سمعت صوته:

- أنت عارف صديقه؟ صديق ابني.

- لم يعد نور بعد؟

- لا يا بني. أكاد أموت من القلق عليه.

- قلتِ إنه خابرك؟

- نعم. ولكن صوته لم يكن واضحاً، كلمات قالها لي وأطبق السماعة، أن والد أحد زملائه أصابه احتشاء وهو معه يخفّف عنه ويطمئن على والده. لم يكن صوته طبيعياً.

- أمتأكّدة أنه كان نور - من خابرك؟

- لماذا تسأل؟

- لأن نوراً هو أقرب أصدقائي لي، ثم أن كل زملائنا - من يعرفهم نور - لم يصب والد أحدهم باحتشاء، كنّا عرفنا على الأقل. كانوا كلّهم معنا، وحضروا جلسة العملي ثم المحاضرة المقرّرة بعدها.

- وأين نور ابني؟ هل قلّد أحدهم صوته وخابرني ليطمئنني عليه؟ ولماذا نور؟ نور حبيبي يا روح أمك يا حياة أمك أين أنت أين أنت؟

انفجرت تبكي بانفعال، قال لها وهو يحاول أن يتمالك نفسه:

- أرجوك اهدئي يا خالتي. والله لن نهدأ حتى نعيده إليك. نور هو أخ وصديق ولم نرَ مثله أبداً بأخلاقه وذكائه وثقافته.

- وأين هو الآن يا بني؟ الوقت يمرّ ولا خبر عنه.

- أنا قادم إليك يا خالة ومعي حقيبته وأغراضه.

أقفل الخطّ، وخرج يبحث عن سيّارة أجرة ليصل إلى العنوان الذي كتبه عن موقع بيت نور. وهو في الطريق كان يفكّر بـ «رنا»، تلك الفتاة المترفّعة المغرورة التي تأتي في سيّارات فاخرة مع أتباع شديدي الأناقة، غالبيتهم بأجسام رياضيّة ضخمة.

كانت أم نور تنتظر رجاء ابنة أختها ولم تنم في الليل فلم تتّصل بها رجاء ممّا زاد في خوفها وقلقها. رفيق ابنها قادم مع حقيبة نور، ربّما تمكّنت من الوصول إلى أمل يعيد لها الإيمان بعودة وحيدها.

وهي في حيرتها وقلقها رنّ جرس الباب الخارجي: «أمعقول أن يكون رفيق نور قد وصل بهذه السرعة»؟ فتحت الباب كانت رجاء ابنة أختها:

- رجاء حبيبتي، أعرفت شيئاً عن نور؟ لا بدّ وأن لديك خبراً عنه.

انفجرت تبكي، ضمّتها رجاء إلى صدرها:

- اهدئي يا خالتي، أرجوك.

- عرفت شيئاً عنه؟

- اهدئي يا خالتي، وعدني زوجي أن يستنفر عناصره، ومكتب المعلومات في الوصول إليه، تعرفين كم يحبّه حسن.

- في أمل بالعثور عليه؟ أنا خائفة.

- إن شاء اللهّ يا خالتي.

رنّ جرس الباب الخارجي، قالت الأمّ:

- لا بدّ وأنّه رفيق نور.

- سأفتح الباب.

رأت شاباً يحمل حقيبة على ظهره وبيده حقيبة أخرى:

- عفواً أنت صديق نور؟

- نعم، زميله في الكليّة، اسمي عارف.

قالت الأم، وهي تبكي:

- عارف؟ يذكرك كثيراً يا بنيّ، أنت الأقرب إليه، أحضرت لي حقيبته وأغراضه؟ هذه ابنة أختي رجاء.

قالت رجاء:

- أهلاً يا أخ عارف.

همست له:

- لدي الكثير من الأسئلة؟

قال منفعلاً:

- وأنا أيضاً لديّ الكثير من الأسئلة والاستفسارات؟

كانت الأم تضمّ حقيبة نور وهي تبكي، وتستخرج أغراضه وتشمّها ودموعها تسيل بصمت. قالت رجاء:

- خالتي يجب أن تنامي، أنت متعبة سأظلّ معك هنا وستسمعين خبراً مفرحاً عن نور، هيّا إلى سريرك سأضع أغراض نور في الحقيبة. أنت في حالة صعبة يا خالتي.

- لا بأس يا ابنتي.

- وأنا يا خالة سأذهب إلى الكليّة أتسقّط الأخبار.

- أهلاً بك يا بني. إن شاء الله تقودنا معرفتك بنور للوصول إليه وإعادته

ضمّتها رجاء إلى صدرها وأسندتها وهي تكاد تتهاوى لتعبها ويأسها. وضعتها في السرير وهي تهدهدها حتّى نامت. عادت لعارف:

- هل لديك وقت لتشرب القهوة؟

- لديّ دوام في الكلية، ولكن لا بأس.

- سأعدُّ القهوة سريعاً. تعال معي إلى المطبخ. اجلس هنا يا عارف ماذا لديك من معلومات عن اختفاء نور.

- أمر غريب يا سيدة رجاء، طلبه رجل متين البنيان، وقبل أن يخرج همس لي: رنا تريدني، لن أتأخّر سوى لدقائق.

- ومن هي رنا؟

- زميلتنا في الكلية، أهلها أثرياء جدّاً.

- هل هي صديقة له يا عارف؟

- صديقة نور؟ لا، هي زميلتنا في الكلية، تستعير دفاتره أحياناً.

- إذن ذهب مع المدعوة رنا؟ ولكن أين؟ اسمع يا عارف.

- نعم؟

- هل تعرف أن نوراً باع كليته؟

- ماذا تقولين؟ مستحيل.

- عرفت المشفى الذي أُجريت فيها عملية انتزاع كليته، واسم من روّجوا أنهم اشتروا الكلية.

- أنا صديقه المقرّب ولا يمكن أن يبيع كليته؟ نور يبيع كليته لماذا؟ صحيح هو فقير نسبيّاً ولكنه عصامي وأعّز شيء في العالم على قلبه، والدته.

- يعني أنت ترفض هذه الفكرة؟

- بالتأكيد.

- إذن هو ضحيّة خداع أو مؤامرة. والذي أعرفه أن الكِلْيَة التي يملكها المتبرّع يجب أن تتطابق مع نسيج المتبرّع له. كيف جرى ذلك بكلّ هذه السرعة؟

شهق مرعوباً:

- يا إلهي. معقول؟

- خير؟ ماذا هناك؟

«خطر له خاطر غريب. أيمكن أن تكون رنا قد قادته إلى المستشفى وهي من رتّبت له كلّ ما جرى له؟ هل هي من دبّرت له عملية بيع الكلية المفترضة؟ ولمن؟ آه. فهمت كلّ شيء الآن، يا إلهي».

- ماذا يا عارف؟ كأنّك اكتشفت شيئاً.

وصلهما صراخ أم نور وبكائها، اندفعا إلى غرفتها، كانت تبكي:

- لا بدَّ وأن شيئاً خطيراً جرى لنور، رأيته يسقط في هاوية والدماء تنزف منه.

- كنت تحلمين يا خالتي.

- ولكنّي أشعر أنّه بخطر شديد يا ابنتي.

- هذا من قلقك عليه. عودي للنوم يا خالتي، أرجوك.

قال عارف وهو يهزّ رأسه مؤكّداً:

- خالتي أم نور، والله لن أتخلّى عن نور، وسأعمل بكل ما أقوى عليه، لأصل لسرّ اختفائه وإعادته إليك حتى يكون بين يديك.

قالت وهي تغمض عينيها:

- بارك الله بك يا بني. نور محظوظ بصديق مثلك.

- أنتِ في مقام أمّي.

عادت رجاء تطبطب عليها حتّى نامت من جديد.

-٨-

تذكّر عارف فرح (رنا) وهي تدقّق في نتائج الفحص النسيجي للطلبة، وهي تقول لنور:

- نور، فحصك النسيجي مذهل. يا إلهي.

ثم سكتت فجأة وقد رأتنا مستغربين قولها. أيمكن أن كون والد رنا، ثابت بيك، هو من دبّر كلّ شيء في المستشفى المركزي هناك جناح فخم مزوّد بالكثير من الأجهزة الحديثة. لحظته رجاء وهي تداري خالتها. كم هو مستغرب وجهه الذي امتقع فجأة، كأنما أتته الأجوبة فجأة عن كلّ الاستفسارات.

عادا يشربان القهوة:

- كأنّك تأخّرت عن كلّيتك.

- تريدين أجوبة عن استفسارات؟

- بالتأكيد.

عاد الصراخ من غرفة أم نور، هرعت رجاء:

- خير يا خالتي؟ كابوس جديد؟

- أشعر بقلبي يكاد ينشرح، وعندي أمل أنه اجتاز الخطر؟ رأيت امرأة لها وجه ملائكي تضمّد جراحه، أشعر أنّه بخير.

- الحمد للهّ يا خالتي، إن شاء الله هو بخير وسيعود إلينا سريعاً.

عادت تتمدّد من جديد قالت لها رجاء:

- أنا لا أستطيع البقاء، سأذهب لبعض الوقت وأعود إليك يا خالتي. سأزور بعض الناس قد نصل إلى معرفة مكان نور، وسأعود إليك بعد أن أطمئن على ابنتي الصغيرة (رزان).

- لا بأس يا ابنتي. سأنتظرك. لا تتأخّري، أشدّ أزري بوجودك. هذه الجملة التي كنت أقولها لك دوماً.

طبطبت رجاء عليها حتّى نامت، ثمّ قالت للشاب:

- يبدو أنّك تأخّرت عن جامعتك. انتظرني قليلاً، سأوصلك إلى هناك.

كان عارف ينتظرها وهو يشدّ سترته عليه من البرد، أشفقت عليه. قالت:

- اصعد معي سأشغّل مكيّف السيارة.

- تريدين بعض المعلومات منّي؟ أنا جاهز.

- تعرف أن زوجي ضابط، ربما يستطيع أن يساعد في معرفة مكان نور.

- ماذا تريدين أن تسألي؟

- لماذا كنت تهزّ رأسك يمنة ويسرة كأنما عرفت شيئاً؟

- بصراحة، لدينا زميلة اسمها (رنا) وهي ابنة ثابت بيك، أنا أشكّ أنها من اصطحبت نوراً بحيلة ما إلى المستشفى. ربما لأن أمّها لديها فشل كلوي.

- صحبته لتأخذ كليته لأمها؟ هذا غير مقبول.

- المشكلة كان لدينا فحص نسيجي خاص، طبّقه علينا أحد الأساتذة وحين رأت الفحص النسيجي لنور، صفّقت مسرورة.

- الآن فهمت، نسيج كلية نور مشابه أو مطابق لنسيج كلية أمها... آه... يا إلهي.

- ولكن يا سيّدة رجاء، والد (رنا) رجل متجبّر متسلّط، كلّ الناس يأتمرون بأمره، ليس سهلاً العبث معه.

- سنجد وسيلة لمعرفة ما جرى لنور. أعتقد أنه باع كليته مرغماً، أي بالإكراه.

- مستحيل، ربّما خدّروه وأدخلوه على العملية، أنا أعرف نور جيداً.

- يا إلهي، احتمال قائم. مسكين نور.

- عفواً، قفي هنا، هذا باب الجامعة الرئيسي.

- سنبقى على تواصل.

* * *

كانت ليلة عاصفة وقد اشتدّت فيها الرياح الباردة، وكثر فيها عواء الذئاب، و(زينة) في كهفها تتأمّل الشاب الغريب وهي تمسح دموعها.

فتحت الكيس الذي أحضره الذئب، كان فيه ثيابه كاملة وبطاقة جامعيّة سليمة في جيب خلفي لسرواله. عرفت اسمه وكلّيته وجامعته، وهي تمسح دموعها. كان ينام بعمق، وقد قدّرت أن الخطر زال عنه.

من الذي فعل به هذا؟ وهل خطف، أم خدع واستجرّوه إلى مكان ليأخذوا منه أعضاءه؟ مَنْ أولئك الناس؟ هل هم مجرمون عاديون أم مجرمون يتسمون بقوالب جاهزة منافقة كأغلب رجال المافيا في بلدنا؟ شعرت به يتحرّك، إنه يصحو. تمتمت:

- كيف حالك يا نور؟

كان يتقلّب متألّماً:

- أشعر أن السكاكين تقطعني.

- اهدأ يا بني.

إنه يتألّم من جراحه وربّما من فقده للأعضاء التي استخرجوها منه؟ همست بحنان:

- اهدأ يا نور. أنت بخير.

كان يتألّم وهو يتمتم:

- أمي. أمي.

دمعت عيناها:

- أنا في مقام أمك يا نور. اهدأ يا بنيّ.

- أين أنا؟ هل أنا في حلم؟ أم في كابوس؟ لا. وجهك شبيه بوجه أمي، أنا أحلم. آه.

قالت وهي تربت على رأسه:

- خذ اشرب هذا الشراب يا بني، ستشعر بالهدوء، ولن تتألّم بعد ذلك. سأرفع رأسك.

- طعمه مرّ.

- لا بأس يا بني، ستتحسّن حالتك.

- أشعر أنني أغوص في عالم غريب. آه. أمي. أم. م. مي.

- سلامة قلبك يا حبيبي.

«عاد لنومه. يبدو عليه، أنه يتألّم ويعاني. مسكين، قاتل الله من فعل ذلك بك»؟.

أحكمت الغطاء فوقه من جديد، وقلبها يكاد ينفطر، لا بدّ وأن أمّه تكاد تجنّ من القلق عليه. إنه يحبّها كما يبدو ومتعلّق بها.

* * *

«آه يا نور، ما زلت غارقاً بالأحلام الغريبة، أنت تغوص في عوالم لم ترها من قبل هناك بيوت قديمة، مدن مكتظّة بالسكان، فيها أسواق متداخلة ومحلاّت واطئة فيها تجّار فقراء وحولهم الناس يساومون على أسعار السلع». رأى نسوة ورجالاً، كهولاً وأطفالاً، وهو يجوس بينهم:

- ضللتُ الطريق يا عم. أريد أن أصل محطّة القطار.

- المحطّة بعيدة، تحتاج لوسيلة نقل، خذ هذه العربة بثلاث عجلات سائقها يتقاضى القليل، سيوصلك إلى المحطّة. تعال يا مينو.

- نعم يا عم سانجي.

- أوصل هذا الشاب الغريب إلى محطّة القطار. إنه ضائع عن جماعته.

- لا بأس. تفضّل يا سيدي.

- شكراً يا سانجي.

بدت له وسيلة نقل غريبة. قال له:

- حسناً خذ طريقاً خالياً من الازدحام، ربما أكثر طولاً، ولكن أقل ازدحاماً.

- لا بأس.

رأى نفسه وكأن العربة التي يستقلها تحوّلت إلى طائرة صغيرة، رأى ما تحتها من تداخل أبنية وحدائق قصيرة الشجر ضيقة، ثم شعر بنفسه يهوي من ارتفاع سحيق نحو أرض فتحت له فوهة كبيرة ليسقط في دوّارها.

شعر أن الظلام يتكاثف وسرعة سقوطه تزداد، وشعر أن يداً تمتد إليه لتخنقه كانت (رنا) بشكلها البشع وأظافرها الطويلة. ثمّ غاب عن الوعي.

-٩-

رأته (زينة) يختلج، فاستنفرت حواسها. كان يعاني من كوابيس، نتيجة لحالته الصعبة.

مسكين، يعلم الله ماذا فعلوا بجسده الرقيق، ألم يشفقوا على شبابه، قاتلهم الله.

وضعت رأسه في حضنها وبدأت تطبّق ما تعلمته من استخدام القوى الخفيّة لعلّه يتخلّص من أوجاعه وآلامه.

* * *

كان ليلاً طويلاً، والرياح شديدة عاصفة، تكاد تقتلع الأشجار، والبرد القارس يحطُّ في بيوت الفقراء، مرضاً ومتاعب.

لم تغمض عينا عارف ولا لحظة. رفيقه المقرّب وقع ضمن مؤامرة حقيرة، من عليّة القوم، لسرقة أعضائه، وربّما لقتله، مَنْ يعلم؟ حاول البحث عن رنا خلال النهار. لم يرها أحد.

كيف تجرّأت رنا على ذلك؟ مستحيل أن يرى نور يبيع كليته، مهما كان الثمن، كان سيصبح طبيباً ناجحاً. أية مؤامرة خطيرة حيكت حول هذا الشاب العبقري لقتله؟ سأله الكثير من زملائه عن نور، قال إنّه يظنّ أنّه مريض. طلب منه الأساتذة الذين استغربوا غيابه أن يبحث عن بيت نور ليزوره ويطمئنّ عليه.

* * *

بعدما أوصلت عارف إلى الجامعة، عادت إلى خالتها كانت قد استيقظت وأغراض نور بين يديها تشمّها وهي تنتحب. لم تستطع إرغامها على تناول الطعام، حتّى كأس العصير لم تستطع إرغامها على تناوله، ألزمتها بتناول حبّتي منوّم، لتضمن هدوءها وهي وحيدة. ولم تخرج من بيت خالتها إلاّ بعدما اطمأنّت أن خالتها أم نور قد غرقت في نوم عميق.

فتحت رجاء باب البيت، سمعت صوت أمّها:

- عدتِ يا رجاء؟ لم تستيقظ رزان بعد. كيف حال أختي المسكينة أم نور؟

- في حالة سيئة يا أمي. حتى الآن لم يظهر نور.

- ولا يعرف أحد أين هو؟ كيف حدث ذلك؟

- في الأمر غرابة يا أمي، وأسئلة لا نعرف إجابتها حتى الآن.

وكأنّما سمعت الطفلة صوت أمها فأطلقت بكاءها:

- سبحان الله، استيقظت رزان مع قدومك.

- سأطمئن عليها وأحاول النوم قليلاً.

- تناولي طعامك سأجهّزه سريعاً، بالتأكيد أنت جائعة.

- رغم أن خالتي أم نور رجتني أن أعود إليها، المشكلة رأسي مصدوع، يؤلمني كثيراً، تناولت حبّتي مسكّن دون فائدة.

- اذهبي لـ «رزان»وأرضعيها. سخّنت المياه المعقّمة، خفتُ أن تستيقظ وتطلب الحليب.

- أحسنت يا أمي. سأطعمها وأغيّر لها ثيابها، وأهزّ لها لتنام من جديد. أنت متعبة يا أمي.

بعد أن شبعت الطفلة، عادت إلى النوم، رنّ جرس الهاتف الأرضي، كانت أمّها في المطبخ، رفعت السّماعة:

- أنا سعد يا رجاء. أمّي توفّت هذا الصباح.

- رحمها الله. كان وضعها حرجاً في الليل.

- أخبرني الطبيب أنها أوصتك شيئاً؟ هل له علاقة بنا؟ أم بالتركة التي تركتها أمي؟

- لا يا سعد، أوصتني أن أعتني بأمي وألاّ أتركها وحيدة.

- هذا ما أوصتك به؟ أم أنّ هناك شيئاً آخر؟

- بالفعل يا سعد. هذا ما أوصتني به.

فكّرت منزعجة منه: «لا أستطيع أن أقول له أنها أوصتني أن أبحث عن خالته (زينة)».

تابع سعد:

- قال الطبيب أنها شدّدت عليك تنفيذ وصيتها.

قالت بغضب:

- اسمع يا سعد، أمّك كانت تحتضر ولم تجد سواي قربها، بالتأكيد كان يجب أن يكون أحدكم قربها وهي في وضع سيّء. ماذا يمكن أن توصيني غير أن توصيني بأمي؟ ألديك وجهة نظر أخرى؟

- آسف، خفت أن تكون أمّنتك على وصيّة لا نعرفها.

- هذا ما جرى معها، سأحاول أن نكون في التعزية أنا وحسن. البقية بحياتكم. رحم الله والدتك.

- شكراً لك يا رجاء.

وضعت السمّاعة منزعجة: «لو كانت المسكينة واثقة بأبنائها لاستدعت أحدهم وكلّمته أو ربما كلّمتهم جميعاً للبحث عن خالتهم المظلومة».

سألتها أمّها، وقد خرجت من المطبخ:

- لماذا كنت غاضبة في حديثك على الهاتف، مَنْ كان المتّصل؟

- سعد يا أمي، أبلغني أن (أم سعد) أعطتك عمرها. رحمها الله.

- أم سعد؟ مسكينة. عسى الله أن يغفر لها ما فعلت مع أختها.

- ما فعلته مع أختها؟ تقصدين مع زينة؟

- نعم يا ابنتي، كانت قاسية معها، وأوحت للناس أن لديها مرضاً نفسياً، لذلك هربت المسكينة (زينة) من هذا الظلم وتزوّجت شاباً فقيراً واختفت.

- تعرفين القصّة؟ لماذا لم تخبريني من قبل؟

- لا أحب أن ألوك بسيرة الناس، رحم الله أم سعد.

- وأين زينة؟ أتعرفينها؟

- بعد أن تزوّجت، اختفت وزوجها، ربما سافرا بعيداً عن تأثير الأهل الذين لم يقدّروا (زينة) الجميلة المثقفة الطيبة.

- لا تعرفين أين هي يا أمي؟

- لا والله يا ابنتي. لا أعرف بالضبط أين تقيم. هذا من زمن بعيد، ربّما منذ نحو أكثر من أربعين عاماً أو أكثر. لا أعرف شيئاً عنها يا ابنتي.

- ولكنك تعرفين قصّتها؟

- كنت شابة صغيرة يا ابنتي، وظلّت في ذاكرتي، لا يمكن أن أنساها، كنت مقرّبة من زينة كثيراً، وكانت أم سعد تسرّ لي دائماً بعد سنوات من رحيل أختها بعيداً، أنها ظلمتها كثيراً.

- لا بأس يا أمّاه. سأذهب وحسن لنعزّي بوفاتها.

- قد أذهب معكما؟

- سنرى يا أمي.

«كيف سأبحث عن (زينة)؟ وكيف سأعثر على نور المختفي؟ يا إلهي أعنّي».

احترمت أمها صمتها لبعض الوقت ثمّ قالت:

- قلقة على خالتك أم نور.

- وأنا أيضاً يا أمّي.

- لماذا لا أذهب إليها، لأظلّ بقربها؟ هي تحتاج لأحد إلى جانبها يخفّف عنها.

- معك حقّ يا أمّي. هي نائمة الآن، أعطيتها حبّتي منوّم.

- سأبقى قربها، هي تحتاجني يا ابنتي.

- معك حقّ. لديك مفتاح بيتها كما أعرف.

- نعم يا ابنتي.

- رزان نائمة سأوصلك.

- لا داعي لذلك، قد تستيقظ رزان ولا أحد في البيت؟ سأطلب سيارة من مكتب السيارات الخاص، وهو مكتب نتعامل معه دائماً، ليوصلني إلى هناك.

- البرد شديد. ارتدي ثيابك الثقيلة وغطّي رأسك وأذنيك يا أمي، سترتاح أختك بقدومك إليها.

* * *

كانت قضيّة متشابكة، رغم حقيقة أحداثها الغريبة، لم يكن الحلّ سهلاً. ونور يغرق في كوابيسه وأحلامه المزعجة في كهف منعزل لعجوز فاضت عليه بحنانها لتنقذه من الموت.

-١٠-

في المحاضرات بعد الظهر، التقى عارف بـ «رنا»، وكان متردّداً في سؤالها عن نور:

- خير يا عارف؟ لماذا تبحلق بي؟

- تأخّرت عن الجلسة الأولى في العملي؟ لم أدرِ سبب ذلك. وضعكِ أستاذ المادة غائبة، وقال لنا أن نبلغك أن غياباً آخر قد يحرمك من العملي.

- يحرمني من العملي؟ هذا السخيف؟

- ليس سخيفاً إنه أستاذ متفوّق في إعطائه الدروس، دروسه شيّقة.

- هذا رأيك!.

- رنا ألم تري نور؟ إنه مختفٍ منذ ظهر البارحة.

- مختفٍ؟ وما أدراني عنه؟

- كان يساعدك بإعطائك دفاتر محاضراته لتصويرها.

- ليس صديقي. ولا أستسيغ رفقته.

- لماذا؟ لأنه عبقري.

- لماذا تسألني عنه؟

- عندما خرج أمس من (الكافتيريا) قال إنه ذاهب لملاقاتك، تحتاجينه في أمر سريع.

بدت مرتبكة ثمّ قالت:

- هو قال ذلك؟ ربّما لأستعير أحد دفاتر محاضراته.

- ولكنه لم يأخذ شيئاً من حقيبته، حقيبته كانت معي.

- آه. لم أتذكّر أني رأيته أمس. إلاّ في المحاضرات الصباحية.

- وأنت لم تحضري المحاضرات بعد الظهر، خير؟

- أمّي في المستشفى مريضة. هي بخير الآن. عن إذنك.

صاح خلفها:

- رنا. متأكدة أنك لم تري نور؟

ركضت هاربة:

- آسفة لم أره. ذاهبة لرؤية أمّي.

ذهبت كأنها تهرب من السؤال. كان منزعجاً لا يدري كيف يتصرّف، حين سمع صوتاً خلفه:

- كيف حالك يا عارف؟

كانت سهير. قالت مستفسرة:

- أين نور؟ أريد أن أستعير دفتر (الجنين) منه.

- لم يره أحد منذ أن سألتك عنه أمس، وحقيبته كانت معي، وأمّه لا تعرف عنه شيئاً.

- ماذا؟ ربّما ذهب لزيارة أحد أقربائه.

- تتصنّعين الهبل، نور مختفٍ، حتى أمّه لا تعرف مكانه، وتكاد تموت من القلق عليه.

- وماذا سأفعل له؟ لماذا تتّهمني بالهبل؟

- آسف. كنت أظن على الأقل أن أمره يهمّك. على الأقل هو زميل يقدّم لك المساعدة ويساعدك في فهم محاضراتك. أعرف أنك لا تحبّينه بسبب وضعه المادّي. رغم أنه يحبّك وتمنّى أن يظلّ لصيقاً بك.

- عارف أرجوك، لا دخل لي به. وأتمنّى أن يظهر سالماً ويعود إلى أهله، إن كان يحبّني فهذا شأنه.

ابتعدت غاضبة، انزعج من تصرّفها:

«يا إلهي ما أكثرهن من منافقات، يتقرّبن منه ليشرح لهنّ الدروس وينقلن المحاضرات من دفاتره. مسكين نور. أنا واثق أن رنا هربت من أسئلتي، وهي المعنيّة باختفاء نور»!

* * *

لم تنم رجاء تلك الليلة، كانت شديدة القلق والتوتّر، وهي تفكّر بطريقة للعثور على نور، فبعد أن سأل حسن زوجها، في كلّ المشافي عن (نور الشامي) ولم يتلقَّ أي جواب، شعرت أن الموضوع أكبر ممّا تتصوّر.

وحين هتف لها عارف يخبرها بتهرّب (رنا) من الجواب حول مصير النور، ازداد يقينها أن العملية ليست سهلة. فثابت بيك رجل مال له حضوره في المجتمع، وتربطه صداقات متينة مع العديد من رجالات الدولة.

كان حسن زوجها يحاول الوصول إلى شهود على عملية نقل كلية نور، وخاصة أن المعلومات التي قدّمتها له رجاء كانت شديدة الخطورة.

* * *

استيقظ في الصباح وهو يئنُّ ويتلفّظ باسم أمه. و(زينة) قربه تمسح له وجهه وتبكي. لم تستطع النوم في الليل، خائفة عليه. وقد شعرت أنه يمّر بخطر شديد، فظلّت قابعة قربه وهي تحرّك يديها فوقه وتقرأ بعض السور.

لم تجد في أشيائه الشخصية، سوى بعض النقود القليلة، كأنّ من قاموا بإلقائه فوق هذا الجرف نحو الوادي، رأوا في النقود القليلة معه، احتقاراً لشخصه ولفقره.

تحرّك قليلاً، ثم فتح عينيه. كان ضوء النهار يتسلّل إلى الكهف، بحلق حوله مستغرباً وهو يتنهّد بصعوبة:

- أين أنا؟

- لا تقلق يا بنيّ، أنت في أمان.

- أين أمي؟ أمي. أمي. اجتاحوا جسمي يا أمي. آه يا إلهي.

- مَنْ فعل ذلك يا بنيّ؟ مَنْ أولئك الأشرار؟

- آه... مَنْ أنتِ يا خالة؟ تبدين مثل أمي. أشعر بدفئك وحنانك كأمي.

- يا حبيبي سأكون مثلها ولن أبخل عليك سوى بحياتي.

انفجرت تبكي، قال لها:

- لماذا تبكين يا خالة؟ وضعي صعب؟

- بمشيئة الله ستعود إليك صحتك.

- بهذه الآلام في بطني، لن تعود إليّ صحتي.

- نور. حبيبي، مَنْ فعل بك هذا؟ ألا تذكر؟

- أذكر؟ لن أنسى ما قاموا به من إيذاء لجسدي. كيف عرفت اسمي؟

- بطاقة الجامعة يا حبيبي.

- أين أنا؟ يا... يا... أمي؟

- يا أمّي؟ سأكون أمّك حتّى تستردَّ صحتّك وتعود إليها. هه؟ تسألني عن المكان الذي أنت فيه؟ أنت في مكان بعيد. بعيد جداً عن جامعتك يا حبيبي.

- تعيشين في هذا الكهف؟ أنت طيّبة، لماذا أبعدوك إلى هنا؟

- جرف الفيضان بيتي في الجهة الأخرى. فاضطررتُ للّجوء إلى هنا.

- جرف الفيضان بيتك؟ أنت شديدة الطيبة لماذا حدث لك ذلك؟ أليس لك أبناء؟

- لا داعي لأن تزعج نفسك بهذه الأسئلة، عندما تتحسّن صحتك، سأحكي لك كلّ شيء. سأحضر لك الحساء.

- لا داعي، أشعر بالنعاس.

- يجب أن تأكل، ثم تنام. الحمد لله هدأت الحرارة ونمت لبعض الوقت. ستتحسّن إن شاء الله. لا تقلق.

«ما الذي جرى حتى أصبحت هنا؟ في هذا الكهف المنزوي؟ ومع هذه المرأة الحنونة كأمي»؟.

* * *

كان على رجاء أن تتدخّل بشكل مباشر، لمعرفة مكان نور، وأين اختفى وقد شعرت بتردّد حسن زوجها:

- يجب أن نرى ما حدث له، قدّمت لك معلومات مؤكّدة يا حسن، أمعقول أن نترك هذا الشاب يضيع بل وربّما يموت، قد يكون الآن في مرحلة خطرة يمكن إنقاذه. أنا متأكّدة، بل وأنت متأكّد أيضاً أن نوراً لا يمكن أن يبيع كليته أليس هذا صحياً؟

- معك حق يا رجاء، ولكن المشكلة أن ثابت بيك له سلطة كبيرة في البلد، ويمكن أن يقوم بأقذر الأعمال دون رادع من ضمير، وإذا فتحنا عليه الباب في اختفاء نور، قد يسبّب لنا متاعب كثيرة.

- خائف؟

- ليس خوفاً، وإنما أنا قلق عليكم.

- استنفر أصدقاءك من ضباط الأمن الذين تثق بهم. لو أطبقوا عليه الخناق، لربّما ورّطوه في القضيّة. قالت الممرّضة أنها سمعتهم يقولون إنّ ثابت بيك نقله إلى مشفى خاص، ونحن سألنا في كلّ المشافي الخاصة، لم نعثر عليه. هل يمكن أن يكون محتجزاً عنده؟ أم أن شيئاً آخر حصل لنور؟ قلبي يأكله القلق عليه، وعلى أمه.

- لا بأس يا رجاء سنبدأ باتصالاتنا. ولكن بحذر وذكاء.

- بسرعة يا حسن أرجوك يا حبيبي.

- إن شاء الله.

* * *

كانت رنا مضطربة أسرّت باضطرابها إلى والدها. قال لها:

- قلت لي، أن لا أحد يعرف أنه خرج لملاقاتك؟

- يبدو أنه همس لرفيق لنا أنه ذاهب لملاقاتي لدقائق. هكذا فهمت.

- تعرفين كيف تحتالين على مثل هؤلاء. وماذا فعلت؟

- قلت له أنني احتجت لأحد دفاتره، فقال رفيقه أن حقيبة نور كانت معه، فهربت منه ومن أسئلته.

- ولا يهمك يا ابنتي.

- ماذا فعلت له؟ هل يرعاه أحد في المشفى الخاص الذي نقلته إليه.

- اسمعي يا رنا، كوني هادئة، جرّب الدكتور فؤاد أن يستأصل كليته اليمنى فأصابها بجرح فلجأ إلى اليسرى واستأصلها. حالة الشاب كانت سيئة جداً، اضطررت لأتخلّص منه، إنه شاب فقير لا أحد يسأل عنه. ليس له سوى أمّه.

- يعني نور مات؟

- لم يكن أمام فؤاد خيار سوى استئصال الكلية الثانية، لأن الأولى أصابها المشرط بجرح وتعرفين كم حجم الكلية صغير.

- كيف تخلّص رجالك منه؟

- لا تقلقي يا رنا، والدك واسع الحيلة وقويّ. وله حضور بين كلّ المتنفّذين هنا، كلّهم يطلبون المال منّي، هم تحت إمرتي لا تقلقي.

فكّرت متوتّرة: «يا إلهي نور مات» ثم قالت لوالدها:

- المهم وضع أمي على ما يرام.

- معك حق. اسمعي يا رنا، داومي على حضور محاضراتك. عندما تتخرّجين سيكون لك أكبر مستشفى في «الشرق الأوسط»، يا دكتورة رنا.

- أحبك كثيراً يا أبي.

* * *

عندما شرح ما حدث لأحد ضباط الأمن، فسّر له صعوبة اتّهام ثابت بيك، فهو متبرّع لليتامى وأبناء الشهداء، وهداياه كثيرة وثمينة في كلّ مكان. هو رأس من الصعب مقارعته. ولكن حسن لم ييأس. فجرّب ضابطاً آخر.

وعندما شرح له الموضوع، ومدى ذكاء عبقرية الشاب المتفوّق، وعد أن يدرس القضية، قد يستطيع محاصرة ثابت بيك بالأدلّة الدامغة.

-١١-

كان نور في ذلك الحين، قد بدأ يستعيد بعضاً من عافيته. رغم جراحه الكبيرة، وقد بذلت (زينة) الكثير من الجهد لعلاج هذه الجراح بالمراهم ولصقات الأعشاب، ثم بواسطة طاقتها الحيوية التي تمرّنت عليها.

- هناك آلام هنا يا خالة، أعتقد أنها كليتي. نزفت نقاط من الدم مع البول. الكلية مجروحة. ربما لهذا أشعر بهذه الآلام. أعتقد أنهم انتزعوا كليتي اليسرى. وكليتي اليمنى مصابة. أليس من جرح في هذه النهاية، أقصد في بطني، انظري أرجوك يا خالة؟

نظرت بدقّة في المكان الذي أشار إليه:

- يا حبيبي هناك شق صغير.

- ألديك إبرة وخيط متين؟

- لماذا؟ ماذا تريدني أن أفعل؟ خيط وإبرة؟

- ومرآة. لأرى ما حدث لي. عجّلي أرجوك.

- سأحضر ما تطلب، أنت طالب طب قد تستطيع علاج نفسك.

- ولكنك أعدتني إلى الحياة يا خالتي. لولاك لمتُّ، حتى مراهمك، وأعشابك. وطاقة يديك الحيوية، رمّم الكثير من آلامي وقروحي وجروحي.

«يعالج نفسه؟ أنا خائفة عليه؟ ولكنه يعرف كما يبدو أسباب أوجاعه. يا رب ساعده، يا رب». قال لها:

- أنا وأنت يا خالتي سنتعاون في حل مشكلة الكلية التي تنزف. أعطني المرآة الصغيرة. نعم. هه. إنه شق صغير، سأفتحه قليلاً.

تأوّه قليلاً ثمّ تمالك نفسه، وهمس:

- الكلية تنزف الدم هذا هو سبب أوجاعي. أترين؟

- جرحها صغير يا بني؟ سأضغط على الجرح وأضع بها مرهماً من مراهمي التي تعالج الجروح. خياطة الجرح الصغير، لكلية صغيرة بالإبرة والخيط العادي، ليس أمراً صحيحاً يا بني.

- واثقة بمراهمك يا خالتي؟

- انظر مكان الكلية اليسرى. الجرح يندمل. وجّه المرآة سأساعدك. انظر.

- نعم. الجرح يكاد يندمل.

- إذن لا حاجة لخياطة هذا الجرح. بالإبرة والخيط؟ الوضع صعب يا بني.

- غلاف الكلية مختلف.

كان يتألّم بشكل واضح وهو يحاول كتم ألمه:

- قطبة واحدة فقط. أحضري الكبريت والشمعة يجب أن أخيط الجرح قطبة واحدة فقط. ساعديني يا خالتي.

كان قلقاً متوتّراً: «يا إلهي، الوضع ليس سهلاً، كيف جرحوا الكلية؟ هل هو خطأ طبي؟ أم خطأ مقصود؟ أم إهمال مقصود»؟.

أشعلت زينة (الشمعة) فوضع الإبرة فوقها للتّعقيم، ومسحها بخرقة نظيفة ومسح الخيط بالماء جيداً، وأمسك الكلية وهو يتألّم بشكل لا يُطاق وطلب من (زينة) خياطة الجرح، ارتجفت يدها ولكنه كان مصمّماً:

- يمكن أن تنقذيني يا خالتي، جرح كليتي الوحيدة ليس سهلاً، لا تتردّدي أرجوك.

- طيّب يا بنيّ. بسم الله الرحمن الرحيم.

* * *

ازداد قلق والدة نور، ولم تستطع أن تمنع دموعها من الانسياب، وهي تطلق آهاتها وليس إلى جوارها أحد. فرجاء ابنة أختها مشغولة بالبحث عنه كما قالت، وليس من خبر من عارف صديقه.

كانت تنتظر خبراً يبدو أنه لم يصل وقد لا يصل سريعاً حول ابنها، رنّ جرس الهاتف فرفعت السمّاعة بلهفة، كانت أختها أم حسن:

- أين أنت يا أختي؟ لماذا لم أرك؟

- رزان ابنة رجاء معي دائماً، وأمّها مشغولة كما تعرفين.

- أحضريها معك إلى هنا.

انفجرت تبكي:

- أنا بحاجة لأحد جانبي، أكاد أموت.

- اهدئي أرجوك يا أختاه، سأحاول أن آتي إليك سريعاً.

وضعت السمّاعة، ومسحت دموعها، وهي غارقة بالتفكير والخوف:

«يا إلهي ماذا أفعل؟ قلقي يزداد عليك يا نور عيني، آه يا إلهي كيف سأعيش وأنت بعيد عني»؟

رنّ جرس الباب الخارجي، ربّما كانت رجاء، ومعها خبر عن نور، كان عارف زميل نور:

- أهلاً بك يا بني.

- آسف يا خالتي تأخّرت عليك.

- هل هناك من خبر؟

- السيدة رجاء لم تعد؟

- لا. ما زالت تبحث؟

- الوضع ليس سهلاً يا خالتي. نور معرّض لخطر شديد.

- ماذا تقصد؟ أفزعتني؟ قل لي يا عارف.

- هل كان نور بحاجة لمال؟ أخبريني يا خالتي؟

- أشعرتم أنه محتاج؟ أنتم رفاقه؟

- لا. أبداً.

- صحيح يا بنيّ، إننا نعيش في كفاف ولكننا لا نحتاج شيئاً، ونور متفوّق يأخذ راتباً صغيراً، وأنا أيضاً وفّرتُ بعض المال، ولم أرَ نور يشتكي من قلّة المال أبداً.

«ماذا أفعل، يجب أن أخبرها، إنها حقائق يجب أن تعرفها. ولكن هذا قد يشكّل عليها ضغطاً نفسياً وحزناً آخر. خاصة وأن (نور) ما زال مختفياً ولا خبر عنه أبداً».

رنّ جوّاله كانت رجاء:

- أنا في بيت أم نور.

- انتبه يا عارف، كنْ حذراً في حديثك معها.

- أعرف. أعرف، أين أنت؟

- أنا قادمة خلال دقائق.

قال لأمّ نور:

- إنها قادمة إلى هنا.

*   *   *

حاولت رنا أن تداوم بشكل طبيعي، ولكن ضغط عارف عليها بأسئلته الكثيرة، جعلها تخرج من الجامعة، واتّجهت إلى المستشفى لزيارة أمّها. كان هناك الدكتور فؤاد، سألته وهي تقبّل يدَ أمّها التي يغطّيها غطاء المستشفى:

- هي نائمة، من المخدّر؟

قال فؤاد:

- لا داعي أن توقظيها، هي بخير.

- دكتور فؤاد هل مات الشاب الذي استأصلت كليته؟

- وعدني والدك أن يعتني به في مشفى خاص.

- مشفى خاص؟ قال ذلك والدي؟ ولكنّه لم يدخله لمستشفى كما أعلم، ربّما نقله إلى مكان آخر، تحت عناية طبّية.

- لماذا تشغلين نفسك بأمره؟ أصاب المشرط كليته التي حاولنا استئصالها أولاً، فاضطررنا لاقتطاع الكلية الأخرى، يعني وضعه الصحي في خطر فعلاً. ربّما مات، المهم صحّة أمك. واستقرارها بالكلية الجديدة.

- ألا تعرف أين ذهبوا به؟

- لا. أرجوك يا آنسة انسي الموضوع.

جاءت إحدى الممرّضات:

- دكتور، هناك من يسأل عنك، إنه في مكتبك الآن.

همست حتّى لا تسمع رنا:

- ضابط أمن كما فهمت.

- طيّب، طيّب أنا قادم.

استغربت، لماذا يريده ضابط أمن؟ ثم سألته بارتباك:

- أتريد منّي شيئاً يا دكتور؟

- لا. أعرفتِ شيئاً، عن الذي يريده ضابط الأمن؟

- لا أعرف يا دكتور.

- لا بأس اذهبي إلى عملك.

ذهب إلى قاعة الاستقبال، كان هناك رجل ينتظر، وقف لدى رؤيته:

- الدكتور فؤاد؟

- نعم. وحضرتك؟

- أنا الرائد ناظم محقّق في الأمن الجنائي، هذه هي بطاقتي الأمنية، وهذا الأمر بتوكيلي بالتحقيق.

- أهلا وسهلاً، تفضّل إلى مكتبي.

صحبه إلى مكتبه في نهاية الرواق، وتكلّم بالهاتف ليطلب القهوة بناء على طلب الضيف:

- خير سيادة الرائد؟

- جئتُ استفسر عن اختفاء شاب في المستشفى اسمه (نور الشامي) هو طالب طب.

- اختفاء؟ ماذا تقول؟ هذه كلمة غير مناسبة.

- لماذا غير مناسبة؟ لم أفهم.

- نور الشامي، باع كليته لمريضة عندنا، واستأصلنا كليته التي تتطابق نسيجيّاً مع نسيج كلية المرأة.

- ألديك إثباتات؟

- بالطبع.

رفع سمّاعة الهاتف وأعطى أمره:

- أحضري إضبارة المتبرّع (نور الشامي).

وضع السمّاعة، قال الرائد:

- وأين هو هذا المتبرع؟ لقد اختفى، هو وحيد أمه، تكاد تموت من القلق عليه.

- ليست مشكلة المستشفى أيها المحقّق. بل مشكلته أنا أحد أقطاب إدارة المستشفى، مسؤول عن قسم الكلية الخاص. طرحت عليه البقاء هنا، فرفض وصحبه أحد رفاقه وهو في حالة صعبة لمستشفى خاص.

- وكيف سمحتم له بالخروج وحالته صعبة كما تقول. المفروض أن يبقى هنا بالعناية المشدّدة حتى تستقر حالته.

- حاولنا معه، ولكنه رفض.

- لست مقتنعاً بما تقول. ومن هي المرأة التي اشترت كليته؟

- زوجة ثابت بيك، رجل الأعمال المعروف.

طرق الباب ودخلت الموظّفة، قدّمت للدكتور فؤاد إضبارة:

- هذا هو الملفّ يا دكتور. أتريد شيئاً آخر؟

- لا شكراً.

خرجت وأغلقت الباب، قدّم فؤاد له الإضبارة، فبدأ يقلّب أوراقها متمعّناً، ثمّ قال:

- دفع للشاب خمسة عشر مليوناً مقبوضة، أين ذهب بها الشاب؟ هل قبضها اليوم؟

- لا أدري عن الموضوع، ثابت بيك هو من عنده الإجابة عن كلّ تساؤلاتك.

- بصراحة هذه الإضبارة لا تعجبني.

أمسك بالجوال:

- عدنان، تعالوا أنا في قسم الكلية.

- مع رجال المفرزة.

- مع عنصرين، والباقي في الخارج.

أغلق الجوّال، ثمّ قال:

- سنبدأ التحقيق حالاً.

قال فؤاد:

- تحقيق؟ خير؟

- هناك اتّهام بقتل (نور الشامي) وصلتنا مجموعة من الناس كانوا عائدين من أعمالهم، رأوا سيارة - أعطونا مواصفاتها - كانت تحمل جثة جرّوها وتخلّصوا منها. بحثوا عن مكان دفنها لم يعثروا على شيء، ولكن لجنة التحقيق تتابع الأمر في ذلك المكان.

قال الطبيب بخوف:

- أيمكن أن أخابر ثابت بيك؟

- لا. أنت متّهم، يمكنك مخابرته بعد الانتهاء من التحقيق معك.

دخل المساعد عدنان وعنصران:

- سيدي، نحن جاهزون.

- سأعطيكم التعليمات الضرورية، ولكن احجزوا الدكتور فؤاد، وخذوا منه جوّاله وبطاقة هويته، وهويته النقابية وامنعوه من القيام بأي اتصال. سأفتش في الأضابير. وانتبهوا إلى مساعدي الدكتور فؤاد. يجب ألّا يتحرك أحد منهم، على ذمّة التحقيق، كلّ من في القسم هنا.

احتجّ الدكتور فؤاد:

- هناك عمليات زرع يجب أن نجريها.

- أجلّ ذلك الآن، أنت رهن التحقيق.

- ولكن؟

- نفّذ الأوامر قبل أن أتّهمكم بتضليل التحقيق.

* * *

في منطقة انجراف التربة، وبعض البيوت التي جرفها الفيضان حضرت لجنة بحث تستقصي المنطقة وتسأل عن سكان المنطقة، وبحثت عن جثّة قيل إنها أُلقيت من فوق التلال الصخرية.

لم يعرف أحد من أهالي المنطقة الإجابات عن تساؤلات اللجنة، وأهملوا وجود (زينة) التي تعيش في كهف وكوخ مزري، أشفقوا عليها من وصول إلحاح أعضاء اللجنة إليها وإزعاجها.

كانت (زينة) قد ربطت بقطبة واحدة جرح الكلية ووضعت فوق الجرح مراهمها العشبيّة.

- خذ اشرب هذا الكأس، سيريحك.

- لا بأس. رغم أن طعمه شديد المرارة فأنا أثق بقدرتك الطبّية النباتيّة يا خالة.

وصلت بعض الأصوات من خارج الكهف، خرجت زينة تستطلع الأمر، ثمّ عادت:

- بعض أهالي القرى يجتمعون، رأيت أحدهم يقترب من الكوخ هناك الذي كنت أقيم فيه. سأرى ما يريد وأرجع إليك، حاول أن ترتاح يا بني.

قال وهو يتألّم:

- سأحاول أن أنام، لا تتأخّري عليّ يا خالتي.

- يا نور عيوني سأعود إليك سريعاً.

فكّر وقد ظهر عليه التأثّر:

«الكلمات نفسها التي تقولها أمي لي (نور عيوني)، لا بدّ وأنها قلقة جداً من اختفائي».

* * *

قال لها أحد أهالي المنطقة، كان فلاّحاً شاباً ساعدها إن احتاجت مساعدة:

- خالة (زينة) بعض رجال الشرطة يبحثون عن جثّة، قيل إن أناساً ألقوها في الوادي. لم نرغب أن يزعجك أحد. هل لاحظت شيئاً يا خالة.

- جثّة؟ هنا؟ لا يا بني. ليست هناك كما أعرف أية جثّة، على الأقل كانت الوحوش اكتشفتها. تعرف علاقتي مع الوحوش.

- لا بأس يا خالة. لم نرغب أن يزعجك أحد، أتحتاجين شيئاً؟

- لا يا بني. أنا بخير، إن احتجتُ شيئاً سأقصدكم.

- الكهف أكثر دفئاً من الكوخ بالتأكيد؟

- نعم يا بني. لذلك نقلت أغراض النوم إلى هناك.

- لا بأس، سأمرّ عليك غداً، قد تحتاجين شيئاً.

- لا بأس يا بني.

فكّرت وقد شعرت أنّ ما جرى لنور لم يكن طبيعيّاً:

«آه يا نور يا حبيبي، مَنْ ألقاك اعتبرك جثّة، أو ستصل جثّة بلا روح قاتلهم الله، والله سأكون معك لأعيدك إلى أهلك».

* * *

الوضع الذي فرضه المحقّق جعل التحقيق يسير دون إزعاج لنحو ساعة قبل أن يحضر ثابت بيك بالصدفة ليطمئن على زوجته.

لم تستطع الممرّضة، أو أي من الأطبّاء المتمرّنين الكلام معه. كانت عناصر مفرزة التحقيق تراقب الجميع. ولكنه بصلافته المعهودة، اقترب من المحقّق:

- خير؟ ماذا يجري، بماذا تحقّقون؟

- لا دخل لك.

- يبدو أنك لا تعرفني، أنا ثابت بيك، أستطيع أن أسأل ما أشاء وستجيبني بالقوة. هه. ما هذه الوقاحة؟

- خذ منه الجوّال يا مساعد عدنان.

- ماذا؟ سأقلب كلّ شيء عليكم.

- لا تتطاول علينا أيها الرجل. نحن لجنة تحقيق وسنتابع مهمّتنا.

- أين الدكتور فؤاد، يجب أن يوقف هذه المهزلة.

- هو متّهم بالكثير من التهم وقد فتّشنا الأضابير لنجد الكثير من الأمور غير الشرعية تنفّذ هنا.

همست الممرّضة:

- سيدي هو زوج المرأة التي أخذت كلية الشاب المفقود.

- آه... لا بأس.

قال المحقّق:

- تعال اجلس هنا يا سيد. نريد أن نسألك بعض الأسئلة.

- أنا؟ ومن أنت حتى تسألني؟

- أين أخفيت الشاب الذي انتزعت كليته لزوجتك؟

- أنت وقح أيها المحقّق. الشاب أخذ المال وذهب.

- هكذا؟ الجاهل يعرف أن من تنتزع كليته يحتاج لمراقبة طبية. وفي العناية المشدّدة.

- مَنْ الذي أرسلكم لتتعاملوا بوقاحة مع ثابت بيك. يا دكتور فؤاد. أين أنت؟

لكنّ صوت تأوّهات انبعثت من غرفة زوجة ثابت بيك، قال ثابت بيك:

- ماذا يجري؟ لماذا تصرخ؟

كانت رنا تحاول ضبط أمها:

- ارجعي يا أمي، هذا خطر عليك.

- ماذا يحدث؟

قال ثابت منفعلاً:

- ارجعي إلى فراشك ماذا تفعلين؟

- سمعتُ صيحاتك خفت عليك.

كان الوضع يتفاقم. والمحقّق يتابع استجواباته وقراءة الأضابير وبعدها استجوب ثابت - الذي كان يشتمه - ثم وضع في يده القيد، لسوء أخلاقه وتعامله السيء مع المحقّق ورجاله.

ولكن الشاب المختفي، لم يظهر سريعاً، وحين ظهر قلب الكثير من القضايا وعاد إلى جامعته، وقد انكبّ أخصائيو الكلية، في محاولة ترميم ما حدث للشاب المتفوّق.

أمّا ثابت بيك فرغم كل التهم الموثّقة، نفذ من كلّ شيء بأمواله وسلطته وظلّ الظلم ينتشر بين الفقراء في قرن مرعب نعيشه.

* * *

الأصابع السحرية

-١-

كان رجلاً مشهوراً بذكائه ورهافة حسّه بين الناس الذين يعرفونه وكانت ثقافته الكبيرة مرجعاً لهم في معرفة التواريخ والأخبار وحياة العلماء وأقطاب الفلسفة.

كان لا يبخل بالمساعدة على أحد، وكان كثيراً ما يضيّع الوقت لشرح مسألة رياضية استغلق فهمها على طالب خائف من الامتحان. ولم يكن يعتذر عن استقبال الناس، وقد عاش وحده في بيت صغير غصّ بالكتب والمجلّدات والمخطوطات القديمة.

كان يعيش في أحلامه وخيالاته المجنّحة في تكوين أسرة صغيرة، وكان لا يحاول أن ينتقل بتلك الخيالات إلى عالم الواقع، لأنه كان محدود الدخل، لا يريد أن يورّط فتاة بالزواج منه، وهو لا يستطيع أن يسعدها بالمال والأمان ضد غوائل الدهر.

وصل **(هاني)** إلى سن الثامنة والثلاثين، وهو في حياته الراتبة المليئة بالأماني المحلقة والخيال المجنّح، وهو يزداد فهماً للقراءة، يكتب في دفاتره الكثير من القصص والمقطوعات الشعرية التي تمتلئ بالرقة والبوح الشجيّ الحزين.

وفي يوم عيد ميلاده الثامن والثلاثين، ولم يكترث بهذا اليوم، فقد كان يعدّه مثل كل الأيام الأخرى، سوى أنه يزيد على عمره عاماً.

كان الجو لطيفاً، وأيلول لم يتجاوز منتصفه بقليل، والساعة تقارب التاسعة ليلاً، وهو في قبوه الصغير يغوص بين ركام الكتب، حين سمع خبطاً على نافذة قبوه الصغيرة المطلّة على الشارع.

اعتقدها لأول وهلة مصادفة، أو أن أحدهم يعبث معه، فلم ينهض من مكانه، ولكنّ الخبط تكرّر من جديد، مع صوت أنين حزين. جعله يقفز من مكانه يرتدي ثيابه بسرعة.

«غريب، كأنه جسم غريب سقط على النافذة، ولكن يبدو أن أحدهم يستنجد بي».

فتح الباب واندفع إلى الشارع، رأى كأن شخصاً ينهال بالضرب على آخر. صرخ:

- ماذا تفعل، اترك الرجل.

اقترب من الرجل الممدد كان الدم ينزف من رأسه. كأنّ الشخص الآخر ضربه بآلة حادة.

أنّ الرجل:

- أرجوك. اقترب مني قليلاً اسمعني جيداً لا فائدة من إسعافي سأموت خلال دقائق. افتح القميص ستجد في داخله مخطوطاً صغيراً احفظه لديك واقرأه جيداً. وحاول الاتصال بابنتي.

- من الذي اعتدى عليك، قل لي بسرعة؟

- إنه شخص من الصعب الوصول إليه. إنه...

لم يستطع إكمال كلامه فقد غاب عن الوعي، وضع هاني المخطوط في صدره، وترك الرجل، ليتصل بالشرطة والإسعاف، رأى دكاناً مفتوحاً في الجهة المقابلة، فطلب من صاحبه استخدام الهاتف فوافق الرجل مؤكداً «ثلاث دقائق فقط».

أدار قرص الهاتف على رقم شرطة النجدة:

- هناك رجل يتمدّد والدم ينزف منه، لقد اعتدى عليه أحدهم سأعطيك العنوان.

اتصل هاني بالنجدة، ثم اتصل بالإسعاف. واتجه فوراً إلى مكان الرجل، فرأى عن بعد الشخص المعتدي يفتشه بوحشية. أسرع نحوه ملتاعاً، وقد خاف أن يكون قد أكمل عليه وقتله.

- قف. قف. أيها الناس، ألا ترون أنه يعتدي عليه؟

قال أحدهم:

- اتجه إليه من الجهة الأخرى، سأحاصره.

- إنه يحمل سكيناً.

- لن تلبث الشرطة أن تحضر، يجب أن نقبض عليه.

- إنه سريع. انظر. يكاد يطير فوقنا.

- الخوف يعطي الإنسان قوة إضافية. هيا حاصره أنت من الجهة الأخرى.

- قف أيها الوغد.

ولكن المعتدي صوب نحوه السكين.

- لقد طعنني.

- أي شيطان هذا الوغد، إنه يتحرك بسرعة خارقة، لقد اتجه نحو الزقاق واختفى.

وصلت سيارة النجدة. وسيّارة الإسعاف. انشغل المسعفون بالمصاب، واقترب ضابط الشرطة وعناصره من التجمّع.

قال هاني:

- حاولنا القبض على الجاني فهرب في هذا الاتجاه. جرح أحد المارّة ممّن حاول التصدّي له.

أعطى الضابط الأمر لشرطيين:

- ليذهب اثنان منكم في محاولة اللحاق به. هيّا.

صعد الشرطيان السيارة لمحاولة تتبع المجرم.

سأل الضابط:

- من الذي بلّغ عن الحادثة؟

قال هاني:

- أنا يا سيدي.

- ماذا جرى له، يبدو ممزقاً بطعنات قاتلة؟

قال أحد المسعفين للضابط:

- إنه ميّت يا سيادة النقيب.

- ستحضر لجنة التحقيق. والمصور والطبيب الشرعي. (والآن) خذوا الجريح وأسعفوه بسرعة.

سأله الضابط:

نعم. قل لي يا أستاذ هاني، ألم يقل شيئاً وهو يموت؟

فكّر «لن أخبره عن المخطوط».

ثم قال بارتباك:

- كأنه كان يتمتم بعبارات غريبة لم أفهمها كثيراً.

- مثلاً. حاول أن تتذكر.

- حكى بلغة غريبة، كأنها لغة هذيان، ثم قال حين سألته عن الشخص الذي اعتدى عليه، إنه من الصعب الوصول إليه.

سأل المحقق رجال الشرطة:

- هل فتشتموه جيداً؟

- نعم يا سيادة المحقق. وهذه هي الأشياء التي عثرنا عليها في جيبه. مفكرة صغيرة فيها أرقام. مفتاح ربما كان مفتاح المنزل الذي يقطن فيه، بضعة أوراق نقدية، ثم هذه العلبة الغريبة.

- إنها فارغة عليها خطوط وزخارف غريبة. ولا شيء بداخلها. قل لي أيها الضابط، ألم يكن يحمل صورة عن هويته؟

- هذا كل ما عثرنا عليه، أما سبب الموت فأكد الطبيب الشرعي أنه مات طعناً بآلة حادة، أصابت القلب، ومزّقت الرئة.

جاء أحد رجال الشرطة لاهثاً وهو يحمل جوّاله:

- أخبرونا من المستشفى يا سيدي، جثة الرجل تتقلص مضمحلة في البرّاد.

- ما هذا التخريف؟

- يطلبونكم للحضور يا سيدي. الطبيب الذي عاين الجثّة، معي الآن تفضّل.

ناوله الجوّال:

- سيادة المحقق لا تضيع الوقت، أرجو أن تأتي حالاً.

- ما الذي يجري يا دكتور؟

- إنه أمر مذهل، أرجو ألا تتأخر.

- حسناً سأحضر حالاً.

تقدم هاني:

- أيمكنني مرافقتك؟ قد أفيدك.

- حسناً، تعال معي.

وصل المحقق إلى المستشفى، ودخل إلى (البرّاد) بصحبة الطبيب، كانت جثة الضحيّة بالفعل تنكمش على نفسها ويتضاءل حجمها بالتدريج، وقف المحقق مدهوشاً أمام هذه الظاهرة الغريبة، وكان هاني يتحسس المخطوط في داخل قميصه. وهو ينظر بذهول إلى الكائن الميّت الذي ينكمش على نفسه في اضمحلال غريب.

- لم تقل لي ما هو السبب يا دكتور؟

- إنها حالة لم أرها مطلقاً، حتى في الموسوعات الطبية لم أعثر على تفسير لها. يجب أن أعرف لماذا ينكمش الجسد هكذا؟ إنه أمر في منتهى الغرابة.

- إذن لا نستطيع أن نعثر على الأساس الطبي لهذه الظاهرة؟

- حتى الآن لا. تكلمت قبل وصولك مع أستاذي، وهو طبيب مشهور له خبرة طويلة، لم يسمع عن مثل هذا الاضمحلال الغريب في حياته الطبيّة الحافلة.

- أرجوك يا دكتور أن ترسل لنا تقريرك بسرعة، وتضع فيه رأيك، واستغرابك لهذه الظاهرة، وإن توصلت إلى تفسير، أحضره لنا على الفور.

- سأفعل أيها المحقق.

- أنا متشوّق الآن لمعرفة سرّ المخطوط الذي أحمله. لابدّ أنه يحمل تفسيراً لمثل هذه الظاهرة.

- هيا يا أستاذ، نتابع التحقيق، هه أرأيت كم يبدو أمر ذلك الرجل الميت غريباً؟

- نعم يا سيدي.

- ما رأيك؟

- لا أدري ما أقول لك يا سيدي، إنه أمر مدهش حقاً.

- لا بأس، سنكمل حديثنا في المخفر.

كان ساهماً شارداً وهو يتأمل وجوه الناس في الشارع:

- ما بك يا أستاذ هاني؟

- يخيّل إليّ أنني رأيت الرجل المعتدي. إنه يقف في ناصية الشارع.

- أين، لا أرى أحداَ، آه. نعم. ذلك الرجل الذي يعتمر القبعة والمعطف.

- نعم يا سيدي.

- سآمر بإحضاره حالاً.

وعاد الرجال بعد دقائق:

- لم نعثر عليه يا سيدي، لقد اختفى.

- حسناً. هه قل لي يا أستاذ هاني، لماذا يحوم هذا الرجل في الجوار؟ أتعتقد أن هناك سبباً ملحّاً لذلك؟

- لا أدري يا سيدي.

فكّر بحيرة:

«لا بدّ أن للمخطوط الذي أحمله أهميّة كبيرة، يا إلهي ربما كانوا يشكّون بي»

- ما بك؟ تبدو خائفاً.

- ما يحدث يا سيدي ليس سهلاً.

- معك حق، حسناً لنكمل حديثنا. احك لي بالتفصيل ماذا حدث.

- نعم يا سيدي.

عاد هاني إلى منزله في ساعة متأخرة، وقد أوصلته سيارة الشرطة بعد أن طلب من أحد رجال الشرطة اصطحابه إلى المنزل، وبخوف طلب منه أيضاً التأكد أن لا أحد في البيت ينتظره.

غادر الشرطي فأقفل خلفه الباب وانكفأ إلى الداخل وقد ازداد الخوف في قلبه. كان القبو يطلّ على فسحة سماوية ضيقة، تحيط بها الأبنية المضاءة من كل جانب. وقد أغلق هاني بابها جيداً. ثم دخل بحرص إلى المطبخ يعدّ فنجان القهوة، وقلبه ينبض بعنف، وقد تحسس المخطوط الذي يرقد باطمئنان داخل قميصه.

أسند الفنجان قرب رأسه، وأخرج المخطوط بحرص يفتحه ويقلّب صفحاته بذهول.

إنه مكتوب بلغة عربية فصحى، رائحته أشبه برائحة (الصندل) بدأ يقرأ:

-٢-

«أنا عبد الإله الحامدي» أضع في هذا المخطوط خلاصة تجربتي وخبرتي، واكتشافي. الذي بذلت فيه كل طاقتي وجهدي، وتعبت لأصل إلى نتائجه. آه. سأبدأ الآن بالكلام عن حياتي ومسيرتي الطويلة حتى وصلت إلى هذا السن.

كنت طفلاً حالماً عشت في قرية نائية، أخرج إلى بساتينها وغاباتها، وأقضي أيامي مع الطيور والحيوانات الصغيرة والمسحة الشاعرية التي أعطتني شفافية أفادتني كثيراً في سن النضج. علاقتي مع الطبيعة الغنية بالجمال والروعة نقلتني إلى عالم حلمت كثيراً بالولوج فيه، دون أن أدري أنني بذلك أختار مصيراً جديداً. وفي أحد الأيام وكنت منزوياً تحت شجرة أتأمل الجمال من حولي سمعت صوت سعال. كان هناك امرأة عجوز السن وشابة يافعة:

- تشجعي يا ابنتي. لم يبق سوى دقائق ونصل إلى القرية. هيا يا زهرة.

- ولكنني أشعر بتعب فظيع.

- لا بأس لنسترح قليلاً هنا. تحت هذه الشجرة.

اختبأت خلف الجذع حتى لا ترياني:

- قلت لك: إن ذلك الرجل يعرف الكثير، وهو الذي سيخلصك من مشكلتك.

- كأن الأمر أشبه بالسحر. أمعقول أن يخلصني مما أعانيه من آلام، عجز الطب عن علاجها؟

- يداه ساحرتان، كأنهما تبثان إشعاعاً. إنهما تستلان الألم والمرض، فيذهب إلى غير رجعة.

انتابني الفضول «من تقصد بحديثها، أمعقول أن يوجد مثل هذا الرجل في قريتنا؟»

- اسمعي يا أمي. لماذا لا تذهبين لإحضاره إلى هنا، إن كنت تعرفين مكان إقامته جيدا أشعر أنني لا أستطيع الحركة.

- قد يرفض يا ابنتي.

- هذا أفضل من أن أموت في الطريق إليه.

- أخاف أن أتركك وحيدة؟

- لا تخافي عليّ، سأكون في أمان، لا أحد حولنا، ثم إن الناس مسالمون هنا.

- حسناً. لن أتأخر. وأرجو أن أوفق في إحضاره إلى هنا.

«ربضت في مكمني لا أتحرك وانقضى نحو الساعة، حين سمعت صوت الفتاة تتألم وهي تبكي، ترددت في الاقتراب منها، فربما تخاف ويتعقد وضعها،

تسللت قربها أراقبها وهي تتألم خائفة فرأيت أفعى تنسلّ قربها، وهي تراقبها برعب فظيع. فلم أجد بدّاً من التدخل حيث قضيت على الأفعى بضربة من حجر هرست به رأسها».

قالت بصوت حمل الكثير من عرفان الجميل:

- لقد أرسلك الله لإنقاذي. كيف جئت إلى هنا؟

- سمعت صوتك وكنت مارّاً من هنا. الحمد لله، جئت في الوقت المناسب. لماذا تتمددين هنا؟ هل أنت مريضة؟ هل أستطيع مساعدتك؟

- شكراً لك، أنا في انتظار أمي، ذهبت وستعود بعد قليل.

- حسناً سأنتظر حضورها، حتى أطمئن عنك.

- قد أتعبك؟ ربما كنت مشغولاً وعطلت عليك عملك؟

- لا. لا تقلقي من هذه الناحية. اسمي عبد الإله، أنا من القرية المجاورة. أحب التجوّل في البراري، أتملّى جمال الطبيعة وروعتها.

- ما هو عملك؟

- أكتب المخطوطات، يقولون إن خطي بديع وهم يتسابقون أحياناً لأكتب لهم الرسائل والكتب، لم تقولي لي ما هو اسمك؟

- اسمي زهرة. وأنا أعمل في تركيب العقاقير النباتية.

- ولكن ما الذي جرى لك، لماذا لم تجدي علاجاً لحالتك المرضية؟

- جربت عقاراً ازدادت فيه نسبة السموم. فأثر عليّ تأثيراً سلبياً. جئت إلى هنا لزيارة رجل يقال إن يديه تشفيان المرضى.

- ساحر؟

- لا. ليس ساحراً، إنه يتمتع بطاقة في يديه، كأنه يبث منهما الإشعاعات.

- ومن هو؟ أتعرفين اسمه؟

- يقال له (الصوفي) وهو يعتزل الناس.

- وكيف تعرفت به والدتك؟

- والدتي امرأة عارفة، إنها مستودع كبير للشفافية ونقاء الذهن أتاها في الحلم وطلب منها إحضاري إليه، ووصف لها الطريق بدقة.

فكرت مستغرباً:

«الصوفي؟ ذلك الرجل الذي ينعزل في كهف يطلّ على القرية، آه، في قريتنا لا يحب الناس بعضهم بعضاً، لذلك انحطّوا إلى الدونيّة، ولم ينتبهوا إلى ذلك الرجل العظيم الذي يعيش بينهم. ويقابلونه بالاحتقار والازدراء، رغم أنه لم يسبب الضرر لأحد».

- ما بك؟ تبدو شارداً؟

- أفكر بحالتك.

سمعا أصواتاً بعيدة، كانت المرأة والصوفي يقتربان، سمعت صوته يقول:

«قرب ابنتك شاب أنقذها من أفعى كادت تلدغها»

استغربت المرأة:

- الحمد لله، أنها لم تصب بسوء.

ثم اتجهت صوبي تشكرني، قلت لها:

- لم أفعل سوى الواجب يا خالة.

ردد الصوفي:

- عبد الإله. الشاب الذي يخطّ الكتب والرسائل، والحالم الذي شغف بالطبيعة وأحبّها.

استغربت معرفته بي:

- كيف حالك يا سيدي؟

- معدنك نقي يا بني. أنت بحاجة إلى من يخرجك من دائرة هذه القرية الملعونة.

- ليتني أحظى باهتمامك يا سيدي.

قالت الأمّ:

- ها هي زهرة أمامك يا سيدي.

- زهرة، الفتاة اللطيفة، التي جربت عقاراً على نفسها فآذاها. هه، لا تخافي يا ابنتي سيساعدني الله في علاجك. مدّديها هنا يا أختاه. وأرجو أن تقفي جانباً مع هذا الشاب.

- نعم يا سيدي.

آه يا إلهي. رأيت شيئاً أذهلني، تحركت أصابع الصوفي السحرية على بعد سنتمترات من جسم زهرة، وبدأت تحوم ثم تنكمش، كأنها تنزع الألم من مناطقه. وزهرة هامدة بلا حركة وأمها تحدّق بأصابع الصوفي التي كانت تتحرك بليونة ورشاقة، وهو مغمض العينين يتصبب العرق من جبينه كأنه

يبذل جهداً كبيراً. وفي النتيجة، لم تمض نصف ساعة على بدء العلاج حتى نهضت زهرة وكأنها لم تكن مريضة. نهضت بنشاط ملحوظ. وانكبّت على يدي الرجل الكهل تقبلهما. فقال لها بلطف:

- ابتعدي يا ابنتي، أنا بحاجة إلى أن أغسل يديّ بالماء. آه. أنا متعب، لقد أعيتني تركيز الطاقة، لأستل آلامك ومرضك، وأعيد تنظيم مراكز الطاقة.

كانت العجوز مندهشة وهي تردد:

- عملت عملاً مذهلاً يا سيدي.

أبعدتها برفق:

- اتركيه يا خالة ليرتاح قليلاً، سأحضر بعض الماء له من البستان المجاور، لن أتأخر. حمداً لله على سلامتك يا زهرة.

- شكراً لك يا عبد الإله.

- يبدو شاباً لطيفاً.

- إنه رائع يا أمي، يبدو شفافاً، عميق التفكير. أماه يبدو الصوفي متعباً تماماً.

- بذل جهداً إضافياً في علاجك يا زهرة.

- تفضل الماء يا سيدي.

- شكراً لك يا بني أحتاج إلى ماء حتى أتطهرّ من الأدران العالقة بها.

«لحقت بالصوفي بعدها وأخذ يعلمني أساليب التأمل الباطني، والتركيز الذهني، وخلال أقل من عام تفجرت طاقتي الحبيسة ولكن شيئاً ما كان يلحّ عليّ باستمرار، هو اللقاء مع زهرة».

-٣-

تابع هاني قراءة المخطوط وهو يفكر:

«من الطبيعي أن يلتقي بها. يا إلهي، أشعر بالحروف والكلمات كأنها نابضة بالحياة، حتى الآن تبدو القصة عاديّة، لماذا أخفى مخطوطته وداراها بجسمه حتى الموت؟ لا بدّ أن فيها شيئاً كثير الأهمية. لأتابع القراءة، إنها الساعة الثانية صباحاً. يجب أن أصل إلى السّر. ربما كانت تخفي هذا السر».

وصل إليه رنين جرس الباب الخارجي فشعر بالرعب:

يا إلهي من هذا القادم في هذا الوقت المتأخر؟

عاد الرنين يتكرر بإلحاح. سأرى من القادم بالعين السحرية. إنه يغطيها حتى لا أراه صرخ:

- من بالباب؟

- افتح الباب ولا تخف نحن أصدقاء.

- أصدقاء؟ في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

وضع المخطوط في كيس من (النايلون) في سلة المهملات وألقى النفايات فوقه. وهو يسمع أصواتهم:

- لا تخف. لن نؤذيك، وإن رفضت أن تفتح الباب، سندخل بوسائلنا الخاصة؟

- ماذا تريدون مني ؟

فكّر، وما زال الرعب يسيطر عليه:

- إنهم يبحثون عن المخطوط سأضعه تحت البراد هنا مغلفاً بالنايلون.

- نريد أنم نتأكد أنك لا تحمل شيئاً يضرنا؟

- يضركم؟ ومن تكونون؟ أنا لا أعرفكم.

- ربما لا تعرفنا، ولكننا نعرفك تماماً. هيّا افتح الباب.

- وإذا لم أفتح، ماذا ستفعلون؟

سمع صوتاً رخيماً بدا أنه لسيدة، تسيطر عليهم تماماً.

- سندخل إليك بطريقتنا.

- اسمعوا أنا لا أعرفكم، ولا أعرف أنني أملك شيئاً يضركم، وأنا رجل أعيش وحدي، ولا علاقة لي بأحد. ولا أسبب الضرر لأحد في حياتي أيضاً.

سمع حوارهم في الخارج:

- ما أدراكم أنه يحملها؟

- فتشته جيداً لم أجدها. أين اختفت.

عاد الصوت الملحّ من جديد:

- اسمع يا بني، افتح الباب ولا تخف، نريد أن نلقي عليك سؤالاً فقط.

ردد هاني بهدوء:

- يمكنك أن تلقي السؤال عليّ من وراء الباب، وأعدك أنني سأجيب عنه بصدق.

- حسناً، هل أعطاك الرجل الذي مات اليوم شيئاً؟

- شيئاً؟ مثل ماذا؟

- لفافة مثلاً؟ كتاباً؟ جملة أوراق؟

- لم أفهم شيئاً؟ حدّدي بالضبط سؤالك.

سمع صوت رجل خشن:

- سؤالها واضح تماماً، لا تتهرب من الإجابة.

- أنا لا أتهرب من شيء، كل ما كان في حوزة الرجل موجود عند الشرطة. لذلك أريد أن تحدّدوا ما تريدونه بالضبط.

- نبحث عن مخطوط صغير، هام جداً بالنسبة إلينا.

- مخطوط؟ لم أر كتاباً مع الميت أبداً.

- ليس كتاباً ضخماً، إنه أشبه بدفتر يوميات صغير.

- دفتر يوميات صغير؟

شعر كأن باب الفسحة السماوية ينفتح وسمع عدة أصوات.

- من هذا؟ ماذا حدث؟ كيف دخلتم إلى هنا؟

- من باب الفسحة السماوية.

تذكر أنه لم يغلقه بالرتاج سألهم:

- وكيف لم أشعر بكم؟

- لنا وسائلنا، كما قلنا لك.

فتح الباب الخارجي ودعا بقيتهم للدخول وهو يفكر بخوف:

«أرجو ألاّ يكتشفوا مكان المخطوط».

عادت المرأة تلحّ:

- أعتقد أنه يعرف شيئاً. فتشوا المكان جيداً.

- سنفعل يا سيدتي.

- ماذا تفعلون؟ عمّ تبحثون؟ صدقوني لا أعرف شيئاً.

- كنت ساهراً تقرأ، ماذا كنت تقرأ؟

- ذلك الكتاب المفتوح، إنه عن علم الفلك. كتاب شيّق.

- فتشوا المكان جيداً.

- صدقيني يا سيدتي لا أعرف شيئاً، ولم أر ذلك الشيء الذي تبحثون عنه. ربما كان في حوزة الشرطة.

- لم نعثر على شيء يا سيدتي، قلبنا البيت رأساً على عقب.

- قلت لك لا أعرف شيئاً. لماذا تنظرين نحوي هكذا؟

«إنها تحدق بي، يجب أن أسيطر على نفسي وأشتت تركيزها، إنها تحاول أن تقرأ أفكاري»

قالت بعد لحظات:

- يبدو دماغك صعباً، ولكني متأكدة أنك تعرف شيئاً عن الرجل الميّت.

- صدقيني لم أره في حياتي من قبل.

قال رجل إلى جانبها:

- كنت السبب في منعي من أخذ ما أريده منه. ستنال عقابي على هذا التصرف الأخرق.

- كنت أدفع الشر عن رجل يموت.

قال الرجل بغضب:

- لست شراً. أنا أنفذ أوامر قادتي.

فكّر، ومازال الخوف يسيطر عليه:

«يبدو أنهم ينتمون لمنظمة إرهابية كبير».

قالت المرأة:

- نعتذر عن دخولنا واقتحامنا منزلك في مثل هذا الوقت، ولكن كان لا بدّ من ذلك.

- نحن نبحث عن (شيء مفقود) هام جداً بالنسبة إلينا، إن عثرت عليه سنكافئك بمبلغ محترم. قد لا تحلم بالحصول عليه في حياتك.

- صدقيني يا سيدتي لم أر شيئاً.

- ابحث وتحقق، ونحن بانتظار خبر منك.

- وكيف أصل إليكم؟

- اتصل بهذا الرقم وقل له: «الكتاب المفقود حصلت عليه» خذ واحتفظ بهذه البطاقة.

- حسناً يا سيدتي.

- ستكون ثريّاً يمكنك أن تصل إلى أي مكان في العالم، وتفعل ما تشاء.

- وما أدراني أنكم تعبثون بي؟

- ثق أننا لا نعبث بك.

- ولكنكم قتلتم الرجل.

- لنا ظروفنا ودوافعنا، وهي بالنسبة إلينا عادلة. المهم ثق بنا.

- ولكن.

- السيدة الكبيرة تؤكد لك أن بإمكانك الوثوق بنا، لماذا ها الارتباك والتردد؟

- حسناً. حسناً.

خرجوا من الباب وأغلقوه خلفهم.

«يا إلهي ماذا أفعل الآن؟ أخشى أن يكتشفوا أنني أخفي المخطوط في مكان ما. لن أتابع قراءته اليوم. سأحاول أن أرتب هذه الفوضى التي فعلوها».

-٤-

أخذ هاني يرتّب الأثاث من جديد، ويعيد ترتيب الكتب الملقاة في كل مكان وهو يشعر بالتعب والخوف، إنه يندفع في مغامرة لا يعرف عنها شيئاً،

وربما كلفته الكثير ربما كلفته حياته بالذات. جلس أخيراً في فراشه وقد أنهكه إعادة ترتيب المنزل، وأخذ يفكر.

كان الفجر قد بدأ بالبزوغ، وتخايلت أمامه الصور المتداخلة عن الرجل الميّت الذي أعطاه المخطوط وطلب منه الحفاظ عليه وكيف أخفى ذلك عن المحقق ثم كيف بدأت جثة الميّت تتضاءل مضمحلة وسط غموض رهيب، ثم كيف أتت تلك السيدة الغريبة برجالها المرعبين تبحث عن المخطوط دون أن تدري أنها على بعد أمتار قليلة منه. وكيف حاولت قراءة أفكاره، وفشلت نتيجة قدرته على التركيز.

جرت أحداث كبيرة غامضة. فكّ هاني أسرارها وألغازها، وقد ساهم المخطوط كثيراً في اطلاعه على آفاق معرفية لم يكن يحلم بمعرفتها.

كان الوضع صعباً مقلقاً.

فكّر قلقاً:

- «إنه وضع معقّد لا أستطيع أن أستوعبه بعد، ربما لأن هؤلاء الضيوف المرعبين قد أثّروا عليّ تأثيراً سلبياً أتعبني».

بدأ الفجر يبزغ وهو يحاول النوم.

غفا قبل الفجر بقليل فرأى حلماً غريباً. كأنه في طريق معتم لا بصيص من الضوء فيه، كان يمشي متحسساً ما حوله، سمع صوتاً مألوفاً:

- تعال يا هاني وساعدني، إنهم قادمون، أرجوك لن يرحموني إن رأوني هنا.

- إنه صوت الحامدي. أين أنت؟ لماذا لا أرك؟ أمعقول أن يشتد الظلام إلى هذا الحد.

- تحسس الجدار على يمينك شيئاً فشيئاً فستصل إلي.

- فعلاً. يوجد هنا جدار. أسمعني صوتك. حتى أتجه نحوك.

- أنا قريب منك. قريب. تقدم نحوي.

- هه. يا إلهي. ما هذه اليد الصغيرة؟

- إنها يدي. شدّني نحوك.

تحسسه، بدا له ضئيل الجسم كأنه بحجم طفل صغير، كان يتشبث برجله وهو يصغر أيضاً «يا إلهي. كأنه يتحول إلى عقلة الإصبع، يده أشبه بيد ضفدع يا إلهي. لا. لا».

استيقظ مرعوباً وهو يسمع. صوت طرقات على الباب الخارجي:

- ما هذا الحلم الغريب يا إلهي؟ أحدهم يطرق الباب، أرجو ألا يكون من أولئك الناس.

فتح الباب فرأى رجلاً غريباً:

- صباح الخير.

- كلفتني ابنة خالتك أن أسلمك هذه الرسالة. تفضل.

- ابنة خالتي؟

- نعم. كانت في عجلة من أمرها وقد أعطتني هذا المغلف، وطلبت مني إيصاله إليك بعدما دلتني على البيت. هه. إنها فتاة كريمة. نقدتني مبلغاً محترماً.

أمسك المغلف بيده وأغلق الباب وهو يفكر مستغرباً. ابنة خالتي.

فتح المغلف فرأى ورقة داخله. فتحها ليقرأ بدهشة:

«الأستاذ هاني آسفة على هذه الطريقة التي تستلم بها رسالتي، أعلم أن منزلك مراقب، لم أستطع القدوم إليك. أنا لينا الحامدي ابنة عبد الإله الحامدي الذي تحتفظ بمخطوطه عندك. كنت خائفة كثيراً أن تعثر عليه تلك المرأة ورجالها في بيتك، ولكن يبدو أنك أخفيته جيداً. لا بأس. أرجو أن توصل الأمانة كما طلب والدي. سأنتظرك في المكتبة العامة هذا المساء. سأكون في قاعة طلاب البحوث، أضع حول رقبتي شالاً بلون أحمر. انتبه جيداً وأنت تقترب مني، يجب ألا تلفت النظر. الأعداء خطرون. سأكون بانتظارك منذ السادسة مساء».

أتلف الورقة سريعاً وقد شعر أنها شديدة الأهمية وتناوشته الهموم:

«ماذا سيفعل الآن؟ هل يخبر المحقق، أم يكمل قراءة المخطوط قبل أن يقابل (لينا) ويسلمها الأمانة»؟

لماذا الخوف إلى هذا الحد؟ الخوف الذي يجعله يتخيلهم يزرعون عيونهم حوله.

أغلق هاني الستائر جيداً. بعدما تأكد من إغلاق الأبواب. ثم جلس خلف مكتبه، يضع المخطوط ضمن كتاب ضخم مستعداً لأي طارئ.

أخذ يقلّب المخطوط، ويكمل قراءته مدهوشاً لسعة معارف كاتبه عبد الإله الحامدي.

* * *

«لم يبخل عليّ الصوفي بمعلومة شعر أنني أستفيد منها إلّا وقدّمها لي، وهو يشرحها بالتفصيل، ولكن صورة زهرة كانت تلح عليّ باستمرار، وكأنما شعر أستاذي (الصوفي) بشرودي، ففاجأني يوماً».

- هه يا عبد الإله، أمازلت تتذكر زهرة؟

- زهرة ؟

- نعم زهرة الفتاة الجميلة، التي ستسعد كثيراً بالزواج منها.

- في الحقيقة يا سيدي، أنا لا أنكر أنني أتذكرها دوماً، ولكن كيف السبيل إلى الوصول إليها، وأنا لا أعلم عنها شيئاً. لقد فارقتنا وأمها بعد ما أكملت علاجك. دون أن تعطيني فكرة عن إمكانية اللقاء بها ثانية، لم تعطني عنواناً، أتعرف عنوانها يا سيدي؟

- ليس صعباً الوصول إليها. أتريد رؤيتها؟

- نعم يا سيدي.

- ركّز صورتها في ذهنك، وتأمل، ستصل إلى مكانها وتراها في داخلك. هيّا جرّب. أنت تملك قدرات هائلة.

- حسناً يا سيدي.

وبدأت أفكّر بما قاله وأحاول تركيز أفكاري.

وبدأ التركيز يأخذ مفعوله بالتدريج، فقد خيل إليّ أنني أرى زهرة. أنا أرى وجهها المشرق الذي شدّني إليه قبل عام. آه. أراها تقبع في دار. إنها قبو صغير. خصصت غرفته الكبيرة لمخبرها. إنها تجلس حزينة؟ يا إلهي، أنا أراها حزينة، معقول؟ اشعر بقلبي يزداد خفقاناً.

شعرت به يخزني:

- استيقظ من تأملك يا بني. أقرأ في وجهك الحزن، هل رأيتها حزينة، تمرّ في محنة؟

- حسناً اذهب إليها حالاً.

- كيف سأذهب يا سيدي؟

- سيدلك قلبك لا تقلق.

* * *

ودعت أستاذي العظيم، واتجهت نحو الجنوب، هكذا دفعتني غريزتي، اجتزت جبالاً ووديااناً حتى وصلت إلى مدينة ضخمة، تقع على سفح جبل أجرد. درت في شوارعها يدفعني شعور غريب، حتى وصلت إلى شارع صغير، حركة المرور أمامه شبه منعدمة. بدأ قلبي ينبض بعنف. هل أقترب من منزلها؟

يا إلهي. كنت مسيّراً بشعور غريب، دفعني لأطرق باب قبو ينخفض قليلاً عن مستوى الأرض. ثم طرقت بابه. ولا تسل عن دهشتي حين فتح الباب وطالعت وجه زهرة:

- عبد الإله. أنت؟ يا إلهي، قبل لحظات كنت أحلم بقدومك.

أخذت تصرخ:

- أمي جاء عبد الإله.

أتت العجوز:

- أهلاً بك يا بني. الحمد لله جئت إلينا أخيراً.

- لو أعطيتني العنوان، لجئت منذ أشهر.

- الصوفي هو الذي أراد أن يختبرك.

- إنه معلّم حكيم. يغترف من ينابيع المعرفة بسهولة. إنه عبقري.

- أكملت العجوز وهي تزفر بألم:

- مررنا بظروف عصيبة يا عبد الإله.

- هل عاد المرض إلى زهرة من جديد؟

- لا. أبداً. إنه أمر أخطر من ذلك.

- ماذا. ما الذي حدث؟

- جاء إلى زهرة بعض المرضى، عالجتهم بالأعشاب ونجحت تماماً في علاجهم. وقد استخدمت مع بعضهم العلاج الحيوي. ولكن هؤلاء تكلموا للأطباء في المدينة، يسخرون من الطرق الطبيّة الحديثة، فثار علينا هؤلاء واتهمونا بالسحر والشعوذة. وتعرضت زهرة لمضايقات كثيرة.

- هذا أمر خطير فعلاً. وماذا صنعتما لمقاومة هذه التهمة؟

- تمكنت من الوصول إلى (القاضي الأكبر) وشرحت له الموضوع بالتفصيل، وكان رجلاً متفهماً، حكم في القضية لصالحي. ولكن مضايقة الأطباء لم تتوقف، بل ازدادت شراسة. وقد جاءتنا طبيبة متظاهرة بأنها ستقف معنا بحزم ضد ادعاءات زملائها. ووضعت في خفية عنّا بعض المخدرات الممنوعة وبعد دقائق من ذهابها داهمتنا الشرطة. وبالطبع وجد

الضابط كيس المخدرات، فقبض على زهرة رغم محاولاتي أن أدفع عنها التهمة دون جدوى.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- اضطررت إلى اللجوء إلى قواي الخفية، ذهبت إلى منزل الطبيبة وكشفت لها عن طاقتي التي أملكها وعن اتفاقها مع زملائها لتوريط زهرة. وهددتها أنني سأنتقم منها إذا لم تكشف الحقيقة للشرطة. وفعلاً نفذت رغبتي وذهبت للشرطة وكشفت اللعبة وأطلق سراح زهرة.

- ولكنا لم نسلم من المضايقات، وخاصة أننا نعيش وحيدتين أنا وأمي.

- هل والد زهرة متوفى؟

- نعم. وليس لي سواها. وليس لنا قريب في هذه المدينة.

- سأكون إلى جوارك يا خالة. ولن تقلقي وزهرة بعد اليوم.

- كنت متأكدة أنك شاب غير عادي. أنت من تلامذة الصوفي الآن، وقد تتوفق وزهرة في الوصول إلى أسرار القوى الخفيّة عند الإنسان، ولكن أين ستقيم؟

- سأقيم قريباً من هنا.

ولم يمض أقل من شهر حتى تزوجت زهرة. وعشت أجمل سنوات حياتي معها. وكانت أمها أماً حقيقية لنا. عملنا سوية في مجال الأعشاب. ومجال الطاقة الحيوية. واستطعنا إثبات أنواع من الأعشاب لها قدرة كبيرة على الشفاء. وكنا نجرب العقاقير التي نصنعها على أنفسنا. وكان تأثير الطاقة الحيوية على

عملية الإنبات والنمو تأثيراً كبيراً. كانت أصابعي السحرية (كما أسمتها زهرة) تكشف طيف البذرة وتصل إلى عناصر تخطيطها النووي. فتدفعها إلى العمل المنظّم الدقيق. لتنتش وتنمو خالية من الضعف والمرض. وفي أحد الأيام. قالت لي أم زهرة:

- اسمع يا بني هذه الأسرار التي كشفتها مع زهرة، يجب أن تفيدا بها الناس، كثير من الفقراء يحتاجون إلى العون، وقد لا يملك المرضى منهم ثمن العلاج والتطبب، يجب أن تساعداهم.

- ولكن يا خالة. قد يسبب لنا هذا مشاكل كثيرة. أتتذكرين ما جرى لزهرة مع أولئك الأطباء؟

- لن تخلو حياتنا من مشاكل بالطبع، ولكن الرسالة الخيّرة للإنسان، هي رسالة أشبه بأمانة أعطاها لنا الله عز وجل لنحسن استخدامها.

قالت زهرة:

- معك حق يا أمي. أناس كثيرون لا يملكون شيئاً يحتاجون إلى معرفتنا. هه. ماذا قلت يا عبدو؟

- إن كانت هذه رغبتك يا زهرة. فسننفذها معاً.

- بارك الله فيكما يا ولديّ.

وحكى عبد الإله كيف كان وزهرة يعالجان المرضى بطرق متفوقة، عن طريق تركيز الطاقة وإعادة التوازن لمراكزها، وكذلك بعون الأعشاب المستنبتة بطريقة متفوقة.

-٥-

وبدأت المشاكل تضايقهما وخاصة بعد أن شعرت زهرة بأعراض الحمل، وأصبحت لا تستطيع تركيز طاقتها كما كانت من قبل. حيث كان المريض الذي يشفى بجلسة واحدة مع جرعة من منقوع الأعشاب الملائمة لعلاجه أصبح يستغرق أياماً وأحياناً أسابيع.

وهذا ما أضعف قدرتهما على العمل، وحين أصبحت زهرة متقدمة في الحمل أوقف عبد الإله عمليات علاجه، وبدأ الناس يضايقونه. وفي أحد الأيام وكانت زهرة في شهرها السابع. اعتدى بعض الصبية على والدة زهرة. وساعدهم في ذلك بعض المشاكسين.

- أنت أم الساحرة التي نفذ سحرها إلينا؟ هه.

- ابنتي ليست ساحرة، إنها عالمة حقيقية.

- عالمة بالسحر.

- ابنتي تعرف الطب والعلوم الطبيعيّة وهي ملمّة بمختلف المعارف.

- وهي مشعوذة خطيرة تسيء إلى الإنسان في بلدنا. هي وزوجها وأنت أيضاً.

- لا تظلمونا بهذا الكلام القاسي.

- سترون ما يمكن لنا أن نفعل حين نسحبكم، لتمثلوا أمام القانون وتحاكموا على جرائمكم.

خرج عبد الإله يسألهم:

- لماذا أنتم متهيجون هكذا؟

- أنت شريك لزوجتك وأمها. أعاننا الله عليكم، لماذا لا تتوقفون عن الشعوذة؟

- نحن لسنا مشعوذين، تأكدوا أننا لم نسئ إلى أي منكم، لماذا هذا الصخب والتهجم علينا؟ هذا لا يجوز.

- ستمثلون أمام القاضي جميعكم وتحاكمون.

- بأي تهمة؟

- تهمة الغش والدجل، حاولت كثيراً أن أعرف ما يجري أثناء جلسات معالجتكم للمرضى فلم أستطع. ولكني متيقن أنكم تقومون بتنويم مرضاكم، والسيطرة عليهم، ليقعوا تحت سحركم.

- لا تظلمنا أيها الرجل.

- نحن لا نظلمكم هناك حقائق كبيرة تدينكم.

- أية حقائق؟ إنها حقائق تتوهم حدوثها. وليست موجودة على الإطلاق. أسمعت يا خالة؟

قال أم زهرة:

- أرجوكم أن تحتكموا إلى العقل، نحن لم نقم بعمل ليس مع المنطق العلمي. ليتكم تفهمون.

وأخذت تنتحب باكية، سخروا من بكائها قال أحدهم:

- لجأت العجوز لوسيلة البكاء. لن يجديك هذا البكاء.

ردت عليه بغضب:

- حتى أنت أيضاً؟ ألم نخلصك من مرضك الصعب في الشهر الماضي؟

- لم أكن أعرف أنكم تمارسون السحر.

- سامحك الله.

اقترب منّا رجل كهل وقال هامساً:

- دفعوا لهم المال ليقوموا بمضايقتكم. إنّهم أصحاب المشافي الخاصة.

- لا بأس. سنتدبّر أمرنا.

- هل أخابر الشرطة.

- لا. لا داعي لذلك.

قال أحدهم:

- ماذا تقول له أنت؟ لماذا تهمس إليه في أذنه؟

- أقول له أن يحذر منكم، دفعوا لكم مبلغاً كبيراً وسأشهد بذلك أمام القاضي.

اتجهوا نحوه:

- ماذا تقول أيها الوغد؟

أزاحهم بغضب:

- الحقيقة. ابتعدوا عن هنا.

- لن نتركك تضيع علينا جهودنا. اهجموا عليه.

- ابتعدوا قبل أن أطلق النار، أترون مسدسي؟ أستطيع بثقة توجيهه نحوكم لأنكم لا تستحقون الحياة.

- لنبتعد، يبدو أنه جادّ في تهديداته.

- هيا لنبتعد بسرعة.

وفعلاً ابتعدوا عنا مرغمين وبسرعة كبيرة.

- شكراً لك يا أخي.

- لا شكر على واجب، أنا أحد تلامذة الصوفي يا سيدي. هو من أرسلني لمساعدتكم.

- الصوفي؟ ولكنّ تلامذة الصوفي لا يستخدمون المسدسات.

- إنه مسدس لعبة. يستخدمونه في المسارح للتمثيل. خذه وتفحّصه.

- أنا آسف. أسأت الظن بك. تفضل بالدخول.

- لا داعي لذلك، أنا مقيم في مكان آخر، حين تحتاجون إلي ستجدونني بينكم بسرعة. وداعاً.

ولم تؤثر هذه المضايقات على نفسية زهرة، فقد وضعت بنتاً جميلة انشغلت بها تماماً. وأعطتها كلّ حبها وعنايتها، وفي هذا الوقت كنت أدرس بعمق تركيبات نباتية جديدة بمعونة الطاقة الحيوية، وقد توصلت إلى خليطة لها مفعول السحر على جميع أنواع الأمراض الفيروسية، إنها موضوعة على شكل معادلات وتراكيب بمقادير معينة، في آخر المخطوط الصغير، آه. لا أدري ما الذي يلحّ عليّ لأكتب لك في وريقات قد تتلف مع الزمن. توقفت المذكّرات، وظهرت

جمل غريبة، ورموز ومعادلات غير مفهومة، بدا وكأنها التركيبات التي تكلم عنها. إن لينا ابنته تطلبها، هل يسلمها إليها، أم يذهب إلى المحقق ويحكي له كل شيء؟

تردد كثيراً: «ولكنها أمانة يجب أن تسلّم إلى أصحابها، رجاني عبد الإله الحامدي، الذي قتل أمام عيني أن أسلم هذه الأمانة إلى ابنته، يجب أن أسلمها لها».

نهض هاني من رقدته، وارتدى ثيابه، وأخفى المخطوط بين طيّات قميصه، وهو يتشوّق لرؤية لينا الحامدي، ومعرفة سرّ هؤلاء الناس الذين يريدون المخطوط. وقاموا بقتل والدها لأجله.

تمشّى قليلاً في الشارع الموازي لبيته، فشعر أن أحداً يلاحقه، وتأكد من ذلك حين حانت منه التفاتة، جعلها غير مقصودة وراءه.

لا بدّ أن من يلاحقه هو أحد أفراد عصابة تلك المرأة الغريبة التي اقتحمت مع رجالها بحثاً عن المخطوط، ليلة أمس.

مشى هاني كثيراً، ثم دخل أحد المطاعم يتناول طعامه. وبعد أن انتهى خرج من الباب الخلفي للمطعم جهة المطبخ وهو يعتذر من العمال. تأكد أنه تخلص من الرجل الذي يتبعه. فاتجه صوب المكتبة العمومية وقد اقترب موعده مع لينا.

كانت لينا كما أرادت في الرسالة أن يسلمها المخطوط بسريّة مطلقة، دون أن يكلمها، ولكنه كان مصمماً على الحديث معها ومعرفة الأجوبة عن بعض الأسئلة التي ما زالت ترهقه.

جلس في المكتبة يراقب الناس. ليتأكد أن لا أحد يراقبه بدا له أن الجميع مستغرقون بقراءاتهم ومطالعاتهم.

سمع صوتاً خلفه:

- الأستاذ هاني؟

وكانت صبية تضع شالاً أحمر حول رقبتها كما ذكرت في الرسالة.

همس:

- آنسة لينا؟

- نعم. أعطني المخطوط بسرعة يجب ألا نلفت الأنظار.

- أنا آسف. هناك أمور كثيرة يجب أن تفسريها لي قبل أن أسلمك المخطوط.

- لست واثقاً من شخصيتي؟ أنا لينا الحامدي أقسم لك.

- أنا أصدقك، ولكن يجب أن نتحادث.

- هناك (مقصف) قريب، ما رأيك أن نذهب إليه.

- لماذا ليس في (مقصف) المكتبة نفسها، هذا أفضل.

- كما تشاء.

انسحبا بهدوء إلى المقصف، تأملها كانت صبية جميلة تتمتع بشخصية فريدة:

- نعم يا أستاذ هاني، ماذا تريد أن أفسّر لك؟.

- كيف عرفت شخصيتي دون أن نلتقي من قبل؟.

- نسيت أنني ابنة (عبد الإله الحامدي) أحد المتخاطرين المتفوقين، وأحد من يستخدم دماغه بشكل صحيح؟

- حسناً. اسمعي يا آنسة لينا، قرأت مخطوط والدك بدقة، وقد توقفت مذكراته عند زمن معين، لم يفسر فيه ما جرى بعد ذلك، ولم يلاحقونه، هؤلاء الناس الذين قتلوه قبل أيام؟

- مسكين والدي كان يسبق عصره بزمن كبير. ولم يكن يظن بالناس ظنّ السوء، كان طيباً لدرجة أنه كان يندفع في سبيل الناس وخدمتهم مهما كانت النتائج. وقد أحبّه الفقراء، وأحاطوا به. ومنعوا عنه أذى الحسّاد الذين انبهروا بعلاجاته المتفوقة.

- لماذا لم يقدم بحوثه للمراكز العلميّة ليستفيدوا منها؟

- أي مراكز علمية يا أستاذ هاني؟ خارج البلاد؟ كان يرفض ذلك تماماً وفي رأيه أن بلدنا تحفل بالأدمغة والإمكانات الهائلة، وأن سوء تقدير المتصرفين في أمور الحياة والتقدم، هو الذي جعل مشكلة هجرة الأدمغة قاعدة. بدلاً أن تكون استثناء.

- حسناً، أكملي كلامك، حدثيني عن فترة حياته التي تلت ولادتك.

- انشغلت أمي بالعناية بي، وانشغل هو بمتابعة أبحاثه، وكان يتراسل تخاطرياً مع (الصوفي) ذلك الرجل الحكيم، ويقتبس منه الخبرة والإرشادات اللازمة لتكملة بحوثه. وتحوّل والدي خلال سنوات إلى طاقة كبيرة من العطاء الحيوي العلاجي. فأرسل أحد المتنفذين خلفه في أحد الأيام.

- أرسل خلفه؟ لماذا؟

- كان أحد أبنائه مريضاً وقد استدعى والدي إليه.

وجاء والدي إلى قصر ذلك الثري، وأعطى اسمه للخادم الذي طلب منه الانتظار، وأخذ والدي يتأمل البذخ والرياش الفاخر.

- وجاء رجل بدا له متكبراً متعجرفاً سأله:

- أنت عبد الإله الحامدي؟

- نعم. أرسلت في طلبي؟

- سأرى كيف ستعالج ابني، إنه مصاب في رئتيه.

- سيعينني الله في علاجه.

- تفضل، رافقيه يا أمينة.

- نعم يا سيدي.

-٦-

كان شاباً منهكاً يكاد يموت، بدأ أبي يستخدم يديه وأصابعه السحرية في علاجه، وبعد نحو الساعة، نهض الشاب من رقدته، وقد تخلّص من آلامه. بالطبع فوجئ السيد الكبير بذلك. واستدعى والدي إلى مكتبه:

- اسمع أيها الساحر. إن عاد ابني إلى مرضه، سأجعل كلابي تمزقك.

- لست ساحراً أيها السيد، وقد تخلّص ابنك من مرضه إلى غير رجعة.

- عجز الأطباء الكبار عن علاجه، وأكدوا لي أنه سيموت، كيف تمكّنت من شفائه وأنت لم تقدم له عقاراً، استخدمت سحرك وتعاويذك؟

- لا أسمح لك بإهانتي أكثر من ذلك.

نهض والدي بغضب يريد الانصراف.

- إلى أين؟

استدعى رجاله:

- اقبضوا على هذا الساحر.

أوقفتهم أم الشاب:

- لماذا تفعل ذلك؟ لقد عالج الولد. الولد بخير الآن.

- إنه رجل معتز بنفسه، وشديد الوقاحة.

- ولكنه عالج ولدنا، يجب أن تراعيه، إذا عادت النوبات المرضيّة لولدنا، سنعيد العلاج من جديد.

همس إليها:

- أنا أخيفه فقط، أريد أن يصبح تحت سلطتي.

- ولكنه رجل طيب مسكين.

- يجب أن يخضع لي تماماً.

استسلمت:

- كما تشاء.

كان والدي يقرأ أفكار الرجل، وحين أوثقوا يديه وساقوه أمامهم تمكّن بقدرته التخاطرية على جعلهم يفكون وثاقه ويتركونه. ويبدو أن ذلك المتسلّط

المغرور كان يتعامل مع منظمة دولية لسرقة الأدمغة المتفوقة في البلاد، وهذا ما جعل أفراد تلك المنظمة يقومون بدور كبير في مطاردة أبي، وقتلوا أمي غيلة فهرب بي والدي إلى مدينة أخرى متخفياً باسم جديد وتابع بحوثه، وكنت قد كبرت، وأنا أشاركه بحوثه ودراساته. كان قد كتب كل نتائجه في المخطوط الذي تحمله بين طيّات قميصك. وطلب مني أن أحافظ عليه. ولم أكن في المنزل حين اقتحموه. وهرب منهم باستخدام ملكته التخاطرية. قال لي:

- انتبهي يا ابنتي، سيلاحقونك حتى يحصلوا على المخطوط تركت لك مالاً وفيراً لتقومي بأبحاثك المستقلة، وأقترح عليك أن تلجئي إلى مكان بعيد وتبني لك مختبراً تحت الأرض تمارسين فيه أبحاثك بعيداً عن الغدر.

كان همّهم في البداية أن يتعاون أبي معهم ويقدم إبداعاته لهم، ولكن شخصية أبي العنيدة الثابتة على الحق أرهقتهم، فرغبوا في الحصول على نتائجه، وقد علموا أنه وضعها في مخطوط صغير، قلبوا كل شيء بحثاً عنه دون نتيجة حتى هاجموا والدي، وقد تأكدوا أنه يحمل المخطوط في جراب صغير في صدره، فقتلوه للحصول على المخطوط حين تدخلت أنت.

- آه. فهمت. تريدين المخطوط الآن؟

- نعم أرجوك، هيا.

سمعا جلبة في مدخل المقصف قالت بخوف:

- لقد اتوا إلينا، عرفوا مكاننا.

- خذي المخطوط وأخفيه سريعاً. سأشاغلهم. اتصلي بي بانتظار رسالة منك.

- نعم. نعم.

وخرجت الصبية بسرعة كبيرة. من باب جانبي. ورأى هاني نفسه محاطاً بمجموعة رجال:

- تعال إلى هنا.

- ماذا تريدون؟

- أين المخطوط أيها الوغد؟

- أنا لا أعرف شيئاً.

- والفتاة التي كانت بصحبتك.

- إنها إحدى زائرات المكتبة، لم أرها من قبل.

- فتشوه جيداً.

وفتشوه بقسوة ولم يعثروا على شيء معه.

- أمصر على إنكارك للمخطوط؟

- أي مخطوط؟ قلت لك لا أعرف شيئاً.

وأنقذه منهم حضور رجال الشرطة التي يبدو أن موظفي المكتبة طلبوهم. قال من بدا رئيسهم وهو يشير لرجاله بالانسحاب:

- لن نتركك سليماً أيها الوغد إن تأكدنا أن المخطوط بحوزتك.

* * *

انتظر هاني أن تتصل به لينا من جديد، كان يراها في الحلم كأميرة تعلق بها قلبه.

ولكنها لم تأت، حتى كاد ييأس. استعاد الأحداث، التي بدت له كحلم. وهو يسأل نفسه عن المكان الذي اختارته لينا للحياة. هل يمكن أن يلتقي بها من جديد؟

ظل هذا السؤال يعذّبه وما زال في قبوه الصغير غارقاً بين كتبه ومخطوطاته ودراساته المعمّقة. حول القوى الخفية للإنسان.

* * *

فهرس

الصفحة

ملامح من الذاكرة الوراثية ٥

قلوب ميّتة ٤٣

تلك التلال الغامضة ٨٧

تحت أرض القمر ١٣١

الفجر الرمادي ١٥٩

خروج الموتى ١٨٩

سادة القهر والمتعة ٢٠٧

خارج دائرة الحياة ٢٥٣

نزيف الفقراء ٢٧٧

الأصابع السحريّة ٣٤٩

فهرس ٣٨٩

د. طالب عمران

- مواليد ١٩٤٨. دكتوراه في الهندسة التفاضلية والفلك - الهند.

- أستاذ في كلية الهندسة المدنية - جامعة دمشق.

- له أكثر من مئة وخمسة عشر كتاباً في مجال الدراسات العلمية والروايات ومجموعات القصص من الخيال العلمي، بينها:

  - العالم من حولنا.
  - نافذة على كوكب الحياة.
  - من أسرار الحياة.
  - صناع الحضارة.
  - كوكب الأحلام.
  - صوت من القاع.
  - خفايا النفس البشرية.
  - رواد الكوكب الأحمر.
  - مدينة خارج الزمن.
  - البحث عن المدينة المفقودة.

٢٠٢٢م